رينـزو مـانـزوني

الْـيَـمَـن
رِحْـلَـةٌ إِلَى صَـنْـعَاء
1878-1877

جميعُ حقوق النشر محفوظة للصندوق الاجتماعي للتنمية– اليمن.

يجوز للمنظمات غير الربحية أن تقتبس أو تُعيد نشر هذه المواد شرط أنْ تذكُرَ اسمَ "***الصندوق الاجتماعي للتنمية– اليمن***" مصدراً لها.

لا يُسمح بالنشر للأغراض التجارية إلا في الحالات التي يوافق عليها الصندوق الاجتماعي التنمية، وبإذنٍ خطيٍّ مُعَمَّدٍ منه.

لا يُسمح بترجمة نصوص هذا المنتج إلى لغات أخرى، ويجوز نسخ مقتطفات منه لأهداف غير تجارية شريطة ذِكْرِ اسمِ "***الصندوق الاجتماعي للتنمية–اليمن***" مصدراً للمادة المنشورة أو المُترجَمَة أو المُقتَبَسَة.

للتواصُل مع الصندوق حول النسخ أو الاقتباس من هذه المادة، يمكنكم التواصل على: info@sfd-yemen.org

الكتاب : اليَمَنُ؛ رحْلـةٌ إلى صَـنْـعَاء (1877-1878)
المؤلّف : رينزو مانزوني
الموضوع : اليمن- وصف ورحلات (ترجمة من الإيطالية)
الحجم : 336 صفحة (21 × 14.8 سم.)
المترجم: ماسيمو خيرالله
المراجعة اللغوية : الاستاذ/ محمد لطف غالب

النَّاشر : وحدة التُّراث الثَّقَافِيّ، الصّندوق الاجتماعي للتّنمية صنعاء- الجمهوريَّة اليمنيَّة

رقم الإيداع بدار الكتب: 444 (2011م.)، صنعاء.

الطبعة الأولى
مارس 2011م.

جميع الحقوق محفوظة © للصندوق الاجتماعي للتنمية صنعاء - الجمهورية اليمنية

صــورة المؤلّف:

تصدير

يقوم الصندوق الاجتماعي للتنمية عبر وحدة التراث الثقافي بعدة مشاريع في مجال الحفاظ على الجوانب المختلفة لهذا التراث تشمل إصدارات لمسوحات توثيقية و دراسات متخصصة ذات نوعية عالية ومرتبطة بعملية الحفاظ و نشر الوعي بأهمية التراث الثقافي و حمايته، كما لا يخفى أن المكتبة اليمنية تفتقر الى المراجع التاريخية والعلمية عن التراث الثقافي بشكل عام و العمراني والمعماري والاجتماعي بشكل خاص . و تكمن أهمية ترجمة وطباعة كتاب اليمن – رحلة الى صنعاء (1877-1878م) للرحَّالة الإيطالي رينزو مانزوني في أنه وثق ضمن وصفه الدقيق لمدينة صنعاء بأقسامها الثلاثة ومحيطها الجغرافي ومعالمها من مساجد وقصور وحمامات وأسوار وبوابات بالإضافة الى العديد من أسماء المناطق والاشخاص والنباتات و الادوات المستخدمة في تلك الفترة للمناطق التي مر بها في طريقة من عدن إلى صنعاء ، كما تطرق الى الحوادث التاريخية لتلك الفترة مدعماً ذلك بصور كثيرة متوجة بخارطته الشهيرة لمدينة صنعاء، مما يقدم صورة إسترجاعية لكثير مما تغير أو اندثر من تلك الأشياء.

نأمل أن يضيف هذا الكتاب الى المكتبة اليمنية مرجعاً يستفيد منه الباحثون والمهتمون بتلك الفترة من تاريخ اليمن.....

وحدة التراث الثقافي
الصندوق الاجتماعي للتنمية

تـقـديـــم

د. عبدالعزيز المـقالح

من الطريف والمثير في آن أن نتمكن عبر صفحات هذا الكتاب من أن نزور يمن ما قبل مائة وأربعين عاماً، وأن نرافق الرحَّالة الإيطالي "رينزو مانزوني" في رحلته إلى بلادنا التي تمت بين (1877 و 1878)، وأن نقطع معه الطرق الوعرة ونتسلق الجبال ونزور المدن والقرى ونستمتع بمناظر الوديان، في رحلة على ظهور البغال والحمير أو مشياً على الأقدام. ومن المسلي وأحياناً من المؤلم أن نسترجع صوراً مما رآه المؤلف في ذلك الماضي ما تزال ماثلة للعيان وكأن الزمن لا يجري والحياة لا تتحرك أو تبعد، صحيح أن تغييراً كبيراً قد حدث في بعض المدن فأصبحت تضاهي بعض مدن العالم وقد تتفوق عليها بنماذج من القصور الباذخة، لكن حالة القرى في بعض المناطق البدوية في عدد من المحافظات الجنوبية والشمالية ما تزال كما رآها ذلك الرحَّالة في ذلك الوقت من القرن التاسع عشر.

وما أثار تساؤلي هو : لماذا لم تتم ترجمة هذا الكتاب منذ وقت طويل لاسيما بعد أن نشطت الترجمة، ولقيت الرحلات الأوروبية إلى البلاد العربية اهتماماً خاصاً، فقد عرف القارئ العربي كتباً عديدة مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من اللغات، ومنها بالنسبة لنا عدد من الكتب التي كتبها رحَّالة بريطانيون وألمان ومنها : كتاب الإيطالي

سلفاتور ابونتي في البلاد العربية السعيدة. علماً بأن هذه الرحلة الوصفية أقدم وأهم بالرغم من غياب الحيادية والإسراف في الحديث عن العداء الذي لكان مستحكماً من اليمنيين والأتراك وما قيل عن الرضا الذي كان البعض يبديه نحو البريطانيين، وهو ما كانت الصحافة الاستعمارية الأوروبية تروِّج له وتسعى إلى إظهار الدول الأجنبية المعادية للوجود العثماني في الأقطار العربية وكأنها قوى محررة للعرب قبل أن تثبت الأيام أنها قوى احتلال حقيقي وأن التحرير أبعد ما يكون عنها وعن أهدافها الخبيثة.

ليس في هذا الكتاب ما يعد جديداً على جيلنا سواء في حديثه عن عدن وصنعاء، وفي حديثه عن وعثاء السفر على ظهور الحيوانات فقد عانى جيلنا مثل ما عانى الرحَّالة، ورأينا صنعاء كما رآها، ووصلنا إليها بعد أيام سفر يطول عددها أو يقصر حسب مكان الانطلاق، لم يكن يوم دخلناها قد حدث أي تغيير يذكر داخل المدينة وخارجها وكانت أسوارها الطينية ما تزال تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم وربما كانت زمن زيارته أحسن حالاً مما بدت عليها زمن وصول أفراد جيلنا إليها، ف قد كانت تضم أسواقاً لليونانيين والروس، كما كانت مقاهيها عامرة وحديثة، لكنها في كل الأحوال تبقى مدينة بديعة وآسرة بنظام معمارها الفريد، وبطقسها المعتدل وبأهلها الذين كانوا مثالاً لسكان المدينة المتحضرة، في سلوكهم وتعاملهم وفي أحاديثهم وطريقة معيشتهم، وفي اتساع صدورهم للغريب عربياً كان أو أجنبياً

ومما يستدعي الانتباه في هذه الرحلة حديث صاحبها عن المستشفى الذي أقامه الأتراك في قلب صنعاء لعلاج المرضى من الموظفين وسكان المدينة، والذي تحول بعد رحيلهم إلى منزل خاص بالإمام يحيى بعد تسميته بدار السعادة، وكان قد تم تصميمه على النمط الأوروبي، ويتألف - على حد وصفه - من طابقين اثنين وأروقة عريضة جداً، وعشرين صالة واسعة

للمرضى تنقسم بحسب الأمراض : صالة للمصابين بداء الزهري، وصالة للمصابين بالحمى، وصالة للأمراض المعدية، وصالة للأمراض البصرية..الخ. وكان هذا المستشفى يضم 370 سريراً من الحديد، وكل سرير له فرْشَان ووسادتان وغطاءان وملاءتان، وبجانب كل سرير طاولة مع كأس وصحن أبيض معدني، وعلى رأس السرير توجد لوحة سوداء معلّقة على الحائط يكتب عليا بالطباشير اسم المريض ومرضه بالفرنسية . يقوم بالواجب الطبي ستة أطباء مسيحيون على رأسهم ط بيب تركي برتبة عقيد وهناك ثمانية جرَّاحين، وعشرة صيدليين، وخمسة عشر ممرضاً وكثير من الخدم العرب والأتراك. وهناك أيضاً رجل دين، وهو قاض تركي يلبس عمامة خضراء. ويوجد مطبخ كبير يقوم عليه ثمانية طهاه يجهزون الطعام للمرضى حسب طلب الطبيب...".

في الكتاب إشارات يج در التوقف عندها، ومنها تلك التي تتحدث عن سكان القرى، وتصنفهم إلى قبائل وبدو، حينما يقول: "يتميز القبيلي كالبدوي، بالبساطة: يعطي احتراماً كبيراً للخبز؛ ففي اعتقاده أن الخبز الذي يشكل أساس غذائه، يتصل بشدة مع مفهوم الوجود البشري، لدرجة أنه يسميه عيش (معنى حياة) أي ذلك الوقت الذي يمر من الولادة إلى الموت. لذلك لا تُرمى ولو قطعة صغيرة منه، وإن صادف أن وجدها أحدهم في طريقه حمله وقبَّله ثلاث مرات رافعاً الشكر لله، ووضعه في مكان لا يمكن تدنيسه وحيث يمكن استهلاكه، ولو من قبل كلب".

ويمضي بعد تلك الإشارة التي كانت سم ة يمنية في الريف كما في المدينة والتي اختفت أو كادت، كما اختفت كثير من القيم المادية والمعنوية . يمضي إلى القول بأن العرب يفتخرون بضيافتهم وبأن الدين الإسلامي "ينص على الصدقة فهي تعتبر واجباً مطلقاً على المؤمنين الحقيقيين . وكذلك الحال بالنسبة

للضيافة التي تعتبر عندهم فضيلة كبرى، بناءً على ذلك يستفيد المسافرون، أياً كانت دياناتهم، من حسن ضيافتهم ورحابة صدورهم. وإن كان الجهل سائداً في تلك البلاد، فمن الخطأ الكبير تحميل الدين الإسلامي ذنب ذلك . فالمقاطع التي تكرِّم العلوم وتحث على تعلمها في القرآن الكريم . والجميع يعلم ما أنتجه الخلفاء في بغداد والحضارة العربية في أسبانيا . فأسباب الجهل عند العرب هي نفسها الأسباب التي تجعل من فلاحي إيطاليا الجنوبية، وأسبانيا واليونان وسائر البلدان مثلهم أيضاً . ولا أحد يجرؤ على القول بأن سبب كل هذا يعود إلى الديانة الإسلامية".

ورغم هذه الملاحظة الدقيقة والصحيحة فإنه من الواضح أن هذا الرحَّالة يجهل كل شيء عن العقائد الدينية بما في ذلك الدين المسيحي الذي ينتمي إليه، لذلك فقد شاب حديثه عن الدين الإسلامي والقرآن الكريم خاصة الكثير من الجهل وعدم الفهم . وكنت أتمنى له أن لا يتطرق إلى هذا الباب على الإطلاق وأن يتمحور كتابه الطريف على مشاهداته وما نقله عن الحالة الاجتماعية في بلد عربي بعيد عن أوروبا مجهول لدى أهلها بدلاً عن الدخول في مناقشات دينية يصعب على المتخصصين الأوروبيين الخوض فيها فضلاً عن غير المتخصصين.

ومن الملاحظات ذات الأهمية إغفال الكتاب الذي بين أيدينا لنماذج من الصور التي التقطها الرحَّالة وكانت بمثابة وثائق على درجة من الأهمية لقارئ اليوم لكي يقارن بين ما كانت عليه المدن والقرى اليمنية وما صارت إليه بعد التحديث النسبي، ولاسيما وقد عرفنا من خلال الك تاب أن صاحبه كان مصوراً محترفاً وأنه أعد غرفة في البيت الذي استأجره في صنعاء خاصة بتحميض الصور. والسؤال هو: هل نستطيع أن نعثر على بعض تلك الصور التي كانت جزءاً من هدفه الأساس في الرحلة

التي استغرقت شهوراً كانت الكاميرا خلالها رفيقته في كل تحركاته؟

يبقى في هذا التقديم إشارة لابد منها إلى دور المترجم الأستاذ ماسيمو خيرالله الذي بذل جهداً متميزاً في ترجمة الكتاب من الإيطالية إلى العربية في لغة فصيحة مشرقة. كما تجدر الإشارة إلى دور المراجع الأستاذ محمد لطف غالب الذي بذل هو الآخر جهداً لا يُستهان به في المراجعة فجاءت الترجمة بهذا المستوى المكتمل البديع . والشكر لمعهد "فينيتو " الإيطالي والصندوق الاجتماعي للتنمية اليمني على دورهما في إخراج هذا الكتاب إلى حيز النور بعد أن ظل حبيس لغته الأصلية على هذا المدى الطويل.

تقديم:

اصطحبني، ذات يوم في صنعاء القديمة ، صديقي ماركو دي بيلا، وهو مرمّم قدير وخبير كبير باليمن، لكي أرى البيت الذي عاش فيه رينزو مانزوني. كان دي بيلا قد أجرى بعض الأبحاث عن هذا الموضوع، بدافع حبه للتاريخ وحبه لهذا البلد وعاصمته القديمة . وبينما كان يدلني على المواقع ويقارنها بالصور الفوتوغرافية التي التقطها مانزوني أيام زيارته لصنعاء، كانت عيناه تلمعان بالبهجة وبذلك الانفعال الخاص الذي يظهر على أولئك الذين يبحثون في الأشياء والأماكن والأحداث عن معنى أكثر عمقاً من الذي يظهر على السطح الخارجي.

هناك شيء لا محالة أن يحدث لمن يبقى في اليمن بنظرة أقل سطحية من تلك التي للسائح: فآجلاً أم عاجلاً لا بد لمكوثه أن يصادف رينزو مانزوني، فيقرأ كتابه، ثم يقارن محتوياته بيمن اليوم، فيكتشف دائماً تقريباً أن بغض النظر عن العناصر البديهية لمرور الحقب فإن طبع اليمنيين ونمط حياتهم بقيا على حالهما.

لو كان رينزو مانزوني إنجليزياً، لحظيَ عمله هذا بشهرة وترجمات أكثر بكثير. لكنه كان إيطالياً، ونحن الإيطاليين، كما هو معروف، لا نميل إلى أن نقدر أنفسنا حتى عندما نقوم بإنجازات جميلة أو مثيرة للاهتمام.

وستكون قيمة وميزة هذا الإصدار باللغة العربية في إعلام اليمنيين وغيرهم من القراء في تلك اللغة بهذا العمل القيِّم، مضيفاً عنصراً آخراً في مجال التعارف والتقارب بين اليمن وإيطاليا . وهو نفس التعارف الذي استكشفه بعمق رينزو

مانزوني في أيام قريبة نسبياً، بعد أن قام الأعجوبة لودوفيكو دي فارتيما من بولونيا- الأول من بين الأوروبيين - برحلة مغامرة عبر هذه البلاد عام 1503م.

لهذا كله نقدم الشكر الجزيل والثناء المستحق إلى السيد رينزو رافنيان (مدير معهد فنيتو للتراث الثقافي)، والسيد عبدالحكيم السياغي (ضابط استشاري بوحدة التراث الثقافي بالصندوق الاجتماعي للتنمية)... لهذه العملية التعارفية الم تمثلة بنفس الشجاعة!.

السفير/ ماريو بوفـو
المنسق لإيطاليا في مجموعة "أصدقاء اليمن"

مقدِّمة المترجم

نبذة عن المؤلف:

ولد رينزو مانزوني عام 1852م. في عائلة مرموقة، فقد كان حفيداً للكاتب الكبير اليساندرو مانزوني الذي يعتبر من عظماء الأدب الإيطالي على مر العصور . وبالرغم من كون رينزو متوعرع في بيئة كانت شهرة الجد تطغ ى فيها على كل شيء، فقد برهن منذ يفاعته على امتلاك شخصية قوية وعن إرادة للخروج عن تقاليد العائلة، فقرر الشروع في نشاط السفر والاستكشاف لبلدان وشعوب بعيدة، بعد أن نمى فيه عزم السفر من خلال قراءة الكتب في مكتبة العائلة . فسافر أول مرة إلى المغرب مع بعثة إيطالية رسمية مكث هناك مدة سنة كاملة، ولدت خلالها فكرة السفر وحده إلى اليمن، موضوع كتابه الذي بين أيدينا.

كان رينزو مانزوني خبيراً في عدة ميادين، مثل الجغرافيا والعلوم النباتية وعلوم الشعوب؛ وأتقن اللغة العربية وفن الرسم والتصوير ورسم الخرائط، وكل هذا يظهر جلياً في محتويات كتاب قام بنشره عام 1884م. بعنوان «اليمن. ثلاث سنوات في العربية السعيدة». أراد القدر أن يكون كتابه الوحيد، فبعد تجربته في اليمن لم يتحرك أبداً من إيطاليا، ولا نعرف ما إذا كان هذا بسبب مرض أو نقص في المال والموارد أم ماذا..؟!؛ على كل حال يكون المؤلف أول إيطالي دوّن أخباراً دقيقة عناليمن كاشفاً للجمهور الإيطالي عن عالم جديد ومنغلق الفهم على العقلية الغربية. فقام هكذا بسد فراغ كبير في الثقافة الإيطالية عامة وأدب الرحلات خاصة. ولمذكراته أهمية تاريخية إلى أيامنا هذه فإن لم

يكن يتذكره أو يعرفه أحدٌ في إيطاليا فهو مذكور في بعض الدلائل السياحية في صنعاء التي تحمل أيضاً خريطته للمدينة.

خلال تجواله عبر اليمن، يتخذ رينزو مانزوني لنفسه دور المؤرخ المدون، ويتفادى بقدر إمكانه أن يحكم على الوضع المعقد للبلد، باستثناء تلك الحالات التي كان فيها شاهداً مباشراً على الأحداث. فنظرته نظرة غير أيديولوجية؛ إنه يتعامل بنفس الموضوعية سواء مع الأشخاص المحترمين أو اللصوص، م ع المتعلمين أو الجهلة، مع الملتزمين بالتعاليم الدينية أو الأتراك الأغنياء غير الملتزمين. وهدفه تسجيل الواقع كما يراه ووصف البلد ومكوناتها بشكل نزيه.

يروي كتاب ما رزوني الأصلي ثلاث رحلات في ال يمن: الأولى وهي المأخوذة لهذه الترجمة تنطلق من عدن وتمر عبر الحردبة والجليلة وقعطبة و السدَّة وذمار وأخيراً الوصول إلى صنعاء؛ واستمرت حوالي ثمانية أشهر من سبتمبر 1877 إلى أبريل 1878م، وهي الأغنى بالمعلومات ب النسبة لقراء اليوم . الرحلة الثانية تنطلق أيضاً من عدن لكنها تحاذي ساحل البحر الأحمر عبر المخا والحديدة ومناخة لتصل إلى صنعاء، وهي الأطول حيث تستمر من أبريل 1878 إلى يناير 1879. أما الثالثة فلم تتعد الثلاثة شهور واقتصرت على المن اطق حول عدن . ويتزامن انتهاء سفر مارزوني الذي استمر ما يقارب ثلاثة أعوام مع إقالة الحاكم العام لليمن مصطفى عاصم باشا.

الترجمـة:

كُتب هذا الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي بلغة إيطالية فصيحة التي بالطبع كان لها آنذاك أسلوباً مميزاً وطابعاً خاصاً ووقعاً يتسم بالعراقة والطنانة والبديع مقارنةً بالأسلوب المعاصر، فحاولنا قدر الإمكان في هذه الترجمة أن نبقي على نفس الميزات والطباع مع مراعاة مقتضيات اللغة العربية.

خضعت مسودة الترجمة لتنقيح وتدقيق لغوي واصطلاحي خاصة فيما يتعلق بالأعلام والأشخاص والنبلت، حيث إن النص الأصلي الإيطالي يحتوي على كثير من الكلمات العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية لكنها منقولة كما كان يسمعها مانزوني بحيث أن معظمها محرفة، ولم يكن بالإمكان التعرف عليها إلاّ بالاستعانة بخبير محلّي يمني، الأستاذ محمد لطف غالب، ملم بتاريخ اليمن ومعجم مصطلحاته المحلية.

أبقينا إذن على الكلمات العربية التي أدخلها مانزوني في نصه وميزناها للقارئ العربي بعلا مات التنصيص " "، أما فيما بين القوسين فأبقينا على التعليقات الأصلية كما هي، ووضعنا من عندنا بين الأقواس المربعة [ ] ما رأيناه موضحاً ومبيناً للقارئ العربي.

وحرصنا، قدر الإمكان ، على أن تتسم الترجمة العربية بنفس خصائص النص الأصلي ، من حيث الأسلوب العتيق ، والرفيع ، وأن تطابق تماماً النص الأصلي ، حتى في علامات الترقيم؛ فنأمل أن نكون قد وفقنا في ترجمة هذا العمل بإذن الله، وأي خطأ فيها لا يتحمل مسؤوليته سوى المترجم.

نود أن نشكر جزيل الشكر رنا الخوند لمساهمتها في تحرير مسودة هذه الترجمة ، والزميل والصديق الأستاذ ياسر عودة لمراجعته بعض أجزائها.

ماسيمو خير الله
أستاذ متعاقد للُّغة العربيَّة
جامعة البندقيَّة- إيطاليا

RENZO MANZONI

EL YÈMEN

UN VIAGGIO A SANA'A

1877-1878

I

التجهيزات- المغادرة- قوات عدن- المِجْرَاد- الشيخ عثمان- بيت وحديقة حسن علي بك- الليل في الصحراء- لحج.

يبدو أن قلة قليلة من الرّ حَّالة قد زاروا اليمن ، واقتصرت رحلاتهم على أجزاء منه فقط، وكما جاء في رواياتهم يبدو أنهم مروا بأوقات عصيبة، وواجهوا مشاكل جسيمة، ولم يتمكن أحد من الوصول إلى العاصمة صنعاء مباشرة منطلقاً من عدن . ومؤخرًا في عام 1869، حاول الفرنسي "جوزيف هاليفي " أن يسلك هذا المسار ولكنه اضطر للرجو ع إلى عدن سريعاً دون أن يفلح في إكمال جزءٍ من ثلاثين جزءًا من المسافة التي اعتزم أن يسلكها.

إن رغبتي في أن أكون أول من يزور هذه البلاد المجهولة لم تبدُ لي من دواعي الكبرياء ، فخلال إقامتي في عدن، إذ كنت في ضيافة قنصلنا السامي "الكفالبير جوسيبي بينفلد - ليف"، بذلت جهدي في دراسة اللغة العربية؛ وتراسلت مع عدد من زعماء الداخل اليمني حتى اطمأننت لنتيجة طيبةٍ لرحلتي بواسطة رجل عربي من صنعاء يقطن منذ سنين طويلة في عدن واسمه "الحاج حسين الرَحبي".

الحاج حسين الرحبي
مساعد القنصل الإيطالي في عدن

في أول سبتمبر من عام 1877 لاحظت أن أمتعتي تزيد عن عشرين صندوقا كبيرا، وما كانت عندي رغبة في أن أحمل معي كل هذه الأمتعة، فما كان مني إلا أن لففتها بقطع من القماش وأرسلتها إلى رجل عربي أثق به في "الجليلة"، وهي قرية على حدود الأراضي التابعة للعثمانيين في وسط اليمن.

تم ترتيب رحلتي المقررة لتكون مع أخ الحاج حسين الرحبي، ولأن شهر رمضان كان قد بدأ فقد رغب في قضائه بعدن، ولخشيتي من مواجهة البرد في الجبال، إذ كان الشتاء على الأبواب، قررت أن أسافر مع رجال أعرفهم ويرافقني خادم ماهر اسمه مُقبِل (المرحب به).

لم يشأ مُقبل هذا أبداً السماح لي بأخذ صورته، وكان عمره آنذاك 23 عاماً وهو من سكان "الحجرية" (سدٌ من الحجارة) في مقاطعة تعز. والدُه، "صالح حيدرة "، الذي كان سلطاناً صغيراً، أو بالأحرى شيخاً، كان قد لقي هزيمة من الأتراك نظراً لمقاومته لهم (في فترة الغزو العثماني لليمن عام 1870)، فباتت داره وقريته مهدّمتين وأصبح فقيرا وكان معيلاً لثمانية أبناء وبنتين، فحاول إيجاد مخرج من العسرة، وكما يقال عندنا بحث عن مرتبة في الحياة لأولاده : فأحدهم أصبح جمَّالاً، وثانٍ بائعاً، وآخر مزارعاً. ذهب مُقبل الى عدن حيث إستُقبلَ في منزل قنصلنا كان راغباً في التعلم واستكشاف العالم، فركب على متن "الإرساليات البحرية" كعامل على محركات البواخر، وهكذا تمكن من رؤية مرسيليا، وجبل طارق، وقادس، وبرشلونة، وبلاد الهند الشرقية والمرافئ الصينية . كان حاد الذكاء، وتمكن من اتقان اللغة الفرنسية جيداً. وكان مقبل خيرَ مرافق لي في رحلتي.

كثير من العرب عملوا مثل مُقبل، لذلك كان من السهل الإلتقاء في اليمن، خاصةً في جوار تعز، بمنّ يعرف القليل من اللغة الفرنسية.

في العشرين من سبتمبر وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، غادرتُ عدن على ظهر بغلٍ صومالي صغير، استأجرته مقابل خمسين ريالاً يمنياً (ما يعادل 250 ليرة إيطالية)، متوجهاً إلى "الشيخ عثمان" لأنتظر هناك القافلة الصغيرة (المؤلفة من ثلاثة جمال) المحمّلة بلوازمي الأخيرة . أراد أن يرافقني إلى هناك الصديقان "غوستافو سَرْفاتّي" من البندقية و"ريكّاردو هوورْث" من ليفربول.

ما لبثنا أن خرجنا من عدن، حتى رأيت من جبل(حديد) على الخور مسلكاً جميلا للمراكب تحاذيه قناة مياه مبنية من الحجارة، تَنقل إلى عدن الماء العذب القراح المستخرج من آبار الشيخ عثمان. هذا الطريق يتفرع بعد ذلك إلى ج زأين، الأول يؤدي الى

"عدن تروبس " أو ثكنات الخيّالة الإنكليزية، والآخر يمرّ بـ"المجراد" (الأراضي الحمراء) وهي قرية صغيرة من الغسَّالين، ويؤدي الطريق الى الشيخ عثمان وهي قرية أخرى على بعد نحو سبعة أميال من عدن ومطلةٌ على "بندر التُّوَّاهي" (مرفأ عدن)، وتُحاذي "الإستيمر بوينت" (مركز التنزيل في مرفأ عدن).

وعرض هذا الطريق أربعة أمتار، أُنشئَ من قبل الانكليز فوق أرض من التربة الحمراء، وغالباً ما تكون رطبة نتيجة المدّ العالي الذي يغمرها أو نتيجة التسرب الجوفي لمياه البحر . في هذه الرمال نلاحظ أدغالاً من نباتات تعطي مادة البوتاسا، المسمّاة بالعربية "القالي".

يقطف العرب أوراق هذه النباتات، ويتركونها تجفُ ثم يحرقونها في حُفر صغيرة في الأرض. ويضيفون الماء على الرماد المتكوِّن، فتتشكل بذلك عجينة، تصير قاسية كالحجارة، ولكنها قابلة جدا للإذابة في الماء . و يستخرج العرب مادة الغسيل القلوية لغسيلهم والبوتاسا لصنع الصابون.

وصلنا في الساعة السادسة والربع إلى الشيخ ع ثمان، عند دار حسن علي بك، وكيل رسميّ لتركيا ومصر، مقيم في عدن، وهو عربي غني من الخليج الفارسي، مسلم (شيعي) من طائفة علي ، كثير الصحبة والمودة مع الأوروبيين، ممّا يجعل من داره في الشيخ عثمان داراً دائمة الترحيب والاستضافة اللائقة.

وهي من تلك البيوت المربعة الجميلة، المؤلفة من غرف واسعة ومريحة، ذات فناء واسع في الطابق الأرضي، ولها (شرفة) بالطابق العُلوي، وتتوسطها حديقة رائعة.

حديقةٌ! بعد مرور أربعةِ أشهر في عدن، حيث يستحيل فيها حتى رؤية خيط عشب واحد كانت رؤية حديقة جميلة مكتظة بالأشجار من بينها النخيل الرائع، والطلح الصمغي، والسنط، والتمر هندي الجميل، وخيار شَنْبَر الكثيف، والطرفاء؛ وكانت غنية كثيرا بأنواع الأزهار والخضار؛ وفيها بئران تستخرج منهما المياه بواسطة المضخات المائية لريّ البساتين الكثيرة؛ وفيها تتمتع

العين برؤية ثلاث بركٍ كبيرة من المياه، وكانت هذه الرؤية قد أشعرتني وأصدقائي بأحاسيس جيّاشة ومبهجة. وكم حملني بعيداً آنذاك هذا الخَضار، وعطر هذه الأزهار ونسيم هذا الهواء البلسميّ.

فيما قاربت الساعة السابعة، رحل صديقاي وتركاني أنتظر وصول قافلتي الصغيرة.

أقتبسَ اسم منطقة الشيخ عثمان من قبر الحاكم "الشيخ والحاج عثمان"، الموجود داخل مسجد صغير فقير الحال، ذي شكل مربع ودون قبّة، محاذٍ لبيوتٍ شبه مهدومة . في السنوات الأخيرة، أضيف شيئاً فشيئاً إلى الأكواخ القليلة المتبعثرة للمقهويين "قهوجية" أو بائعي القهوة العربية، القليلُ من البيوت، حتى تشكلت قرية صغيرة مؤلفة من حوالي مائتي نسمة من بني آدم. كل هذه البيوت مبنية من قوالب من اللّبن الطيني المجفف بالشمس، باستثناء دار حسن علي بك ومشفى الحيوانات اللتين شُيّدتا من الحجر، المنقول إلى هناك من عدن.

في عدن، نجد الكثير من"البينيان" (البانيان) أو الهندوس عبدة الأوثان الذين يؤمنون بتقمص الأرواح البشرية بعد الممات وانتقالها في أجساد الحيوانات،ولذلك يولون الاحترام الكبير لتلك الحيوانات، فإذا أصابها مرض معين أرسلوها إلى الشيخ عثمان حيث مشفاها هذا.

انطلقنا في الساعة العاشرة ولم نسلك الطريق المباشر إلى "لحج"، علماً بأن في تلك الأيام، كان البدو يقومون بغارات على الطريق؛ فالتحقنا بقافلة متوجهة إلى "بير أحمد "، نحو الغرب قليلا. كانت مسافة السير أطول ولكنها أكثر أمناً.

القمر كان ساطعاً إلى حدّ كان من الممكن رؤية كل ما بجواري. الصحراء! هنا وهناك بعض الحاموك (السنط) النادر أو بعض جنبات (أشجار) الصحراء . اكتشفت لاحقاً بعض نباتات الطلح والسماق التي تكاثرت تدريجياً حتى شكلت أجمات.

بدويَّات مِنَ الصبيحي

عند منتصف الليل، مررت بـ (الدرب) (مكان معروف للاستراحة حيث بالإمكان نصب الخيم)، وهي مجموعة من الأكواخ العربية التي يمكن منها رؤية تلألؤ أنوار (الإستيمر بوينت) والسفن الراسية في عدن.

عند "شريق "(مكان مكشوف للشمس) كان هناك أكواخ أخرى، ثم انفصلنا عن أولئك الذي ن كانوا يتجهون نحو "بير أحمد "، وسلكنا طريقاً أكثر نحو الشمال، مارّين بـ "محلّى " (سلخانة)، و"نوب ثوران " (حارس المراعي)، و"مُغَيْبري"(بلاد الثوار)، وكلها أكواخ؛ و "صبار "، وهي أول قرية ذات بيوت من اللّبن الطينية. ثم وصلنا في الرابعة فجراً، إلى واحة "لحج" (المكان الضيق)؛ وبعد ساعةٍ من ذلك إلى "الحوطة" (الحراسة)، وهي العاصمة، بعد قطع مسافة أربعة عشر ميلا بستين درجة تقريباً.

هنا وجب على الجمّالين، كما هي العادة، تفريغ كلَّ البضائع في فناء دار السلطان. انتظرت إذن نصف ساعة، إلى أن قدم ناشرٌ (الذي يشرح)، وهو الجمّا لُ مرافقي : فدخلنا سويّاً المدينة متوجهين إلى دارة رجل يسمى عبدالمحسن المُسمار حيث أدخلنا فيها الماشية واسترحنا من سفر الليل.

II

بلاد العبدلي - لحج - الحوطة - مأوى القوافل - القهوة و(النرجيلة) الغليون العربي - كُتّاب السلطان - شهر رمضان- البيوت العربية- المساجد.

تسمّى الأراضي الممتدة من عدن شمالاً حتى الجبال الأولى، بـ"بلاد العبدلي" [بلاد العبادلة]، وه ي واحدة من القبائل العربية الكثيرة.

العرض الأقصى لهذه البلاد هو حوالي **34** كيلومتراً والطول ما يقارب **38** كيلومتراً بمساحة تقريبية تساوي **1292** كيلومتراً مربعاً.

ثلث هذه المساحة مزروعة وسدسها مُشَجَّرة، أما الباقي فهو قاحل، صحراء ترابية أو"أرض الرَمِلة".

الجزء المزروع، وهو من أبهج واحات الصحراء، اسمهُ "لحجْ " ويمتدّ من على بعد أميال قليلة جنوب العاصمة "الحوطة "، ما بين "الوادي الصغير و الكبير " (أي النهران الكبير والصغير وهما فرعان لوادي (تُبَن)، الذي يمتد شمالاً حتى قرية (الشقعة) (مستوحى من اسم عشب).

السلطان فَضل بن علي هو الحاكم المطلق للدولة ومن أعزّ أصدقاء الحكومة الإنكليزية في عدن . وينوب عنه في إدارة أعمال السلطنة أشقاؤه وأعمامه وأبناؤه، الذين هم أيضاً يتلقبون فخرياً بلقب السلطان [الأمير].

جمَّالان من عدن
من بدو قبيلة الفضلي

تُسمّى الأمكنة المخصصة لإيواء القوافل بـ"سمسرة" (ملجأ الوسطاء) وهي منتشرة بكثرة في كلّ مدينة أو قرية تمرُّ بها هذه القوافل. سمسرات الحوطة ما هي إلاّ أفنية واسعة مغلقة بسور جداري أو بسياجٍ عالٍ وكثيف من الجنبة (الأشجار)، ومحاطة بعرشٍ عريضة وواسعة، مصنوعة من العيدان، وتسقفها الحصائر؛ وتأوي تحتها الجمال ودواب الحمول. وتوجد في أغلبية تلك الأحواش بعض الأشجار: منها السنط والجميز والطرفاء التي تعطي القليل من الظل والبرودة، التي تكون الحاجة ماسّة إليها في بلدٍ حارٍّ كهذا.

من الممكن أيضاً أن يمتلك صاحب الدار بيوتا من آجر طينية؛ فيكون لها غرف للضيوف تسمى"ديوان". وإن لم يكن غنياً كفايةً ليتمكن من اقتناء هذا النوع من الترف، فساعتئذٍ يكون عنده العديد من الأكواخ التي تشبه تلك التي يمتلكها فلاحونا في

حقول لومبارْديا . نجد في الديوان وتحت الأكواخ الكثير من (السراير)، وهي كراسي طويلةٍ تصلح أيضاً كأسِرّة.

في بلاد حارّةٍ كهذه يكون من الأفضل المبيت تحت الأكواخ، لأ ن داخل غرف المنازل يختنق المرء من الحرّ والرطوبة.

قبل وصول القافلة بقليلٍ، يترجّلُ قائدها مسرعاً، للبحث عن (سمسرة) فارغة أو واحدة فيها حيزٌشاغرٌ، فيَطلبُ بعد ذلك القهوةَ له ولجميع مرافقيه، والشعير للحيواناتتصل الجمال وتدخل إلى الحوش واحداً تِلوَ الآخرلأنه ما يلبث أن يدخل الجملُ الأول حتى يُفَرَّغ على الفور من حمولته ويُدفَع تحت العريشة؛ وهكذا تكون الحمولة بأكملها مجمَّعة ومصْطَفّة بانتظام في مكانٍ منعزلٍ، فيما تكون الجمال في الظلِّ تحت العريشة، الواحد بجانب الآخر

متى انتهت عملية التفريغ، يتجمع رجال القافلة تحت الكوخ أو داخل الديوان، ويستلقون على الأسِرّة للاستراحة، شاربين أعداداً كبيرة من فناجين القهوة المغليّة ومدخنين "المِداعة" التي تمر قصبتها من فَمٍ إلى آخر.

مريم فاطمة
عربية من تعز وقاطنة في الحوطة

عَرب اليمَن، وهي بلاد قهوة (مخا)، لا يستعملون القهوة كما يُعتقد عادةً، بل يبيعون "حبوب البُن" ويستعملون غلاف الثمرة فقط، المسمى بـ "القِشر". وهم يجهزون هذا المشروب بطريقتين: في البلاد الحارة، يُحَمّص القليل من القشر ثمَّ يُطْحَن ويُضاف إلى الماء المغليّ د اخل وعاءٍ من الفخّار الذي يتخذ شكل القنينة المستديرة ذات الع نق الطويل والضيِّق، المسمّاة بـ (الجمنة)، ثمَّ تضاف إلى هذا المزيج كميّاتٌ كبيرة من البهارات (القرفة، جوز الطيب، الزعفران، كبش القرنفل). وهذه القهوة تتَّخذ لوناً داكناً متسمّاً بطعمٍ حاد.

أمّا في ا لبلاد الباردة، وعند كل الأغنياء، فلا يُحَمَّص القشر، إنّما يضاف كما هو إلى المياه المغليّة؛ وفقط في حالات نادرة تُضاف البهارات بكميات قليلة وغالباً ما يُضاف السُكَّر. هذا النوع من القهوة، المسمّى بكل بساطة بـ "القشر" يتخذ هو أيضاً لوناً أشقراً ذهبياً، ومذاق ه ممتاز؛ وهو مفَضَّل على الشاي.

لا يجب أبداً ترك القهوة حتى تبرد، ولذلك حيثما شُربت نجد "الموقد" (وعاء من الفخّار) الذي يوضع فيه الجمر المُشتعل، وعلى هذ ا الأخير تُصطَف (الجِمَان، الجمين). يصلح (الموقد) أيضاً لحفظ النار المستعملة للـ "مِداعة" أو الغليون العربي. "المِداعة"، المسمّاة أيضاً بـ "الشيشة" من قبل البدو، مصنوعةٌ من حبة جوز الهند كبيرة "النرجيل" (ولذلك حملت اسم "نرجيلة" في التركية)، وموضوعةٌ على صحن من النحاس بثلاث قوائم (الجلاَّس). تدخل في جوزة الهند قصبتان: الأولى من الخشب، (المِلتَقى) متعامدةٌ على الجوزة تحمل وعاء الفخّار (البوري) الذي يوضع فيه التَبغ والنار وتكاد تلمس قَعرَ الجوزة، أمّا الأخرى فقصيرة ومائلة (الغُدبة)، وتخترق الجهة العلوية للجوزة وتلتصقُ بالقضيب الآخر الطويل (القصبة) المستعملة للتدخين. يملأ الماء مقدارَ ربعين من جوزة الهند.

طريقة صنع "المِداعة" هي نفسها المستعملة في النرجيلة التركية، لكن الفرق الواضح هو في ارتفاع المِداعة العربية التي تصل إلى مترٍ ونصف وطول قصبتها التي تصل أحيانا إلى أربعة أمتار.

تُقطف أوراق التبغ (أوراق التمباك) وتُترك ببساطة لتجفّ في الظلّ. وبما أنها لا تتُبغ كما هي الحال عندنا، فهي لا تحترق بسهولة ولا تحافظ على الحرارة : ولذلك عندما يُراد التدخين، يَلزم أولاً تقطيع هذه الأوراق الجافة وترطيبها بالماء ثمَّ وضعها في "البوري" مع الكثير من الجمر المشتعل.

في هذا الجزء من البلاد، لا نرى أبداً مُدَخِّني "الحشيش" (أوراق يابسة من القنب الهندي) أو مُدَخِّني "الأفيون".

لكن بالمقابل لاحظت هنا عادةٌ أخرى، مأخوذة حتماً من الهنود وهي خزن التبغ في الفم. فبعد تحويل التبغ إلى مسحوق ناعم جدا مُسمّى بـ(البردقان)، يتم وضعه في وسط الكف ويُبلل باللُعاب، فيتحَوّل إلى كرة تُحشَر م ا بين أسنان الفك الأسفل والشِفة السُفلى . يتّبع هذه العادة السيئة الرجال والنساء وحتى الفتيات.

وبما أن كلّ بلدٍ لديه صرعته الخاصة، فهكذا ترى هؤلاء الماضغين للتبغ يَبصُقون فاتحين شفاهم نافخين بقوة ما بين أسنانهم التي يتركونها مغلقة. أذكر هذا الواقع، لأنه تبين لي منذ الوهلة الأولى ومازال، كعادة مقززة وقبيحة.

يُسمى أيضاً التبغُ في اللغة العربية، بـ"الدخان" أو "حاجة الرجال".

وتقليداً للعادات العربية، أخذت أنا أيضاً قسطا من الراحة، فشربت العديد من "فناجين القهوة"، ودخنت، وتناولت الفطور،

في الوقت الذي كانت فيه دوابي الجامحة (بغلي الصغير وحمار مقبل) تأكل العشب بنهم كبير.

أحمد ابن علي العبدلي
أخو سلطان الحوطة

في ذلك الصباح الصافي والرائع من نهار الجمعة (الواقع في الواحد والعشرين من أيلول 1877) رأيت الآلافَ المؤلفة من الصقور الكبيرة والغربان الهائلة تحلّق في الأعالي فوق البيوت، مثلما تفعل الخطاطيف في بلادنا، في فصل الصيف.

وفيما قاربت الساعة العاشرة صباحاً، أرسل السلطان إليَّ هنديّيْن مسلميْن اثنين ، من أمَناء سرِّه أو كتّابه، لتهنئتي بوصولي؛ وسألاني بكلامٍ لطيف إن كنت بحاجةٍ لشيء أو رغبةٍ ما. ورويداً رويداً، كما لو كان من واجبهما الاهتمام بشخصي، استنطقوني، إنما بحذر كبير، عن سبب مجيئي ووجهة سفري.

إذا كان في بعض الأحيان من الواجب والمفيد أن يكون المرءُ صادقاً في بلاد المشرق، ففي البعض الآخر يتوجب عدم التقيد بذلك . لم أكن آنذاك أعرف سلطان الحوطة فضل بن عليّ، الذي أصبح صديقي العزيز فيما بعد. لكني كنت أعلم أنه هو الذي منعَ هالِفِيْ من الذهاب إلي صنعاء، بل أمره بالرجوع إلى عدن، وذلك قبل بضع سنوات. فتظاهرتُ إذاً للمبعوثيْن أنني جئتُ لأمكث قليلاً في بلاد العبدليين بهدف الصيد، وأنَّ ني بعد إقامة قصيرة في هذه القرى والغابات، سوفَ أهِمُّ بالرجوع إلى عدن.

بعد تقديم القهوة والسيجارات لهما، وبعد ألف كلمةٍ مجاملة، صرفتُ المبعوثيْن. كنت قد عبرّتُ لهما عن رغبتي في تَحِيَّةِ السلطان وذلك بالمثول أمامهِ . لكنهما أجاباني أن ه خلال فترة شهر "رمضان" لم يكن بإمكاني مقابلته إلا لي لا ؛ فعدلتُ تلك الليلة عن الاستبشار برؤية فضل بن عليّ.

شهرُ "رمضان" (أو"رمزان" حسب اللفظ التركي) ليس كما في الاعتقاد الشعبي لدينا، شهرَ الملذات بالنسبة للمسلمين . إنما هو وقت من الصوم القاسي الذي يصبح واجباً على كلِّ مسلمٍ يبلغ الرابعة عشرة من العمر.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة: 185]، ﴿ .... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ .... ﴾ [البقرة: 187]

إن هذه الفرائض الدينية متبعة بتقيُّدٍ شديد؛ قليل هم العرب الذين يخاطرون بتركها، لكنهم لا يجرؤون على ذلك إلا في الخفاء. فالتزهد عند هذه الشعوب لا يقتصر على حرمان أنفسهم خلال النهار من أيِّ مأكل أو مشرب فقط، بل يندفع إلى تحريم التدخين، وشمّ التبغ أو حتى استنشاق رائحة العطور. وهناك مِن بين أشدّ الملتزمين دينيّاً، مَنْ لا يجرؤ حتى على ابتلاع لعابه.

كان المبعوثان من قبل السلطان قد أفطرا مع تقبلهم دعوتي لشرب القهوة وتدخين السجائر؛ ولكنهما وإن كانا مسلميْن فيبقيان هندييْن، وعلى ما يُقال فإن المسلمين في بلادهم يحظون بحريةٍ أكبر.

حليمة بنت الرصاصي،
عربية من سكان الحوطة.

النساء الحوامل لسن مجبرات على الصيام، كما أنَّ المسافرين والمرضى هم أيضاً من المعفيين، ولهذا تظهر (السمسرات) العربية بنفس القوام على مدار السنة. إنما يختلف

الحال في القرى والمدن. يقضي المسلم خلال نهار هذا الشهر من الصيام، حياةَ هدوءٍ وخلوةٍ، ويسهل فهم مدى صعوبة تطبيق أحكام الصوم الصارمة في بلادٍ حارةٍ كهذه . لذلك لا تستغربن محاولة العربيّ للتملص بأيةِ وسيلة من التزاماته المتعبة .
فانطلاقاً من شروق الشمس إلى مغيبها، تكون شوارع القرى والمدن خالية ويَعُمّ السكونْ: "القهاوي والدكاكين" تكون بأجمعها مقفلة. وعندما كنت التقي صدفةً خلال النهار عربياً في الشارع فأوجه له الحديث،كان هذا يجاوبني ولكن بفظاظة، إذ كان يخشى احتمالَ مخالفة أحكام الشريعة إن تفوه بالكلام.

هكذا كان الحال في الحوطة ذلك النهار، وهكذا كانت عدن في الأيام القليلة التي سبقته، وهكذا كان حالُ مدن المغرب التي سبق أن زرتها في شهر رمضان من العام المنصرم.

ولكن ما يلبث أن يُسدلستار الظلام، حتى يصحوَ كلُّ شيءٍ ويتحرك من جديد، ويهب وينبض بالحياة: فتمتلئ "الأسواق" (أو "بازار" في التركية)، والقهاوي تعجُّ بالمارّين، والمِد اع العربيةُ الأنيقة تعاودُ نشاطها الصاخب . "الصوامع" (المآذن) المتلألئة بالأضواء تبشر من بعيد بأنَّ العالم حيٌّ في تلك الليالي، وبأنَّ الناس الجائعين والمنتظرين بفارغ الصبر، أصبحَ بإمكانهم الأكل والشرب.

تلك الضوضاء العامة، وذلك الضجيج الصاخب، وذلك اللغط في الساعات التي من المفروض أن يستريح فيها كل شيء، وظهور النساء المتكرِّرّ على الشرفات، وإنشاد الأغاني الفرحة، وأصوات الصراخ الجنونيّ، وأضواء الأسواق الباهتة التي تناضل بوجهِ ظلمة الأزقة الضيقة والمتعرجة ... كلُّ هذا أعطى للمدينة، مثلما يعطي لكلّ المدن العربية الأخرى، ذلك الطابع الخاص والفريد الذي من الصعب في بلادنا أن نتخيل صورة واضحة عنه، مع أن ذلك لا يشبه في شيء لياليا الجنونية أيام الكرنفال.

"الحوطة" (ويُعنى بها المكان المحروس)، المسكونة من ألفي نسمة، إن لم تكن بنظافة وتنظيم مدننا أو قرانا، فهي ليست سيئة التنظيم أو وسخة كتلك المدن الكثيرة التي رأيتها في المغرب، ناهيك عن طنجة وجوِّها النتن، وهي محلّ إقامة السلطات المدنية المتحضرة الأوروبية . فالسلطان فضل بن علي يتكلف بأجرة كنّاسين للشوارع لتنظيف ورشّ الطرقات كل يوم

بيوت الحوطة هي عادةً أكثرُ اتساعاً وجمالاً وأناقةً من بيوت القرى، وهذا أمر طبيعي جدًّا في كل أرجاء العالم . وذلك لأنه حتى في اليمن، سكان القرى أفقرُ من سكان المدينة المتميزين بالثراء والأبهة.

بيوت الحوطة ليست مبنية من الحجارة، لأنها مدينة بعيدة عن الجبال؛ ونقل المواد على ظه ور الجمال، وليس هناك أية وسيلة نقل أخرى، ولو كانت مبنية بالحجارة لكانت تكاليفها باهظة جداً. لذلك فهي مبنية من القرميد أو قوالب طينية.

أبعارُ (فضلات) الأبقار والجمال والم اعز والأغنام المجففة والمطحونة، تخلط مع التراب والماء والأعشاب الجافة لصنع عجينةٍ أو طين القرميد الذي يُتركْ ليجفَّ في الشمس، من دون أن يُحرق بالنار. تُستعملُ العجينةُ نفسها كإسمنتٍ أو ملاط في عملية بناء المنازل.

متى شيِّدتْ الجدران، تُدَعَّم من الداخل والخارج بملاط من نفس الطين، الذي يضافُ إليه الكثيرُ من التبن والأعشاب بهدفِ إعطائه المزيد من الصلابة والترابط . أما السُقوف فهي مصنوعة من أغصان الأشجار.

من الواضح أنَّ نظافةَ هذه البيوت ليست بالمثالية، خصوصاً مع استعمال تلك المواد البدائية. والحفاظ على نظافتها لا بدَّ أن يكون عملاً شاقاً كثيراً؛ علماً بأنَّ البراغيث، والبقّ، و "الكِرْش" (وهي براغيث الجملُ، ومعناها ما له بطنٌ كبير)، والعناكب،

والنمل، والجداجِد، وسوس الخشب تتكاثر أو تنتشر بين غبارِ الغرفِ والجدران، وحتى السحالي تُعَشّش بين أغصانِ السقفِ حيث تَضَعُ بيضها.

لتلافي تلك الآفات ، يستعمل الأغنياءُ هنا أيضا الجص لتبييضِ جدران الغرف والسُقوف والنوافذ والأبواب، فتصبحُ هذه البيوت مريحةً ومناسبةً للسكن.

أما الفقراء من البدو، الذينَ يفتقرون إلى النقود لشراءِ الجص ـ فسعره باهظ هناك ـ فقد ابتكروا طرقا عدة للتمكن من النوم بقليلٍ من الراحة، دونِ التعرُض للقرص أو المصِّ. وذلك بأن يدهنوا كامل أجسامِهم بالزيت أو يناموا داخل أكياسٍ طويلةٍ ويقفلون فتحاتها فوق الرأس. قدّ يتخيلُّ للمرءِ عند رؤيتهم نائمين هكذا، بأنَّهم جثامين كثيرة جاهزة للتشييع.

وقد كان هذا أيضاً اللباسُ الليلي لمُقبل.

سألتهُ مرةً : «ولكن كيف تستطيعُ التنفّس، وأنت محشورٌ هكذا داخل الكيس؟»، فردَّ قائلاً: « إنما هي مسألةُ اعتياد!.. ».

حاولت بدوري بعد ليلةٍ فظيعة الدخولَ في كيس مقبل. لكنه كان من المستحيل علي التنفس، وما لا يمكن علاجه يتعين احتماله، ففضلت امتصاص دمي من تلك الطفيليات على الموت اختناقا.

تتألف بيوت الحوطة إجمالا من طابق سفلي وطابق أول، وقليلة هي التي تتألف من طابقين. أما البيوت الحديثة أو قصور السلطان وعائلته، المشيدة من قبل المهندسين الهنود، فهي الوحيدة المؤلفة من أربعة إلى خمسة طوابق.

البيوت عادة ليست واسعة، لأن كل دار تحوي عائلة واحدة فقط، اذ تقتضي العادات عند المسلمين، حرصا على نسائهم،

بعزلة العائلة وتركيز اهتمامهم ومودتهم عليها .لاحِظْ أيضا أن ذلك الذي يسكن بيتا يكون في العادة صاحبها.

فالغرض والاستفادة الشخصية البحتة التي يجب أن تمتلكها مسكن المسلم، ومن خلال بنائه وتقسيمه الداخلي، كما من مظهره الخارجي، كل هذا يظهر تلك المزايا الخاصة التي تميزه عن كل مساكن الشعوب المتدينين بديانات أخرى.

في البيوت العربية، يهدف كل شيء فيها إلى أن يوفر للمالك أو الساكن الراحة التي يبحث عنها، ومتى ما حصل عليها أن يلفها بالكتمان حول ما يجري بداخلها . لذلك لا شيء يتبع ذوق أو متطلبات الجمهور، فتفتقر أغلبية البيوت إلى التناسق والتجانس، ونادراً ما تكون مبيضة بالجص من الخارج. وغالبا ما يكون في بيوت الأغنياء المميزين تفنن في الترف والزخرفة داخلها، إنما يطغى على خارجها طابع البساطة والفقر.

أبوابُ البيوت العربية قصيرةٌ وضيقة، تُفتح نحو الداخل وتوصد بواسطة لوح من الخشب . وعندما تُترك الأبواب مفتوحة، يعيق الحائطُ المواجه للمدخل الرؤية إلى الداخل، وله أيضاً وظيفة التوجيه إلى الناحية التي يجب من خلالها الدخول إلى المنزل.

لواجهات المنازل شبابيكٌ صغيرةٌ مسيجةٌ أو ذات دَرفات ملونة بالأسود أو الأحمر القاتم، يدخل من خلالها الهواء والنور الضروريين للغرف، ولكنها تحجب الرؤية من الخارج عن كل ما يدور في الداخل.

السقف مسطح ويشكل شرفةً واسعةً يلفها متراس مشرشر، وتستعمل لنشر الغسيل.

وفي بيوت الأغنياء، حيث من عادتهم تمضية السهرات مع الحريم على الشرفات، تكون الحافة مرتفعة جداً.

يوجد دائما داخل البيوت في الطابق السفلي ساحةٌ للدار، محاطة بالإسطبلات ، والمخازن، وغرف ال مطحن، والفرن، والمطبخ، ومساكن الخدم. ونجد أيضا في بعض الأحيان ديوانا أو غرفة للاستقبال، حيث يستقبل رب المنزل زواره من الرجال. يُخصص الطابق العلوي للنساء حيث تكون فيه أيضاً غرفة الزوجين.

تتألف البيوت المتواجدة في حي السوق من طابق واحد فقط مع دكاكين صغيرة.

مساجد الحوطة فقيرة الحال. في الجانب الشرقي من المدينة نجد قصراً صغيراً مريحاً، وهو من ممتلكات حكومة عدن، ويصلح كمسكن للزوار و للص يادين الذين يزورون لحج والحوطة.

تحيط بالمدينة حدائقٌ وغاباتٌ من النخيل وحقولٌ مزروعة.

وجدتُ خلال إقامتي الأولى في الحوطة، كما حدث دائما وأينما ذهبت، أحرَّ الاستقبال وحسن المعاملة.

أمضيت إذن ليلتي في هذه المدينة، طورا متنـزهاً في السوق والقهاوي ، وطورا أستريح استعداداً لرحلة اليوم التالي.

III

مغادرة الحوطة - الحقول والحدائق - دار القرُيشي - حائط الليم- الغِل- النساء البدويات- زيَّهن وتصرّفاتهن- الرجال- اللِّحْيَةَ- قافلتي تزداد عدداً - الزَايدة- أفعى- ضربة شمس - مداواة بالكينين - البدو: طباعهم، تقاليدهم، زيّهم، حروبهم وحرّيتهم الدينية - السلاطين والأمراء والشيوخ - خلافة العرش - القوافل- المؤلّفُ مُسافراً- الاستراحة.

السبت 22 سبتمبر سنة **1877**؛ في الساعة السادسة والنصف صباحاً، انطلقنا من سمسرة عبد المحسن المُسمار ، عجوزٌ طيّبٌ، كان معي حريصاً ولطيفاً جداً.

حالما خرجنا من المدينة، سلكنا طرقا تتوسط حقولاً رائعةً من الدُرة، والتَحام، والشوفان، والشعير، والهند، والبُرّ، والدُخُن، والفول، والباذنجان، والشذاب، والبامية، والبرسيم (القضب).

بين الحين والآخر، كنّا نرى بين الحقول المفتوحة بساتينَ مُغلقةً بوشائج؛ وكانت تُزرع باللوبياء، والقُشيري، وشيوق الحمير، والخرشوف، والخيار، والفِجِل، والثوم، والبصل، والبقول، والطماطم، ...الخ، كما تنتشر في كلّ أنحاء الحقول أشجار النخيل الرائعة والبعض من "الدوم"، وجوز الهند "النرجيل".

على بُعدِ ميل ونصف تقريبا شمال الحوطة، أطلّت على يمين الطريق دارُ (القريشي): (أي مكان الغريش،اسم شجرةٍ استوائيةٍ)؛ وهي دار محمد الشاوش، من أقارب سلطان لحج

بدو في بلاد الفضلي
عازفون وعازفات

كان هذا المكان عبارة عن حوش مربّع كبير، ومُحاط بحائطٍ من الياجور المألوف (اللّبن العادي)، له بابٌ واحدٌ ذو مصراعين من الجانب الشرقي، وكان ذا مساحة تساوي 1500 متر مربع تقريباً . أقيمت في وسطِهِ عمارةٌ ضخمة مؤلّفة من ثلاثة طوابق، كما نجد في كلِّ زاوية من الزوايا الأربع للمبنى بُرجاً عالياً ذا شكل أسطواني . كان يوجد بجانب الدار الكبير وبالقرب من الباب مسجدٌ صغيرٌ، وداخلَ الحوش أكواخٌ ومنازلٌ متواضعة يسكنها الخدم والفلاّحون.

عادةً ما تتّبع بيوتُ الأغنياء في ريفِ بلاد العبدلي هذا المثالَ من البناءِ، فتؤلّف قريةً صغيرةً م حوطة بلأسوار لتكون آمنةً ومحميةً من غزوات البدو.

في الساعة الثامنة والعشرين دقيقة صباحاً تقريباً، وعلى بعد خمسة أميالٍ من المدينةِ، في المكان المسمى بـ"حايط الليم " [أي بستان الليمون الحامض]، وعلى مقربةٍ من "الغيل" (أو ما يُدقّق بسرعة مياهه الغزيرة)، توقفنا متظلّلين بظلِّ شجرة " أثل " (طرفاء شرقية).

كانت الشمس ساطعة ومحرقة جداً، فبَسطتُ أغطيتي على الشجرة مُشَكّلاً بذلك نوعاً من الخيمة . سجّل البارومیتر في الساعة التاسعة قبل الظهر 752 مليمتراً ونصف، كما سجَّلَ مقياس الحرارة في الظِّلِّ 34 درجة ونصف مئوية . فالسماء كانت صافية جداً، وكان يَهُبُّ نسيم خفيف ذو نفحَة رطِبَة من الجهة الشمالية ـ الشمالية الغربية.

أطلّت ثلاث نساء آتيات من الحقول حيث كنّ يَرْعَيْنَ الكثيرَ من الماعز والغنم: كان هناك سلمى المتقدمة في السن، وجارية المرأة الشابة، وعلياء الصبيّة. جلسن بجانبي وبجانب مُقبِل ثم أخذتْ سلمى "مِداعتي" وبعد أن أرسلتْ علياء لِجَلبِ قطعةٍ جافةٍ ومشتعلةٍ من روث الأبقار، وضَعَتْها على البوري وأخذتْ تُدخِّن، ثمّ باشرتْ جارية بدورها بالتدخين . من الواضح أن تلك كانت مخالفةً لقوانين رَمضان، ولكن إذا كان عَربُ المدينة يُطبِّقون حرفيا مبادئَ الصوم كما ذكرتُ سابقا، فالبدو يتمتعون باستقلالية أكبر ولا يتصرَّفون بالمثل، بل لا يتقيَّدون بعدة عبادات أخرى يوجبها القرآن.

وَصَلَ بعد حينٍ ربُّ الحَقل، فسلَّمَ على النساءِ الثلاث مصافحا أيديهن ومُقَبِّلاً بَعدها يدَه، ثمَّ قدَّم لي التَحِيَّة وجلَسَ بجانبي. كانَ مُسِنّاً وَقورا، وبدا لي أنه رجل طيب . كنتُ أحمل معي خُلاصَة نعناع قوية جداً، فوضعتُ منها بعض القطرات في الماءِ المُحَلّى وقدّمتُ الشراب إلى النساءِ ال لاتي شربْنَه دون تَرَدُّد، كما قدَّمتُه إلى العجوز لكنَّه رفض قبوله لأنه صائمٌ.

نبتةُ النعناع مشهورةٌ جداً عند العرب وهي مستعملة جداً.

بَدَتْ لي تلك النساء متحرِّرات فكريا بما فيه الكفاية، فأردتُ امتحانَهُنَّ بواسطة الكحول، فقدّمتُ لهنَّ الجِنْ قائلاً بأنه " خَمْر" أي مشروب كحولي، فما كان إلاّ وجَرَعْنَ منه، فوجدْنَه قويّاً ولكنه ممتاز ("طيب"، بل "مليح كثير").

أراد العربيُّ ربُّ الحقلِ معرفة هويتنا وعندما تعرّف على مُقيل ابن شيخه السابق، حيَّاهُ باحترام. كان قد فَرَّ هو أيضاً من نفس بلاد مُقيل بعد وصول الأتراك . فما رأيناه إلاّ وابتعد عنّا دون الإدلاء بأية كلمة، ليعودَ مُحَمَّلاً بالعشب والشعير لمطايانا، أيّ البغلِ والحمار . كما أنه قَدَّمَ لنا القهوة والتبغ والنار، ولم يرضَ بأية هديّةٍ أو بخشيشٍ بالمقابل، علماً بأني قد عرضتُ عليه ريالا ماريا تيريزا (أي ما يعادل خمسة فرانكات تقريباً).

طيلة فترة مكوثي في المزرعة، سُنِحتْ لي الفرصة بدراسة زيّ النساء البدويات، وطريقتهنّ في ترتيب أنفسهنّ . فيمشين عادةً حافيات أو يلبسنَ على الأكثر نوعا من الصنادل تتكون من قطعتي جلدٍ، تُمَرَّر من خلالها أصابعُ القدمين. يتألّف زيُّهن من قميصِ قُطنٍ داكنِ اللون، ينزل على الصدر و الكَتِفَين، لكنه فضفاضٌ فلا يظهر الكثير من المظهر الشخصي. ويُشَدُّ القميص على الخصرِ بحزامٍ من الجلد الأخضر أو الأحمر القاتم، أو بواسطةِ خيوطٍ من النحاس مجدولة ومترابطة كالسلاسل . أكمام الثوب قصيرةٌ مثلما الحال في صدريات سيداتنا . وحول العُنُقِ والصدرِ وكذ لك على أطراف الأكمام وأسفل القميص، نجدُ تطريزاً من القطنِ الأصفرِ القاتم مزركشاً باللونِ الأحمرِ والأخضرِ . ويعتَمِرْن على الرأسِ شالاً أو قماشا شاشيا أسود بسيطا، ويظهر منه شعرُهُن الأسود الكالح واللامع جداً بسبب الزيت أو الدهن . وهن لا يلبسْن السراويل ولا يجلِسْنَ جلوساً، إنَّما يتربَّعنَ على عَقَبِ القدم اليُمنى التي تبقى مستقيمة وتَنثني أصابعها فقط، بينما الساقُ اليُسرى تكون ممدودةِ أُفُقِياً . عندما يتَكَلَّمْنَ يُلَوِّحْنَ بأيديهنَّ ويحَرِّكْنَ أذرُعَهُنَّ.

أما زيُّ رجالِ البدو فهو أكثر بساطةً، ويتكون من قطعة من القطنِ الأبيضِ أو الأزرقِ، طولها متران يشدّونها حول الخصر بواسطةِ حزام من الجلدِ حيث توضعُ في وسطه "الجمبية" أو الخنجَرُ المعقوفُ. أما "الفوطة"، هكذا يُسمى هذا اللباس القطنيّ الذي يغطّي الفخذين فقط وصولاً إلى الرُكبَةِ، تاركاً باقي الجسم عارياً.

يُملي القرآن على المُسلمين بحَلق الرأسِ كُلّياً ، لكنّ البدو يتركون شعورهم الطويلة الجعداء تنسدل على أكتافهم السمراء والعارية. ويَلِفّون على الرأس حول الشعرِ حبلاً طويلاً أصفر اللونِ ضارب للأحمرِ، هو فتيل بنادقهم التي لا تعمل عند العرب بالقداحةِ.

وللّحيَةُ قيمةٌ عالية عندهم إذ أنها ترمز إلى الرجولةِ وإلى الحريةِ، وإلى القدرةِ الجسديةِ والأخلاقية؛ لكن وللأسفِ، لِحيَةُ الرجالِ حتَّى في اليمنِ كما لدى كلِّ شعوبِ البلادِ الحارَّةِ، هي ذاتُ الشُعَيراتِ القصيرَةِ والقليلةِ؛ فكبيرةٌ هي إذاً العنايةُ التي يولّيها العربُ لِلّحَى، إذ هناك مثل عربي يقول «يمكن عدّ شعر لحيته» ويضرب لأولئك الذين لا يتميزون بالذكاء. ويكاد يكونُ الوعدُ المعطى بلَمس اللحيةِ، وكأنها شاهدٌ، بمَثابَةِ حلْفِ يمينٍ.

من بين العربِ الكثيرين الذين اقتربوا مني ذلك النهار، كان هناك رجل طيِّب اسمه علي، الذي بالإضافة إلى كونه دائماً في غاية المودّة، أصبح مرافقاً ممتازاً وحارساً مُتَنَبِهاً طيلة فترة السفر إلى "ذمار"، كما في المرور الصعب من "الحردبَة". وبالإضافة إلى عَلي، من الواجب عليَّ أن أشكر جهودَ أحمد و محمد من "الجليلة". كثير من العَرب على غرار هؤلاء الثلاثة، المُزوّدين بالحَمير المُحَمّلة بالتبغ والبضائع، الذين طلبوا مني الإذنَ لمرافقتي بحِجَّةِ أنهم يحظون بالأمانِ معي (ويا للغرائب من بني آدم!).

ومع ذلك، لا شيء يدعو للتعجب . فالبدو يحسنون الضيافة ويحترمون ويستقبلون بحفاوة الغريب الذي يزورهم، كما يعتبرونه وحاشيتَه شأناً مقدساً . لكن هذا لا يمنع من أن الأمور فيما بينهم لا تجري على خير دائما، ممَّا يفسِّر جيداً رغبتهم بمرافقتي، كونهم متأكدين من حسن المعاملة التي سيلقونها بصحبتي. وفي الواقع، من بين العرب الذين كانوا بحاجةٍ إلى مرافقتي، كان هناك واحدٌ ذو ملامحٍ تعيسةٍ قد اقترف العديد من السَّرقات، فكان يتملَّكهُ خوفٌ شديدٌ من أن يراه أحدٌ وحيداً وينتقم منه لأعمالِه الشنيعةِ فأذنت له بمرافقتنا، لأن كما أخبرني مُقبل، بعد أن روى لي تفاصيل حكاية هذا الرجل، كُلَّ خيرٍ يُقدَّم إلى البدوي، لا يذهب سدىً . «هُم "بدو "»، كان يقولُ لي مُقبل بازدراء، «هم لصوص وقَتَلة، لكنهم في كل الأحوال رجالٌ لهم قلوب».

وهكذا في الرابعة ظهراً عند شدِّ الرحال، لاحظتُ أن قافلتي الصغيرة قد تزايدت بحوالي اثني عشر رجلاً وعشرين حماراً.

اجتزنا خوضاً الغيل ودخلنا أراضي "الزايْدة". كلمة "زايدة" تعني بالعربية المكان الخَطِر، وهي أرض مُكتَظة بالغابات تمتد ما بين الغيل (أو الوادي الصغير) والجبال، الذي يَحِدُّ سلطنة بلاد العبدلي مع بلاد الحواشب. كانت الزايْدة سَلطنة مُحايدة، وكانت كَسَائِرِ جيرانِها قد وضِعَتْ تحت حماية حكومة عَدن . وبما أن السلطان كان قد فارق الحياة منذ سنين قليلة تاركاً البلاد من دون ورثة، فما كان من سلطانُ لحج إلا أن استولى عليها بالقوة فبات ذلك أحد الأسبابِ، إن لم يكن الرئيسي، لنشوب حروب مستمرة ما بين سلطان لحج وسلطان بلاللحواشب.

في المساء عند دخولنا غابة كثيفة من أشجار (الأثل)، تفاجأتُ بسماع صُراخٍ كبيرٍ وضجيجٍ صاخَبٍ آتياً من الخلفِ، ورأيتُ ارتباكا لا يوصف بين رجالِ القافِلةِ؛ لكن عندما لمحتُ مُقبلاً وهو لا يُحَركُ ساكِناً، زال فوراً الخوف الذي راودني بأنّا

تَعَرَّضنا لهجومٍ ما. كان سَبَبُ كُلَّ هذه الضوضاء أفعى تواجدَتْ في وسطِ الطريق، فأراد العربُ مطاردتِها نَظراً لكونِها كبيرةً وسامّ ةً جداً، لكن "الحَنَش" (نوع من الأفاعي) اختفى بين الأشجار. راودت العرب رغبة جُنونيَّة بقتلِ الأفعى، لكن بعد أن اختفت استسلموا للأمرِ الواقع و تخلوا عن متابعة البحث عنها.

وصلنا عند السابعةِ والنصف إلى مكانٍ خالٍ من الأشجار، قريباً جدّاً من قريةِ "دار جَازم". أُشعِلت النار وحُضِّرَ العشاء، لكن وَجَعَ رأسٍ شديدٍ (بسبَبِ ضَربَة شَمس) أصابني وأجبرني على التَمدُّدِ في مضجعي. أخبَرَني الأطِبّاءُ الانكليز في عَدَن أنّ في بلادِ الهندِ تُداوى ضَربَةُ الشَّمس بواسطةِ سُلفات الكينين . في حالٍ لم تكن أعراضُ المرض م تقدِّمة، يُعطى للمصاب جرعةٌ كبيرةٌ من هذه السُلفات إن استطاعَ ابتلاعَها . غير ذلك، يُحقَنُ عدة مرات تَحتَ الجِلدِ بإبرٍ من محلولِ هذه السلفات . وأكَّدَ لي هؤلاءِ الأطباءِ عن النجاح الكامل لهذا العلاج . لذلك أخذتُ بسرعةٍ في تلك الليلةِ جرعةً كبيرةً من الكينين الذي ما لبث أن أعطى مفعولاً عجيباً ، استغرقت بعده في سبات عميق ، وفي الصباحِ التالي وجدتُ نفسي معافىً كلّياً.

الأحد 23 - أمضينا النهار بأكمله تقريبا حيث ما توقفنا فيه الليلة السابقة، وذلك لسَبَبيْنِ كان هناك طريق طويل من الرمالِ مليئٌ بالمشقّاتِ يفصلنا عن محطتنا المقبلةِ، وكانت الجمالُ بحاجةٍ للراحةِ . بالإضافةِ إلى أن غاباتِ الز ايْدة نضرة بالأشجارِ والجنْبات، فكانت الجمال تأكلها بشراهةٍ ممّا يُوَفِّر على مالكيها عناءَ ونَفَقَة عَلَفِها. وطيلة فترة هذه الراحة الجَبريَّةِ، انصرَفتُ إلى التأمُّلِ الدقيقِ لِكُلِّ ما يدورُ حولي، سائلاً مُقبلا والعرب الآخرين عن أمور كثيرة تَخُصُّ حياةَ وتقاليد البدو والجمَّال

فدوَّنتُ بدقَةٍ كلِّ تلكَ الأشياءِ في كُتَيِّبي الصغيرِ. وها أنا أفتَحُهُ الآنَ لأتذكرِ فقط تلك الأشياء التي لا تتناقض مع الواقع، أو تلك التي أحتاجها لإعطاءِ القارئ فكرةً واضحةً عن تقاليد هذه الشعوب التي كنت أربط معها علاقات متواصلة آنذاك.

يُقَسِّم العربُ أنفسَهم إلى ثلاث طبقات اجتماعية أو جنس ينتمون إليها:"عرب"، و"قبايل"، و"بدو".

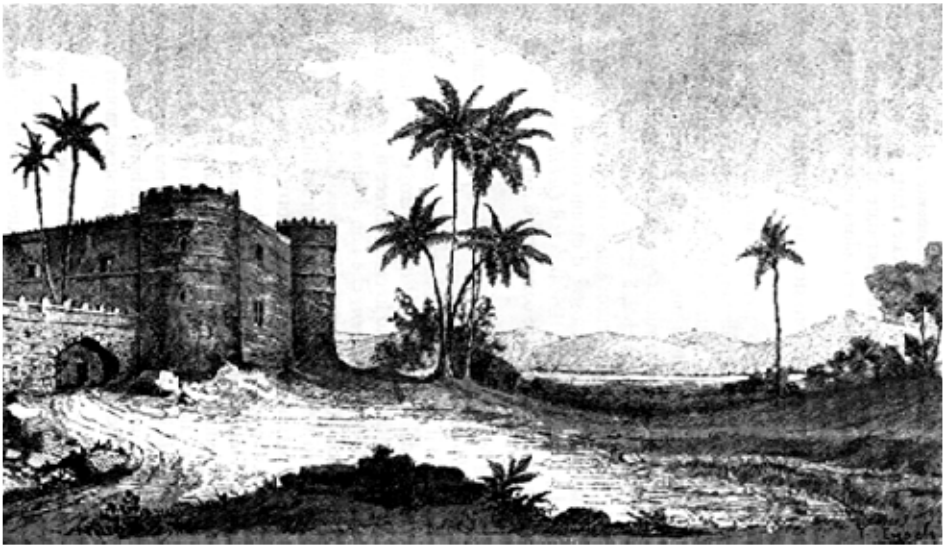

بلاد العبدلي؛ ضواحي الحوطة

العربيّ (قويّ، شُجاع، سريع) أو العربيّ الأصيل، ينسب نفسه إلى "قحطان" الذي يُعرف عامةً بـ: "يَكتان" في سفر التكوين؛ إنه يقطُنُ المدينة ولونه فاتح، هو أذكى من إخوانهِ العرب ولكنه أكثر تكلفاً.

أما "القبيلي" (صفةٌ نسبةٍ من كلمة قبائل والمقصود به رَجُل القبيلة) فهو أيضاً عَرَبيّ من الدَمِّ الأصيلِ ويسكُنُ الجبال . لونُهُ أغمق وهو أقلُّ ذكاءً من العربي لكنه ش جاعٌ قويٌّ كادِحٌ، وذو عادات ممتازة ممّا يُقرِّبَهُ من فلاّحينا. يعيش العربي والقبيلي في المدن أو القرى، في بيوت من الحجارةِ أو من الياجور المحرَّق في الأفران.

"البَدَوي" (أصلها من بادية أو ريف، هي كلمة مُضادَّة لـ"حضري" التي يُعنى بها ذوي المسكن الثابت و هي التسمية التي يطلقها العرب على سكّان المدينة)، فإنه يسكن الصحراءَ، أي أنه رحّال. لونه يضرب من الأحمرِ الداكن إلى شبه الأسود . ومهما حاول الادعاءِ بأصالة عِرقِهِ، فإني أعتقِدُ بالمقابل أنه وليدُ تزاوج العرب مع "الهجر" (الغجر)، وهم دون شكّ متحدّرين من الحبشيين القدامى الذين غَزوا اليمن تحت حكم أريا ط واحتلّوه من عام 529 بعد الميلاد حتى عام 601، وقت الغزو الفارسي . الكثيرُ من الأحباش، إن لم يكن جميعهم، الذين استُبعِدوا على يد الفرس الغُزاة لا بدَّ أنهم أجدادُ الحَجَر ، فتزاوجَ بعضُهم مع العرب أو القبيلي، ولا أقول أن النتيجة كانت البدوي، لكن ذلك التزاوج هَجّنَه إلى حدّ تكوين جنس جديد أخذ من هذا الشعب وذاك. ولأن الأحوال نفسها في كل العالم، فكما أننا نَنعَتُ الشخصَ المراد إهانته بفلاح، هكذا العربُ بدورِهم يشتمون بـ "قبيلي" أو "بدَوي" في الحالات نفسها وللغَرَضِ عَينه.

حافظَ البدو على نظام المجتمع الأبوي؛ وهم لا يعيشون تحت الخِيَامِ لأنها غير معروفة في بلادهم، بل يسكنون تحت

الأكواخ التي يؤوي كل كوخ منها عائلةً واحدةً لا غير، ويتزوج البدوي عادةً بزوجةٍ واحدة فقط. إن محاولة إقناع الجمهور بأن الوحشيَّة تُسيطرُ على البدوي لَهي إجحافٌ كبير، ورغم وجود بعض القبائلِ الذليلة والنهَّابة فأغلبيتها تتميَّز بالنُّبْلِ وكَرَمِ الطبع.

البدوي هو بحَقٍّ الرجل الحرّ وكلُّ ما فيه يَتَنَفَّسُ الاستقلالية، وبالفعل كما أسلفتُ يفتخِرُ بانتمائهِ إلى أنقى الأجناس العربية بل إلى تلك التي لم تكن أبداً محتلة ولا مُهجّنَة!!

من الجميل رؤيتُهُ مُتَحَلٍّ بقوامٍ طويلٍ وبنيةٍ متينةٍ، وبهذا اللون الأسمر، شبهُ عارٍ مع شعرهِ الطويلِ الرائع المنسَدِل على كتفيه، حاملاً باعتزاز رمحَه أو بُندُقِيَّتَهُ ذات الفتيل.

إنه لا يتَّبع آداب التعاشر، لا يعرف ولا يحب المجاملة، وجسمه لا ينحني لأي خشوعٍ يوجِّهُ الحديث إلى رئيسهِ كما لو كان مثيلَه

يَتَميَّز البدو بالبساطة والقناعة بالقليل، القليل من الحليب والبلح يكفي لوجبة نهار واحدٍ، ولا يشرب النبيذ أو الكحول وبفَضلِ طبيعة عَيشِهِ المتوازنة يصاب بالقليل من الأمراضِ ويُعَمِّ طويلاً.

علي ومحمد اليمان بدويَّان غنيَّان في اليمن

تحافظ الحياة الرَعويّة على ديمومة وطهارة التقاليد عند ذلك الشعب : فَقَلبُ البدوي مفتوح للحب، لكنّ قاموسَه لا يعرف المخالَةَ والزنى . لا يجوز عندهم إغراء الفتاة، ويُحتَرم الرباط الزوجي دائما . ويتركون لنسائهم حريّةً أكبر مقارنةً بالمسلمين الآخرين، فالبدويات لا يلبسْن أبداً الحِجاب، ويكتسبن منذ الطفولة بعض العادات الرجوليّة من خلال عيشتِهن المشتركة مع الرجال

يعيش البدو في قبائل كبيرة يرأسها سلطان (ذو سلطة وقدرة مطلقتين) أو أمير (حاكم إقطاعي). أهمّ تلك القبائل هي: "العبدلي" (أي المُستَعبَدين)، "الفضّلي" (أي أصحاب الفضل أو آل الفاضل)، "الحواشب" (سكان البلاد الجافة والقاحلة)، "الصبيحي" (سكان السَهل حيث المياه الأجا جة تكوّن برَكا خلال الشتاء)، وأخيراً "العلوي" (أتباع علي) وهم جيران "الصبيحي".

لكلٍّ قبيلة من تلك القبائل حِصَّةٌ من الصحراء؛ ويمكن بسهولة فَهم صعوبة رسم الحدودِ فوق أرضٍ كهذه، مما يُسَبِّب إشكالاتٍ دائمةٍ ما بين القبائل المتجاورة تؤدّي إلى نشوبِ حروبٍ لا تنتهي . كما أن السلام يبقى هَشًّا بين القبائل نَظراً لأسبابٍ عِدَّةٍ كظلمٍ أو معاملةٍ سَيّئةٍ أ و قتل بدويٍ على يد قبيلةٍ أخرى.

إن العرب يخضعون لنيْرِي الاستبدادِ السياسي والديني؛ أما البدو على العكس، فلا يعرفون الأول ويجيدون التَحَرُّر من الثاني. إنهم مسلمون، لكنَّ إسلامهم بدائيٌ بسيطٌ وممزوج بتقاليدِ العصورِ القديمةِ لعبادةِ الأصنام.

فهم يقولون «نحن لا نصلّي إذ إننا نفتقر إلى الماء للتوضؤ؛ ولا نُؤ دي الزكاة لأننا فُقَراء؛ ولا نصومُ شهرَ رمضان لأننا نصومُ على مدارِ السنةِ؛ ولا نذهبَ إلى مَكّة لأن الله في كلِّ مكانٍ».

الخلافة على العرشِ عند البدو لا تتّبع نظام الوراثة من الأبِ إلى الابن، إذ عندما يموت السلطان أو الأمير أو شيخ

القبيلة (العجوزُ الحكيمُ)، يُعَيَّنُ كحاكمٍ جديدٍ الأكبرُ سناً من عائلةِ السلطان المتوفَّ ى؛ أو إن صحَّ التَّعبير، المُ سِنُّ الأكبر من بين أقاربِهِ .

هناك سببان أساسيّان قد يمنعان هذا النوع من التولي في بعض الأحيان : إما الرفضُ الشخصي والطوعي للمُرشح المفترض ليسهل ترشيح أحدٍ آخرٍ من العائلةِ نفسِها، أو بيعةٌ جديدة لفرد من العائلةِ الحاكمةِ لأن الأول مرفوضٌ ويفتقِرُ للتقدير: وفي هذه الحالات تُـحَلُّ القضيةُ عادةً بالسلاح.

في حال تُوفِّيَ السلطان من دون تركِ أيِّ وريث ذكرٍ، تَنتخِبُ القبيلةُ واحداً من الرؤساء الثانويين ، أو حتى أيَّ فردٍ محبوبٍ من الجميع ، لكن دائما من ضمن القبيلةِ نفسها.

البدو يعملون كمرشدين ("مرشد"، "دليل") وكحرس لكُلّ من يُسافِر في الصحاري، كما يقومون بعمل الجَمّال، لكنّ الجمّالين عادةً هم من القبيليين.

لا وجودَ في بلادِ اليمن أو في بلدٍ شرقيٍّ آخرٍ لمثل تلك الطرقات التي نجدها في بلادنا حيث يسيطرُ هناك الحكمُ الرزين لقوة أوروبية ثرية . فطرقات اليمن ليست سوى مسالكٍ ضيِّقَةٍ بين رمالِ الصحراءِ، أو وسط الحقول المزروعةِ، أو في مجاري الأنهار الجافة، أو صعوداً على منحدرات الجبال. وحتى في الصحراءِ، تكونُ تلك الطرقاتِ م فتقرةً للاستقرار إذ أنها تتشكل من آثار القوافل المارة، فإذا هبَّ هواءٌ خفيفٌ يُحركُ الرمالَ انمحى أيُّ أثر للطريق واختفى أصغَرُ دليلٍ للمسار المسلوك. ولكنَّ البدو، متحلّينَ بتلكَ الثقة الرائعةِ من لمحةِ بَصَرٍ واحدة، ينجحون باكتشافِ الطريق من خلال أصغرِ الأدلة التي تقدِّمُها كُثبان الصحراء أو الجنبات القليلة، ومن دون الوقوع في أي خطأ.

يمر من تلكَ المسالكِ، الواحدُ تلوَ الآخر، عشرون، ثلاثون، فخمسونَ، فمائة ومائتانِ من الجمال أو أكثر حتى، وذلك حسبِ كبر القافلةِ المسافرة. يُمَرِّرُ العرب حبلاً ما بين خر طومِ الجملِ المثقوبِ ومن ثم يصلونهُ بذيلِ الجملِ السابق، فتُشبه القافلةُ بذلك سلسلةً متواصلةً من الجمال، الواحدُ مربوط تلوَ الآخر . يسير على شمالها الجمّالون واقفين خلف جمالِهم ، ويمسكون معظم الوقت ذيلَ الحيوانِ في أيديهم اليمنى، ويدفعونهُ على السيرِ بالصراخ أو بضربةِ العصا؛ أما على جهتها اليُمنى فهناك الرؤساء والرجال المُسلّحونَ ببنادقهم الطويلة العاملة بالحراقة (الفتيل). وأخيرا في الخلفِ، يسيرُ عشوائيا عددٌ كبيرٌ من الحميرِ والبغالِ، بعضها مُحَمَّلةٌ والبعضُ الآخر يركبها مرافقو القافلةِ.

خلال سيرِ القافلة، يسيطرُ عادةً سكونٌ تامٌّ ولا يُسمَع آنذاك سوى صريرِ الحمولةِ المُزعج المنبعث عن الوقع المنتظم والثقيل لخُطى الجمال.

بعضُ المرات النادرة يقومُ الجمّالونَ، وذلك غالباً في بدايةِ المسيرةِ وخصوصاً اليافعينَ منهم الذين يشعرون بالكثيرِ من القوّةِ والشجاعةِ، بغناءِ الأناشيدِ أو بالأحرى بأداء تلك الأغاني البدوية القليلة المرح. فيكونُ السفرُ مع القافلةِ في معظم الأوقات كثيرَ المَلل لأن تقدُّمَها بطيءٌ عصيبٌ متقطّعٌ مثقِلٌ وحزينٌ . فالقافلة لا تقطع في الرمال أكثر من مسافة ميلٍ واحدٍ في الساعة، أمّا على الأرضِ الصلْبةِ فتسيرُ بمعدّلِ ميلينِ ونصف.

يقوم المسافرُ برحلات سيئة إن كان يجهلُ لغة البلادِ، إذ يتملّكُهُ ويسيطر عليه ويثبطه مَلَلٌ رهيبٌ وتعاسةٌ كبيرةٌ. فيحاول عبَثاً تفقُدَ معدّاتِهِ، والانتباه لأدَقِّ المُلاحظاتِ والبحث عن ترفيهٍ ما ... لكنّ السكوت والصمت الجبري يُطاردانه ويُقعدانه ويضعفانه جسَدياً ومعنوياً، لأنه وحيدٌ بين قوم ضجر، مخنوقٌ من الحرِّ، مكبَّلٌ بالحزنِ والخوفِ من المجهول، لا يقدر أن يتحدث مع أحدٍ أو حتى فهم ما قد يقوله الآخرونَ صُدفةً.

كان عليَّ أن اختبرَ أنا أيضاً هكذا تعاسة خلال سفري في المغرب، لكنّ الدرسَ كان قصيراً : فثابرت بشجاعةٍ على تَعَلُّم اللغة العربيَّة، وتخطَّيتُ بوقتٍ أقلّ من المتوقّع مصاعبَ لغةٍ جديدةٍ عليَّ، ونجحتُ في نطقها صحيحةً. ومنذ ذلك الحين باتت أسفاري مُمتِعَة، فكفتُ أسمعُ وأفهمُ الأحاديثَ، واللواذع، وكلُّ ما كان يقولهُ مرافقوي المُتَشَجِّعون بطلاقتي في الكلام.

فَتَخيَّلوا إذاً أنْ تروا خَلفَ ذلك الطابور من الجمالِ والحمير، مشهدَ شابٍ يافعٍ بلحية على ظهرِ بغلٍ جميلٍ؛ لابساً أبيضَ مُعتمراً قبعة كخوذة كبيرة بيضاءَ أيضاً؛ حاملاً بندقيتُهُ نِجاداً؛ واضعاً سيجارة ما بين شفتيه ونظاراتٍ فوق أنفٍ لا بأسَ بطولِهِ (إذ وصفهُ صحافي من ميلانو بالأنفِ الأحجن)؛ مُحاطاً بعرَبٍ وبدو سواءً راكبي الحمير أو الهاشين على الأقدام، يثرثِرون ويجيبون تارةً بجدّية وطوراً بخفة على أسئلةِ هذا المرافق الأجنبي ... عندها ستتضِحُ لكم الصورة لطريقة سفر المؤلّف مع القافلةِ في بلادِ اليمن.

أولَ ما يتم الوصول إلى مكانِ الاستراحةِ، يحلُّ الجمّالون بسرعة الحبلَ عن أذيالِ الجمال ثم يدفعونها إلى حيثُ يقف رئيس القافلةِ؛ هناك يجعلونها تبرك على قوائمها أرضاً ورؤوسها نحوَ الوسَطِ، ثم ينـزّلون حمولتها التي تُترك بجانبها . وهكذا يأخُذُ المُخَيَّمُ شكلَ مساحةٍ دائريةٍ حيثُ تُشعَلُ النار في وسطها.

بعد ذلك يأتي تفريغ حمولة الحمير والبغال التي فور ما تَتَحَرَّر من أثقالِها حتى تبدأ بالتدَحرج في الرِّمالِ مسَبِّبَةً نقعا كثيفا من الغبار. بعدها بقليل، تُقيَّد قوائمها الأماميَّة تم تُتركُ حرَّةً خلفَ الجمال . يقومُ الجمّالونَ والخدم المتخصِّصون ("الوصيف") بمهام العناية بالحيوانات، علماً بأن في القافلةِ، بالإضافة إلى وجود رئيس و"مسافرين"، هناك عرب وخدّامون

يعملون كلهم بالمهمات اللازمة وكأنهم يعتنون بأسرة، لأن كذلك يتم اعتبار القافلة.

يُحَمَّلُ الحطبُ إما مع القافلةِ أو يَتَواجدُ في الأماكن التي تمرُّ بها القافلة : فالقبائلُ البدوية ال مضيافة تقوم بتقديمه مجّاناً . وبإمكان الجميع استعمال ذلك الحطبِ، وبالطبع دون أي مقا بل. لهذا في الصحاري العربيةِ لا ينقص الحطب للقوافلِ أبداً.

كلّما قام العربيُّ بسفر، حملَ معهُ كل ضروريات المأكل والمشرب والراحة، لذلك كلّ واحد منهم معه أدوات المائدة، والمداع، و(الجمنة)، والزبدة، وزيت جوز الهند، وطحين الحِنطة، والأرز، والملح، والبهار، والفلفل، والبصل، والبطاطا، والقشر، والتبغ، والبلح، وحتى الأشياء اللذيذة. وعندما تكون القافلة عديدةَ الأشخاص، يُذبح كل ليلةٍ "كبشٌ" أو "ماعزٌ" صغيرٌ من تلك التي ابتيعَت قبل الرحيل والتي تُساقُ مع القافلةِ كغذاء للمسافرين

أحد ه ؤلاء العرب يقوم بوظيفةِ "الجزّار" ويُكافأ على تعبهِ بإعطائه جلد الحيوان المذبوج وبعد تقطيع "اللحم"، يسلّمها للذين يطهون ("الطباخ") فيضعونه في "بُرم" (طناجر من الفخار) مع الماء أو في " دست" (قِدْرٍ نحاسي) فيضعون فيه المُطيِّبات مثل الملح، البهار، البصل ، والكثير من التوابل . فَيُصبح "اللحم المسلوق" ممتازا وشهياً، كما يكتسبُ "المَرق" نكهة التوابل التي بداخلهِ

عربٌ آخرون من القافلة يعملون كخبّازين "سنبوسقي". يوضعُ طحين الحنطة أو السميد في كيسٍ من الجلدِ وعندما يُرادُ تحضير "الخبز"، يقوم السنبوسقي بوضع قسمٍ من ذلك الطحين في جفنةٍ كبيرةٍ من الخشب مع الماء المالح لتَتَّح وَّل بعد وقتٍ قليلٍ إلى عجينةٍ "اللُقمة". في الوقت عينه يُدْهَنُ صاجٌ موضوعٌ على الجمرِ بالزبدةِ، ثم يقومُ الخبّازُ بأخذِ قطعة من العجين بين يديه ويلوِّحُها مؤَلّفاً بذلك كعكة واسعة ورقيقة، ثم يضعها على الصاج لتُخْبَز ويُقلّبُها حسبَ الحاجةِ . متى أصبح "الفطير " جاهزا، يقوم بتجهيز أخرى منها حتى يكون الخبز كافيا للوجبةِ.

وهذا الفطير شهيٌ جداً فور خروجه من النار حتى بالنسبة إلى ذوق الرجل الأوروبيٍّ، ولكنَّهُ يفقِدُ كل اللذة متى أصبحَ بارداً.

محمد علي
مرافق سفري؛ يلبس زوجاً من أحذيتي

وكان الشيء الجديد بالنسبة لمرافقيّ عندما طلبت من مُقبِل تقطيع بَصَلَةٍ صغيرةٍ ومزجها مع عجينة الخبز مؤلفاً بذلك نوعاً جديداً من كعكةِ البصل مثلما يحضِّرُها فلاحونا مع طحين الذرة الصفراء. فلقي ذلك استحساناً كبيراً، حتى أني سعدتُ بعد سنين قليلة من أن الكعكات لاقتْ إقبالاً شديداً في اليمن لدرجة أنها أصبحتْ عادةً عندهم.

هناك طريقة غريبة مُتَّبعة في هذه البلاد لإطعامِ جِمال القافلةِ عندما تكون رابضة، ففي الوقتِ الذي يكون فيه الرؤساء والمسافرون مستلقون باسترخاء على السجاجيدِ يُحتسون القهوة ويدخنون المِداع، فإن الجمّالين، بعد أخذ قسطٍ من الراحةِ وبعد أكل القليل من العصيدة المحضَّرة من طحين الذُرة في حال كانوا فقراء أو لم يكن هناك أحد يطعمهم القليل من اللحم، يقومون بالاعتناء بجمالهم التي إلى تلك الساعة م ا تزال تجتَرُّ ذلك القليل الذي توفَّرَ لها على الطريق . فعادةً الجمل في بلادِ العرب لا يأكلُ بمفردِه بل يمدُّهُ صاحبهُ أو حارسهُ بالعلفِ إلى فمهِ. يجلسُ إذاً الجمّال أرضاً أمام جملِهِ، وبجانبه رزَمٌ كبيرة من قصَبِ الذرة الخضراء أو الجافة وذلك حسب فصل السنة أو البعد من المناطق المزروعة، فيقطع هذه القصب إلى قضبانٍ بطولِ عشرة سنتمترات ثمّ يجدِلها بأوراقها أو بعض النبات الأخضر مثل ثلاثي الأوراق لتكوين باقاتٍ يضَعُها الواحدة تلو الأخرى في فم الجَمَل.

رأيت على غصنِ شجرةِ "الأثل" (نوع من الطرفاء) عشَّ (الصفير)، وهو طائرٌ ذو ريَش صفراء وسوداء من فصيلةِ الحسّون. هذا العش بحقٍّ أعجوبةٌ فَنٍّ ومثابرة: فهو مربوطٌ بخيطِ عشبٍ إلى غصنِ الشجرةِ، فيبقى متدلياً وفتحتُه للأسفل مثلَ حقيبة مقلوبة. والأوراقُ الصغيرة والعُصيات التي تصنعُ منها هذا العشّ مجدولةٌ فيما بينها بواسط ة خيوط رفيعة من العشب الجاف، يَعقُدُها الطائر بطريقةٍ وكأنها بحقٍّ عملٌ بشريٌّ متقنٌ.

وجدتُ هناك الكثيرَ من النمل، فمنها الصغيرة الحمراء والكبيرة كلها سوداء المتواجدة بكثرة في المغرب وعدن، إنَّما كان هناك فصيلة جديدة من نمل هائل (بطول ستة ملليمترات على الأقل) وبتَّسِم برأس وجسم أسودين، كما أنها تقف عاموديّاً ولا تنبسط أفقيّاً، وهي بيضاء اللون من الجهة الخلفيَّةِ . تكون نفس النملة في "حردبة" وجبال تعز صفراءَ اللون مائلةً إلى

الزَّهري. نظرها حادٌّ جداً، و تهرب بسرعة كالذبابة قبل اقتراب اليد منها . كنتُ قد أمسكتُ بالكثيرَ من النمل من الأنواع الأخرى، وهو شيءٌ في غاية السهولةِ، إنما للقبضِ على هذا النوع فمن الواجب التصرُّف بدهاء وحيلة، والتَّحلّي بسرعة كبيرة، وإلا قفزتْ عنك بعيداً مثلما تقتضي طبيعتها الغرائزيّة.

IV

المغادرة - صحراء من الـرِّمال - لصوصٌ وقتلى - تخييم - وادي منيف - قافلة خفيفة - وادي سيت - دار شيبان - دار الحجَر - وادي السايب (صهيب)- أقوم بتخويف سُلطان العلويين (العلوي)- في الحردبة - وادي الجافِلة والخُريبة - الرباح- وليٌّ من الأولياء- عامر النيشي- نقِيل الخُريبة- بلاد الشاعري- وصولي إلى الجليلة.

بدأتْ في الرابعة عصراً التحضيراتُ للرحيل المُحدَّد عند الخامسة . تَوَجَّهنا شمالاً مسافة ميلين، وسط غابات وحقول مزروعةٍ، تاركين عن يسارنا العديدَ من القرى المُسوَّرة : دار جازم و"دار الشقعه" (أي المحاذية للمياه). من هنا أخذنا الاتجاه الشمالي - الغربي، فسلَكنا أولاً طريقاً من الحجارة ، ثم قطعنا شوطا في وادي الرَملة (أي نهرُ الرمال)، وهو مسيل جاف عندما لا تمطر بغزارة، وأخيرا عُدْنا من جديد في الصحراء.

كانت الرمال رخوةً لدرجة أنّ قوائم الجمال تغْرَق فيها حوالي عشرينَ سنتمتراً على الأقل، ممّا كان ينهكُ قوى تلك البهائم المسكينة. هذه البلادُ مناسبةٌ حقاً لغَزوات بدو "الحواشب" (أو بدو بلاد "الحوشبي")، والعلوي والفضلي والصبيحي.

«عليكَ بالحيطة !»، كان يصرُخُ لي مُقبِلٌ، الذي بقدر ما كان خادماً مُحِبّاً ومُخلِصاً كان أيضا جباناً كبيراً . وكان يصيح لي من وقتٍ لآخرٍ : "شوف طبُنجاك، يا خواجة "، (أيّ أبقِ مسدسك جاهزاً يا سيِّدي)، معتقداً بخلاص كلينا إن أدرك الجميعُ أنّ بِحَوزتي مُسَدَّسا.

من السهل أن نجدَ بيننا مَن يخافُ الظلامَ، فيُحاول إذن التَّحلّي بالشجاعةِ بالغناءِ أو الصياحِ عند السيرِ تحتَ ظلام الليل؛ لكن مُقبلاً وجَدَ طريقةً جديدةً ليملأ نفسَه بالشجاعة وهي أنْ يخوفني أنا وهو متأكد في اعتقاده أنّني جاهزٌ لأي ظرف من الظروف فكان يقص عليَّ قصَصَ عالم القتلة والسارقين، سارداً أحداثَ هجماتٍ دارت في نفسِ مكان مرورنا في تلك اللحظة وقد كان الليلُ على مشارفِهِ ولم يكُن من المُستَبعَدِ أبداً أن نتَعَرَّض لهجومٍ بالرغمِ من كوننا كُثُر . فكنّا نسيرُ دون توقف، ورويداً رويداً بدأ قلبُ مُقبل ي ملأه الأملُ بأنّهُ لن يُصيبَنا أيُّ مكروهٍ . وتضاعَفَتْ شجاعتُهُ حتى أنه أخبرني أنّ العربي الذي يرتكبُ أية جريمة قتلٍ يُسَمّى ببساطة "سرّاق" ، فلا يُقال "حرامي" (أي قاطع طرق أو لص) إلا للكُفّار، لأن كلمة "حرامي" تحمل الكثير من الاحتقار، كما أنها كانت تُلفظ على عُصبَةٍ من عبدة الأصنام داعيةٍ للمجون وتناسخ الأرواح . فلِكون المسلم مسلماً يُطلق عليه "سرّاق" مهما اقترف من جُرمٍ . ووضَّحَ لي مُقبل أيضاً، أنّهُ يُطلِق اسم "سَلسّة" على المكان المُكتَظ بقُطّاع الطرق وبأن المكان الذي كنا نمرّ فيه تلك اللحظة كان بالتحديد "سَلسة العبدلي"!!

في الساعة التاسعة ليلاً توقفنا في وسط الصحراء لإراحة الجمال المُتعبَة. أشار مقياس الضّغطِ الجوّي إلى 752، وأمطرت السماء الغائمة القليل من قطرات المطر ، ومع ذلك أشْعلت النيران واحتَسَينا القهوة الساخنة ودخنّا.

عند الحادية عشرة شددنا الرحال مواصلين سيرنا في الجهةِ نفسها أي الشمالية ـ الغربية، ودائماً على الرمال الرخوة . عند منتصف الليل نزلنا في مجرى وادي منيف الجّاف الذي يَنبَعُ من الجبل الذي يَحمِلُ نفس الاسم، ويمرُّ بين جبال الشرار (أي المواجه للشمس) وهي هضاب من الرمال وبين الراحة (أي الطاحون)، و يستقبل وادي المنيف من يساره وادي الرَمِلة لِيَصُبَّ في (الغيل). وتوقفنا هناك لنستريح نصف ساعة أخرى.

الاثنين 24 سبتمبر - بعد وصولنا إلى وادي منيف، التحقتْ بنا قافلةٌ من ثمانينَ جملاً قادمةً من عدن. وكان معظم الحيوانات شِبه فارغة من الحِ مولة، فمرَّت مسرِعَةً كالسهامِ أمامنا، نحن الذين كنا نسير ببطء ومشقة، وتجاوَزَتْنا وكأنها القطار على السِّكَّةِ الحديديةِ!

كنّا قد خرجنا من سَلطنة لحج أو بلاد العبدلي، ودخلنا بلاد (الرَّاحة)، وهي مقاطعة تحت حكم علي بن مانع، الأمير أو بالأحرى سلطان الحواشب.

استرحنا بعض الوقت ثم تابعنا السير في مجرى وادي منيف، الذي، كسائر الوديان الأخرى، يصلح كطريقٍ عندما لا تسقط الأمطار، لكن عندما تُحَوِّله الأمطار إلى نهرٍ يستَحيلُ التقدم فيه، فعندها يُسلك طريق الجبال المُتعِب والخطِر جدّاً لكثرة أجرافها ومهاويها . الآن أصبحت الأرض في بعض الأماكن أكثر صلابةً، فثابرت الجمالُ والبغالُ والحميرُ على الكدِّ حتى أصبح بمقدورها قطع حوالي ميلين ونصف في الساعة . عند خروجنا من مجرى النهر، وجَدنا الأرض شبه عارية والقليلَ من الأشجار النادرة التي كانت تكسر رتابة تلك الصحراءِ، كما وأن التربة صفراء وصلبة كالفخّارِ.

نحو الخامسة فجراً، قطعنا "وادي السِيت" (المُعنى بها المياه التي تخرج من الحُفر) وهو سيلٌ كبيرٌ نابعٌ من جبل "الضبيات"، ثم "الثنام " (أي الذي يفصل الماء)، و"المخادر " (أي الأسد)، و"السِردِل" (أي العالي والضيِّق) الذي يَصُبُّ بالقربِ من "وادي صهيب". عند وصولنا إليه توقفنا مرَّةً أخرى، إذ كنا قد وصلنا إلى مِجْباة، أي إلى جمارك بلدة(الرَّاحة) حيث توجَّب علينا دَفعُ من25 إلى 30 فِلسا حسب حمولة كل جمل، وذلك كضريبة مرور . كان ناشرٌ قد دَفَعَ في الحوطة بَدَلَ مرورِ الجمالِ فقط، أمّا هُنا فَدفع أيضاً لبغلي وللحُمارِ الذي يركبه مُقبلٌ

بعد الانتهاء من ذلك الواجب المتكرِّر، إذ كثيرةٌ هي البلادُ وعدةٌ هم السلاطين!، تابعنا الرحلة. مَررنا من على يسارنا ببلدة "دار شيبان" (أي بيت العَجَزة)، وعند بزوغ الفجرِ دخلنا "وادي صهيب " (أي المشكَّل من مياه الأمطار) بالقرب من "دار الحجر " (أي البيوت من الحِجارة)، وهي أوّل قرية مبنية من الصَّخرِ المُقَطَّع. كنّا مُحاطين بالجبالِ في وسط وادي "صهيب"، فكان يطلَّ من يسارنا جبلٌ عارٍ وعرٌ وقائم اللونِ اسمه جبل "بوبياغ " (أي الجبل أبو البساتين)، وهو مكون من حِمَمِ البراكين؛ ومن على يميننا يشمخ جبل "الحرامي" الهائل (أي جبل القَتَلَةِ)؛ وهذه الجبال كلّها مُجَرَّدَةٌ من أيِّ عشب، وهي مكونة من الطّين والحِمَمِ البُركانية ذاتها التي تشكل جبال عَدَن، ولها نفس اللون وتماثلها أيضاً من حيث الطبقات الصخرية.

عند السادسة والربع، على مقربَةٍ من دار الحجر ووادي (صهيب) وتحت ظِلِّ أشجارِ الجميز الكبيرة أسفلَ قرية"العلوب"، أُعطِيَ أخيراً الأمرُ بالتوقّفِ، فاسْتأنَفنا حياةَ التخييم المُريحة والظريفة. كما وكانت تخيّم بجانبنا تلك القافلة الخفيفة

وَجَدتُ مكتوباً في مدونتي: «ربّي، ما هذه الوجوه! وما هذا المزاج التَّعيس الذي ألبَسَتْني إياه: قَضيتُ النهارَ بأكمَلِهِ في حالةٍ من الحُمّيةِ والانفعالِ الكريهِ؛ بالإضافة إلى أنّ عليّاً الكفء والثقات الآخرين كانوا قد توقفوا سلفاً للاستراحةِ من تعبهم من السير الطويل. أما أنا فلم يكن باستطاعتي النومَ رغمَ كَثرةِ التَّعَبِ والإنهاك تحت وطأة جثوم تلك الوجوهِ السفاحة!... فقَمتُ بطهي قِطعة من لحمِ الخروفِ مع الزيتِ ولم أحصل إلا على قرف حقيقي... مع أنَّني طبّاخٌ ماهرٌ!...».

لعلّي لم أكن مُخطئاً في ذلك النهار بكتابة تلك الجُمَل المسيئة. أولئك الرجال كانوا فعلاً قبيحي المنظر، لكنه سنح لي الوقت الكافي للتعرف عليهم ومبادلتهم المحبّة . كان هؤلاء من (قعطبة)، والمعروف أن سكان تلك المدينة المحافظة ي فتقرون للجمال والحسن. حصلَ العديد من المرّاتِ أنْ رَأيتُ في اليمن

قبائلَ كاملةً من الرجالِ والنساءِ قبيحي المظهر جداً، تقابلهم قبائل أخرى من رجالٍ وسيمين ونساءٍ فاتنات. وتتوالى فيهم تلك التباينات إذ أن الزواج يحصل بين القبائل المتشابهة، أي بين القبائل الجميلة فيما بينها والقبيحة بالمثل . يُطلِقُ العربُ اسمَ "قبيلي" على الأولى و "بدو" على الثانية وإن قَطَنت جميعها الجبال.

عند الساعة الثانية والنصف أُعطِيَ الإشعار بالرحيل فتجهز الجميعُ وأصبحوا على أهبةِ الاستعدادِ، وإذ بي أرى ناشرا لم يجهز جمالي، ومُقبلا يَغُطُّ في سُباتٍ عميقٍ رَفَضَ ناشر المغادرةَ مع الآخرينَ، فانطلقَتْ سِلسِلةٌ من المشاحنات بينه هو وأتباعي من جهة وبين رجال قافِلةِ الثمانين جملاً من جهة أخرى . فوضعتُ حداً لهذه الجَلَبة بصرخةٍ واحدةٍ أطلقتها عليهم: "أسكتوا!". سألتُ ناشرا عن سبب كل ذلك، فأجابني بأنه قد أُمِرَ من قنصلنا في عدن بتَوَخّي الحَذَر الشَّديد وعدم مرافقة القوافل إلا مع الاحتراس الكبير.

فانطلقنا مجددا في سيرنا عند الرابعة والنصف مُجتازينَ نهر (صهيب)، لنصلَ بعد ساعة إلى قرية "السودة" (التي تسود على الوديان)، مقَرّ سَلطنة [مشيخة] العلوي.

على قِمَّةِ تلّ أسطواني منفَصِلٍ عن جبل بوبياغ ، هناك دار لا تَتَمَيَّز بالكثير إنما، وبحكم موقعها، تصلح أن تكون قلعةً. في أسفل التل من جهةِ النهر، هناك قرية "السودة" حيث كما قيل لي يوجَدُ بيت السلطان . وبقدر ما حاول مرافقيّ الإشارة إليّ بها، وبقدر ما حاولت اكتشاف موقعها، لم أتمكن من تَمَييزها بين كدس تلك البيوت المُتَشابهةِ . وإن حُرِمْتُ من مُتعَةِ رؤيةِ بيت السلطان، فإن رضاي بالمقابل كان بالتحدث إليه وحَقنِهِ بالقليل من الخوف . وإليكم كيف كان: علي وأحمد ومحمد قد لحقوا بنا، ومن فرحتي بلق اءِ الرفاق الأحبَّة، تابعنا السير سوياً فابتعدنا كثيراً عن السودة. أما مُقبل فتوجبَ عليه

التقدم رويداً رويداً نظراً لمشي حِماره البطيء، ممّا أبقاهُ بعيداً خلفنا. فكان السلطان حينئذ مارّاً من هناك، ربّما راجعاً من حقولهِ، وعندما رأى عربيّاً حسنَ الملبسِ ر اكِباً حماراً، وإن لم يكن هذا الأخير يعْدُ و مثل الخيول لكن بالمقابل كان مُحَمَّلاً بالأشياء الجميلة (أيّ سجادي)، عندها أوقفهُ مانعاً عليه المرور إن لم يدفع ثلاث ة ريالات (أيّ 15 ليرة إيطالية تقريباً). وكان ناشر،كالعادة، قد سبق أن دفعَ مَجبى السودة.

أمّا مُقبل فلم يكن قدر المقام : فَـتَحْتَ وطأة الخوف لإنذار السلطان، أفاد بأنه في خدمة "أفندي" [كلمة تركية معناها سيّد]. فما كان من السلطان، وهو فلاحٌ فقيرٌ، إلا أن ضرب ذلك بعرض الحائط واثقاً من دعم الانجليز له، عندها وجد مُقبل نفسهُ مُرغَماً على الدفع أو الإرسال في طلبي.

رَجعتُ إذاً راكضاً وقَدَّمتُ نفسي للسلطان الذي تَمَلَّكَتهُ الدهشة عند رؤيته لخوذتي البيضاء بدلا من "الطربوش " التركي، فاعتَقد أنّني انجليزي ووقف أمامي لتقديم الاعتذار.

وانتهزت لحظة خوفه تلك لإعطاء نفسي بعض الشأن والأهمية، وهما صفتان مفيدتان في بعض الأحيان، وأمرتُ مُقبلا بالرحيل، ثم توجهتُ إلى السلطان ومددتُ له يدي كمبادرة سلامٍ ومغفِرَةٍ، وإذا به لشدّةِ بساطَتِهِ، يقبّلها تقبيلاً . لحِقتُ بعدها بالآخرين، وتركتُ السلطان سعيدا لأنني لم أتعرض له بسوء.

في هذه الأثناء، كان قد خَيَّمَ الظلام وكنّا على وشك الدخول في سهل الحَرْدَبـة، المُسَمّاة في عَدن بمَعقل اللصوص الكبير ("السلسّات الكبيرة")، وهي مقاطعة سلطان آخر، أمير(الضالع).

دخلنا غابات كثيفة: ظلام حالك كان يحيطنا؛ تحاول العيُن عبثاً تمييزَ شيء ما، فتستحيل الرؤية، والأذن صاغية؛ كان هناك سكوتٌ مخيفٌ، فوصّاني مُقبل، وهو بجانبي، بالمسدس.

توغّلنا شيئاً فشيئاً. وفجأةً سمعنا طلقة بندقية... تَرَجَّل مُقبل عن الحِمار ليقترب منّي ... وبعد لحظة ها هي طلقة بندقية أخرى من على بعد خطوتين منّا... إننا هالكون! "يا ربّي، ويشْ بعدْ ها الشيء!...يا خَواجة، الغوث! الغوث!"

ما كانت تلك الطلقات النّارية إلا تحيّات ناشرٍ للقوافل المُخَيِّمة، التي بطبيعة الحال رَدَّت على تحيّتِهِ بالمثل!

في تلك الأثناء، كان القمر المتألق يَطلُّ من فوق قمم الجبال، ممّا طمأن مُقبلا ورجال القافلة، بمن فيهم كاتب هذه الصفحات.

بعد مسافة قليلة، صادفنا القافلة الخفيفة وكانت قد أشعلتْ النارَ منذ وقتٍ طويلٍ. توقفنا في السابعةِ والنصفِ وسط رحبة واسعةٍ حيثُ أقمنا المُخَيَّم. وبعد إشعال النيرانَ تَعَشَّينا. كنت منهكا حتى الموت، فأردتُ أن أنام (إذ لم أُغلِقَ جَفنا منذ36 ساعة، أمضيتُ 26 منها على الأقلِّ راكباً حماري)، ولثقتي بالعرب المرافقين لي وبعدَ توصيةِ الجميع بأخذِ أشدّ تدابير الحيطة والطلب من مُقبل بأن يبقي لي القهوة جاهزة، استسلمت لِسُباتٍ عميقٍ، واستغرقت الكثير من الوقت قبل التمكن من الصحو مُجَدَّداً، وذلك عند الثانية.ليلاً

لا يجب الاعتقاد بأني أريد مدحَ نفسي بشجاعةٍ ربما لا أتَحَلّى بها، إني أقصُ الوقائِعَ فقط، فلربما في تلك الليلة لو تمكنت لغططت في النومَ حتى واقفاً من شدة تعبي.

الثلاثاء 25 - انطلقنا عند الثانية فجراً، سالكين الجهة الشمالية - الشرقية، فقطعنا وادي الحردبة ومشينا نحو "وادي الجافلة " (أي ما يجري بسرعة مشكلا رغوة)، وهو تَكمِلَةٌ لـ"وادي الخُريبقة" (أي النهر المُخَرِّب) ومكان مرادنا.

لقد سنحتْ لي فرصةُ لقاء أولئك البدو المشهورين بممارستهم لقطع الطريق مَرَّتين طوال الدرب. ففي المرةِ الأولى كانوا بعيدين عنّا وعددهم حوالي عشرين نفراً، وعرفناهم من

بنادقهم التي تبدو كشعيلات كثيرة، إذ كانت فتائلها مشتعِلة . أما في المرة الثانية فكانوا أقلَّ عدداً ومَرّوا بالقرب منّا. فَصَرَخَ لي ناشرٌ: "يا خواجة، شوف الحرامي "، مخالفاً هذه المرة مخالفةً جريئة للعرف، إذ كان مُقتَنِعاً بأن البدو لن يتعرضوا له بسوء . وبالفعلِ قالوا لي من دون اضطراب :"السلام عليكم "، فرددتُ قائلاً: "وعليكم السلام ورحمةُ اللهِ وبركاته!".

كانت توصيات قُنصُلِنا الممتاز، الكفاليير جوسيبي بينفلد - رولف، تساوي ذهباً، فكما علمت في الجليلة فيما بعد، كان عُبيش صالح ،الذي كنت أحمل له رسالة توصية، قد تكَلَّم شخصياً مع علي مقبل أمير الضالع، ومع عامر البيشي شيخ الخُريبة قائلا لهما بأنني أخ القُنصُل بينفلد- رولف (أو "ألف" كما ينطقونها هم)، وبأني مُتَوَجِّه إلى صنعاء بهدف التجارة . قنصلنا مشهورٌ جدّاً في عدن وهو على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية والتقدير من قبل كلِّ عربِ اليمن، إلى درجةِ أن لا أحد يتجرأ ولو على مسِّ شعرةٍ واحدةٍ لأي من محميّيه. وبالفعلِ، لاقت أسفاري في اليمن حظاً وفيراً بفضلِ حماية وصداقة بينفلد- رولف الفاضل.

مع بزوغِ الفجرِ تركنا سهل الحردبة واتجهنا سالكين "وادي الجافلة" نحو مجباة أمير الضالع وشيخ الخُريبة . وهنا أيضاً وكالعادة، دفع ناشرٌ حقَّ المرور مرتين.

من الممكن لكل تلك الوديان أنْ تصلح جيداً كمأوى للبدو اللصوص، ولكن لاتِّفاقٍ عجيب لا ينزلون فيها أبداً. وذلك يعود، وليس لأحد أن يتخيّل ذلك مسبقا، إلى أن الجبالَ الأولى من سلسلة السِردل التي تؤلفُ الجهة اليسرى للوادي، مأهولةٌ بقردة ضخمة "الرباح"، تنْزِل منها ليلاً في عصابات كبيرة. فالبدو، وعلى الرغم من تجهيزهم بالسلاح، لا يستطيعون التصديّ لتلك الأعداد الكبيرة والسريعة من الأسراب المفترسة، فيبقون إذاً بعيدين عنها. عندما أعلمني ناشرٌ بذلكَ، أطلقتُ من مُسَدَّسي عدة عيارات نارية ورأيتُ أفواجاً من تلك "الرُباح" تركضُ كالبرقِ، هاربةً نحوَ قِمَمِ الجبالِ

بَقيَ لدينا، بعد قطع المجباة، الكثيرَ لنسلكه حتى الجليلة، فأشار علي ناشر بترك جمالي في عهدته، ومضيتُ قدماً بخُطىً سريعةٍ يرافقني مُقبل وعلي وأحمد و محمد. فدخلنا مجرى نهر الخُريبة وكانت الشمس ساطعة بشكل رائع.

بدت الوديان من دار شيبان حتى الخُريبة غنيّةً بالنبات؛ وتغطي الغاباتُ الكثيرة ضِفافَ الأنهر؛ والحقول مزروعة بالذرة وبالحِنطةِ وبالجاودار(الزؤان، أو الشَّيْلم)، وبالقمح والشوفان. كما أن سهل الخُريبة خَصبٌ جدّاً : فلم نعد نرى تلك السنط السَّمِجَة المحرومة من الأوراق، ذات الأشواك الطويلة البيضاء، والأغصان المائلة نحو الجذع بانتظام، فتبدو كمراكب المدافع

ووَجدتُ هنا الأشجار والنبات التالية (أذكرها بحسب تدوينها في كُتَيِّبي): الغولاك، الغريش، التشرع، البرسوم، الدفران، العباب، الحُميدة، الرديف، البقل، الفوسة، العدين، القشوة، ضُرات الكلبة، الجدمال، البنج، البرد، السِرة، الدِجر، عين البقر، البيكمام، البنكم، المِصلحة، الرن، العودة، القلقل، الرائعة، السُنة، السرف، الخنس، التوكة، الصور، الطولق، البلس. كما وتكثر المداح، والخامة، والحِلبة، والعتِل

رأيت أيضاً العديد من الطيور : الحمام والقمري والجواثم والغربان والصقور والنسور

مِن على قِمّةِ جبل "التوبيات" (أي الساطع)، المنفصل عن جبل "السِردِل" (أي العالي والضيِّق)، رأيتُ قُبّة السيد حسن (سيد المغرب والجزائر وتونس)، وهو وليٌ من الصالحين الكبار، حسب ما قالهُ لي عربُ اليَمن، وذو شفاعة كبيرة عند الله خصوصاً للحصول على المطر خلال فصل الجفاف. كانت تلك القبّة الأولى التي أراها في اليمن، والآن يمكنني القولُ إني رأيتُ القليل من تلك المباني حتى وصولي إلى صنعاء. هذا فرقٌ كبيرٌ ومهمٌّ بين هذا

البلد والمغرب أو الجزائر: فالصالحون هناك أكثر من القانطين، والقبب الموزّعَة في كل مكان أكثرُ من بيوت الفلاحين.

"الخُريبة" (أي النهر المُخَرِّب) هي سيلٌ من السيول الكثيرة، والسيل يعطي اسمه للبلد الذي يمرُّ به. وهذا البلدُ دُوَيْلةٌ بحدِ ذاتها تحت حكم عامر البيشي، وداره مبنيّة على قِمَّةِ تلّة ترتفِع فوق الضفَّةِ اليسرى للنهر.

وكنّا على عجلةٍ من أمرنا، نركب الدواب راكضين، فما سمح لي ذلك بالتوقف للتعرّف ولإلقاء التحيّة على عامر البيشي، الذي أصبح فيما بعد صديقاً عزيزاً وقيّماً خلال رحلاتي التالية.

طريق للقوافل، بين جبال اليمن

وأصبحَ الوادي مع تقدّمنا أكثرَ ضِيقاً ومائلاً إلى الصعود.

وصلنا عند الظهرِ إلى أسفلِ جبلِ "الخُريبة"، الذي علينا أن نجتازهُ. أشار مقياس الضغط إلى 685 ومقياس الحرارة إلى 23 درجة و 4/3. وصلنا بعد نصفِ ساعةٍ إلى قمة المعبر ("نقيل الخريبة")، فأشارَ مقياس الضغط إلى 643، ومقياس الحرارة إلى 19 درجة و4/3، فنستنتج من ذلك أن ارتفاع المعبر عن الوادي 230 متراً، وحوالي 1390 متراً عن سطح البحر، كون الوادي على ارتفاع 1160 متراً.

ما أنْ صعدتُ على معبر الجبل حتى تَراءَى أمام عينيَّ سهلٌ واسعٌ يسمى "بلادُ الشاعري" (أي البلاد المغطاة بالنبات) محاطٌ بجبالٍ شامخة وكلُّه مزروع. هنا يبدأ أولُ أنجادِ اليمن.

وصلنا عند الثانية ظهراً إلى بلدة "الجليلة" (أي الكبيرة والعظيمة) عند دار عبيش صالح الذي كان ينتظرني منذ أيامٍ . وبعد تحيّةٍ ودودةٍ أراني صناديقي المصفوفةِ بانتظامٍ وبحالةٍ ممتازةٍ، واستضافني في منزلِه.

V

الجليلة- عبيش صالح وعائلته القوافل من عدن إلى صنعاء - أنا مضطر لأن أعمل كطبيب فأتدبر أمري بشكل جيد - الأمراض الشائعة - الصيد - القبيليون - طباعهم ، وتعليمهم ، وعاداتهم وتقاليدهم- النساء القبيليات- تغنجهن- شغفهن لأن يعجبن الرجال- الزواج- إنه عقد بسيط - كيف يتم - احتفالات الزواج- لحظة حرجة - الأبناء - الختان- رحلة إلى قعطبة- زيارة إلى القائمقام مصطفى بك - ليلة رهيبة - الرجوع إلى الجليلة- البئر والنساء- اهتمام مُقبل- مصبغة للنيل

كان استقبال عُبيش، كما قلت من أحَرّ الاستقبالات. فَدَعانا بسرعة للدخول إلى غرفةِ الضيوف، وهي الديوان، حيثُ قَدَّمَ لنا القهوةَ والمداعة لكنه لم يُجلس معنا إذ أنَّ شهر رمضان الكريم ما زال قائماً.

وهو من أولاد صالح، ولذلك سُمِّيَ عُبيش بن صالح أو ببساطة عُبيش صالح، كان شيخ أو رئيس الجليلة، وهي قرية مهمة والأكثر سكاناً من الحوطة إلى هناك.

كانت الجليلة، المَلفوظة الغليلة من قبل القبيليين، قبل 1870، من ممتلكات عامر البيشي من الخُريبة، والتي أصبحت، بعد غزو بلاد الشراعري من قبل القوات العثمانية، نقطةً محايدة ما بين البلاد المُحتَلّة من الأتراك وتلك المُستقلّة تحت حماية حكومة عدن.

لذلك كان عُبيش يُعتبر بمثابةِ أميرٍ صغيرٍ.

تقعُ الجليلة على هضبةٍ مرتَفِعَةٍ حوالي مئة متر عن الأرض. بيوتها مرتفعة جداً ، تتألف من أربع ة طوابق مُشيَّدة تشييداً جيداً من الصخرِ المُقَطَّع، وهي خالية من أية زخرفة

وتتميز بالبساطة؛ ولها درج من الحجارةِ مصفوف بطريقةٍ جيِّدة. الغرف بأجمعها مُ بيَّضة ولا بأس في وسعها، كما أن السقف من الخشبِ الطبيعي، مطلِيّ بالجص. تُزَوِّدُ العديد من النوافذِ الصغيرة الغرفَ بضوءٍ خافتٍ وظريفٍ. تغطى الأرضُ ببساط أو سجّاد من الصوفِ الأسودِ. نظافةٌ تامَّةٌ تسود جميع أرجاءِ البيوت.

نجد أيضاً في الجليلة جامعاً صغيراً، وهو البناء الوحيد المُبيَّض أيضاً من الخارج. فهذا الجامع، المنسوب إلى سيدي (جلال)، يعطي اسمه للقرية.

من فوق سطح دار عُبيش، تمتَّعتُ برؤيةِ منظرٍ خلاّب. فكان يمتدُّ من الجهة الشمالية والشمالية الشرقية، سهلُ بلاد (الشاعري) الخصب، وتمتد بعض التلال الصغيرة في نهايته التي تعلو تدريجياً لتؤلف سلسلة مرتفعات بلاد الشعيب (أي بلاد الأوهاد).

نحو الشرق، تمتدّ سلاسلجبال حرير (أي بلاد تجار الحرير) وجدّ الشاعري(المُعنى به قمّة أو رأس الشاعر)ي

تطلُّ قريبةً جداً من ناحية الجنوبِ جبالُ الرويس (أي جبال الجزارين) وجبال السكون (أي المكان الساكِن) وجبال (الحود)، المُسمّاة هكذا إذ لديها شكل حَدب الجَمَل.

نحو الغرب يعلو جبل جحاف العالي (أي جبل الجداول)، كما تبرز من الجهة الشمالية الشرقية، في الأفق الأزرق الرائِع، جبال (مريس) (حيثُما تُرَكِّدُ المياه) وجبال الهاجوم (أي الجبل الشديد الارتفاع).

الجليلة منطقةٌ مرفأ تتوقَّف عندها القوافل المُحَمَّلة والمسافرة إلى اليمن أو تلك التي ترجع منها إلى عدن.

كان عُبيش صالح عربيًّا (قبيلي) ممتازاً، ويَتَمَتَّع بخفة دم حقيقية. ليس بطويل القامة لكنه متجانس البُنيةِ وذو طابعٍ صادق وصريح، لذا كان معي مضيافاً رائعاً وصديقاً طيباً. فقد خصص لي في داره غرفة صغيرة لكنها نظيفة، حيث استطعتُ ترتيب جميع أغراضي وبالأخص أدوات الاختبارات العلمية.

في الصباح كان يُرسلُ لي ولمُقبل، الخبزَ والعسل، ثم الحِساء وا للحم مساءً، والقهوة ثلاث أو أربع مرات يومياً . أعارني واحدة من مداعاته الأنيقة كما أهداني كمية من التبغ. لم يرضَ أبداً بأية هدية بل على العكس، كان منهمكاً بتلبيةِ حتى أصغرَ طلباتي، وكان يَتَرَدَّدُ عليَّ من وقتٍ إلى آخر، سائلاً عن أدنى حاجاتي. كما نَعِمَ البغلُ والحمارُ عندهُ بعنايةٍ فائقةٍ.

فضلاً عن كونهِ شيخ الجليلة، وهو منصبٌ يَدُرُّ عليهِ مبلغاً يعادل ثلاثة آلاف ليرة إيطالية سنوياً بحُكم الضرائب التي يدفعُها أتباعهُ ومساعدات الحكومة الانكليزية، كان عُبيش صالح أيضاً المُتَعَهّد العام للقوافل التي تسافر من عدن إلى صنعاء وبالعكس. لديه أربعة إخوة : سعيد، أحمد، ثابت وناصر، وجميعهم متزوّجون. ويمكث ناصر معظم الوقت في عدن حيث يُمثّل هناك أخاه؛ ويعيش أحمد في (السدة)؛ أما سعيد، الأكبر سِنّاً لكنه كان شبه أبله، فهو فلاح فظ، وكان ثابت، الأنيق والمتزوّج من امرأةٍ جميلة، ضابطاً في الجمارك التركية.

أي شخص يريدُ الذهابَ من عدن إلى صنعاء، يجب عليهِ الاتفاق مع ناصر في عدن، أو أحد أعوانهِ، إن كان هو غائبا، للحصول على عددٍ كافٍ من الجمال حتى صنعاء تُدفعُ في عدن مصاريف النقل للوصول إلى عاصمة اليمن إذ أن السعر الواجب دفعهُ لا يُحسَب بعدد الجِمال إنّما بوزن البضاعة المُحَمَّلة . وهذا عادلٌ جداً.

في الواقع، حتى في اليمن، جِمال الصحراء غير قادرة على اجتياز الجبال وجمال الجبال غير مؤهلة للسير على الرمال .

فالجمال التي تذهب من عدن إلى الجليلة تكون أقوى من تلك التي تجتاز الجبال وبالتالي، يمكنها حمل أثقال أكبر، خصوصاً وأنَّ الطرقات هناك بحالةٍ جيدة ومنبسطة أكثر.

أما في الشق الثاني، من الجليلة إلى (السَّدة)، فالجِمالُ أقلُّ قوَّةً ومن ثمَّ عليها اجتياز جبال شاقة جدا، فيتطلَّب ذلك عدداً أكبر من الجمال لنفس الحمولة.

وذاك هو أيضاً الحال في الشق الأخير من الرحلة أي من (السَّدَّة) إلى صنعاء.

الأربعاء 26- نجحتُ في صنع سريرٍ صغيرٍ في غرفتي المتواضعة بواسطة الفرش والأغطية؛ فالتعبُ من السَّفر الشّاق والرفاهية أخيراً للنوم على السرير، جعلاني أقضي ليلةً هانئة ومريحة ممَّا أعطاني نفحَة نشاط في الصباح التالي.

في الصباح الباكر أتى عُبيش وأبوه صالح، وأقمنا معهما وبحضورِ مُقبل "جلسة" في غايَةِ الجِدِّيَةِ . فخوفاً من سرقةِ صناديقي والمال الذي بحوزتي على طريق حردبة، كنتُ كما ذكرتُ سابقاً، قد بعثتُ الصناديق إلى الجليلة ولم أحمل معي سوى القليل من المال لسد الحاجاتِ الضرورية خلال السفر، حاملاً معي في نفس الوقت أوراق اعتماد مالية لدى بيت الحاج حسن الرَّحبي في صنعاء.

لذلك وجدتُ نفسي مع هذا القليل من المال عند وصولي إلى الجليلة، في الوقتِ الذي كنت أجهل أن الجمارك التركية تتمركزُ في مدينةِ (قعطبة) المجاورة، وهناك يتوجَّب عليَّ حتماً دفعُ ريالات كثيرة لتمرير كل أغراضي.

اتَّكلتُ بالكامل على حِكمةِ وخبرةِ عُبيش الذي أصر على الذهاب إلى (قعطبة) واستشارة القائمقام عن إمكانيةِ إعفائي من دفع ضريبةِ الدخول، كوني رحالة أوروبياً.

في هذه الحالةِ أصبح باستطاعتي المغادرة فوراً إلى صنعاء . وإن لم يُسمح لي بالمغادرة، لكان عليَّ الانتظار في الجليلة حتى عودة المبعوث، المرسل خصيصاً إلى قنصلنا رولف لاطلاعِهِ على الأحداثِ، ومعه دراهم أو رسالة توصية من حسن علي بك، القنصل التركي في عدن.

قررنا إذاً المغادرةَ صباح اليوم التالي إلى (قعطبة) مع أنَّ عُبيش كان مُنشغِلاً جداً في ذلك اليوم.

في تلك الأثناء، كان الأب صالح، وهو عجوزٌ طيِّبٌ، لكنه ثرثارٌ كبيرٌ، يصرُخُ باستمرار، لكنه يترك الجميع يتصرف كما يحلو لهُ. في ذلك النهار، أبدى دهشَتهُ وتعجبه لأنني غير مُسلم وكوني في نفس الوقت رجلا ذا مظاهر وآداب طيبة (على الأقل في نظره)، فقال لي : "اتبع الدين الإسلامي، وبعدها نلتقي في الجنةِ"، وبقي يُرَدِّدُ هذه الدعوة مراراً وتكراراً.

مع انتهاء ذلك "الاجتماع" الهام، أتت زوجةُ عُبيش حاملةً إليَّ ابنها الصغير قاسم، المُصاب بالإسهال وانع دام الشهية . فأعطيت قاسم نيترات البسموط الذي ما لبثَ أن أعطى مفعولاً عجيباً؛ إذ أن الصغير المسكين شعر خلال النهار بالجوع ولم يُصَبْ بالإسهال . فأصبحتُ بعدها في نظرهم طبيباً ماهراً، وانتشرت على الفور أصداء هذا الانجاز في أرجاءِ الجليلة، وتسارعت النساء والشا بات وحتى الرجال للقدوم إليّ واستشارتي.

في جميع البلادِ الإسلاميَّةِ، يُفترض- في نظر العرب- على الأوروبيُّ أن يكون مُلِماً بكلِّ شيءٍ بمجرد أنَّهُ يُحسِنُ القراءةَ والكتابة. لكنَّ العربيّ جاهلٌ، فهو يَعتقدُ أن كل معارف البشرية يكمن أن يحتويها كتاب واحد، ومتى ما استطاعَ رجلٌ قراءةَ تلكَ الصفحاتِ فلا بدَّ أن يعرفَ كلَّ شيءٍ . فلذلك كنت في عيونهم طبيباً أيضاً، لأنني كنت أعلمُ طرقَ الشفاء.

وهذا الاعتقاد عميقٌ عند هذه الشعوب إلى درجة أن ذلك الأوروبي، إن أراد إرضاء ضميره وعدم الدجل عليهم وقال لهم

إنه في الواقع ليس طبيباً، لما صدقوا قوله هذا ولاعتبروه ناكراً للجميل والضيافة التي حَظِيَ بها ورافضاً فعلَ الخيرِ لأنهُ بكلِّ بساطةٍ لا يريد فعله.

فوجب عليَّ إذاً القبول بالأمرِ الواقع والرضوخ لاعتقادهم أنني طبيب.

كان بحوزتي بعض الأدوية وبعض كتب الطبِّ العائلي، وعندما كانت معرفتي تساعدني على التعرُّفِ على أي مرضٍ أصاب أحدهم وقد جاءَ المريض لاستشارتي، كنت أصفُ لهُ الأدوية المناسبة؛ وعندما يستحيلُ عليَّ التصرف، كنت أعطيهم الكثيرَ من الماء المُحَلاّة مُضيفاً إليها إما صبّاراً أو أعشاباً مختلفة، أو حتى أحياناً بعضاً من الكونياك بحسبِ الحالات.

وبالنسبة لمرضايَ، كانت مُجَرَّدُ فكرة الحصول أخيراً على دواءٍ من أوروبيٍّ مُتعلِّمٍ، تؤثر كثيراً على معنوياتهم إلى درجة تتأثرِ بها أجسادِهم إيجابياً أيضاً، وقد حَصَلَ كثيراً أن جاء أناس إليَّ ليشكرونني، وكانوا في السابق يشكون دائماً من توَعّكات، مؤكدين أنهم أصبحوا الآن بأفضلِ حالٍ.

ويمكنني القول إنني مع السفر المتكرّر واضطراري لممارسة الطب ولمراجعة كُتبي، أصبحتُ مع الوقت قادراً على مزاولةِ مهنةِ الطبيب المُتَنَقّل بشكل لا بأس به.

أما الأمراض التي عالجتها أكثر في الجليلة فكانت الزُحار والمَغص والحُمّى وبحاح الصوت. وكانت هناك فتاة تعاني من انتفاخ وتصلّب في الأعضاء، فأعطيتها القليل من دهن زئبقي مخفف بشحم أو زبدة لتَدْهن به كلَّ جسدِها.

بعد ظهر ذلك اليوم، أقفلت صندوق الأدوية، وأرجأت إلى الغد تفقد أحوال مرضايَ، وذهبت للصيدِ، والبندقية على كتفي ، يرافقني خمسة أو ستة من الجليليين الأقوياء.

اصطدت العديدَ من الحمامِ (أو الجولبة) والعصافير، فأُعجِبَ العرب بدقَّةِ التصويباتِ، وكانوا يجلبون لي كل الطرائد

بفرح. وفي ذلك النهار، مثلما لُقّبتُ بالطبيبِ الماهرِ من قِبلِ هؤلاء القبيليين، مدحوني أيضاً بأنني صياد ممتاز.

يَلزمُ القليل القليل للتَمَتُّع بالسمعة الحسنة من قبل شعبٍ عظيمٍ ولكنَّهُ أيضاً جاهلٌ في الوقتِ نفسهِ!

في اليمن يطلق على المزارعين والفلاحين اسم "قبيلي"، أما في مِصْر فيُلقّبون بـفِلاّحين.

يؤلف القبيليون النسبة الأكبر من سكان اليمن، ويسكنون في القرى، في بيوتٍ من حجرٍ إنهم يتمتعون بالذكاء الحادّ، ويفهمون العديد من الأشياء ويحفظون بسهولة كلّ ما يرون ويسمعون ولكن لسوء الحظّ أو قلّة العناية، أو الاثنين معاً، فإنهم لا يُكَلّفون أنفسهم عناء تذكُّر تلك التعاليم أو حتى التمعن فيهاوهم ذوو خيال سريع التأثر، وتَجيْشُ فيهم أحاسيس التنافس : فإن أخذهم الحماس و الشجاعةِ فبإمكانهم القيام بأعظم الانجازات

الشيخ مقبل الدغيش، زعيم قبيلة بني الحارث وابنه غانم، من قبيليي وسط اليمن

كما أنهم يتكيَّفون مع شتّى أنواع الأعمال : فهم مزارعون، وحمالون، وحدّادون، ونجارون، وبناؤون، ونساجون، وصبّاغون، وفحّامون، وتجّار.

يكون القبيلي في طفولته مندفعاً مَرِحاً، وحتى خفيف الدم، ولكن ما أن يصل إلى سنِّ البلوغ حتى يتخذ ذلك الطابع المتحفظ والجاد الذي يُميِّز أغلبية المسلمين . إنه دون شكٍ دينهم الذي يَحُثُّهم على تلك التغيُّرات الجذريّة.

يظهر الرجل القبيلي، حتى إن كان يلبس خِرَقاً، بكبرياء ووقار، بل وبنوع من التعالي؛ فيقف باستقامة تامة، ويمشِي بِخِفّة، وتَتَّسم حركاته بالرجولة الحقة . وتبقى نظراته جدية، وملامح وجهه تميل إلى القسوة. وهو لا يُحَرِّك ساكناً ولا تَظهر أي من انطباعاته الداخلية على وجهه.

يكون عادة قليل الكلام، وينطُقه، على ما يبدو، بعد أن يتأمل فيه. وصوته عالٍ وحادّ، ويتكلّم بنبرةٍ قوية، إلى درجة تحسبه يتشاجر مع أحدٍ، وهو في الواقع يتكلم معه فقط.

يتدلّى شعرهُ الطويل على كتفيه ويغطيه بعمامة من اللون الأزرق الغامق، ويدوّر حولها حبلٌ من اللون الأصفر الضارب للأحمر وهو فتيلُ البندقية. ولباسه من القطن الأبيض، يَشدُّه على الخصر، وتلفُّ كتفيه قطعةٌ من القطن الأزرق. يُعطى ذلك اللون الأزرق للقماش بواسطة صبغة النيل، وهي لونٌ غير ثابت، فتصبح بشرة القبيلي، التي هي فيالأصل ذات لون طبيعي أسمرَ ضارب للأحمر، تصبح مائلة إلى اللون الأزرق، فيعطيه ذلك الانطباع بأنه مخلوق من الحديد المنصهر

كما إنه يلبس الجبّة وهي قميصٌ من دون أكمام، مصنوعٌ من جلدِ الخروفِ يشكل صوفه البطانة؛ وبما أنه لا يحتوي على الأزرار تبقى الجبّة مفتوحة على الصدر. ولا يلبس الجوارب أو السراويل، ويستعمل أحذية كتلك التي يلبسها البدو.

يتميَّز القبيلي، كالبدوي، بالبساطةيعطي احتراماً كبيراً للخبز؛ ففي اعتقاده أن الخبز، الذي يشكل أساس غِذائه، متصل بشدةٍ مع

مفهوم الوجود البشري، لدرجة أنه يسميه عَيش (يعني الحياة) أي ذلك الوقت الذي يمر من الولادة حتى الموت. لذلك لا تُرمى ولو قطعة صغيرة منه، وأن صادف أن وجده أحد في طريقهِ حمله بعناية وقبّله ثلاث مرّات رافعاً الشكر لله، ووضعهُ في مكانٍ لا يمكن تدنيسهُ، وحيث يمكن استهلاكه، ولو حتى من قبل كلب

يفتخر العربُ بضيافتهم، و يَنُصُّ الدين الإسلامي على الصَّدَقة، فهي تُعتبر واجبٌ مطلق على المؤمنين الحقيقيين، وكذلك الحال بالنسبة للضيافة إذ تُعتبر عندهم فضيلة كبرى. بناءً على ذلك، يستفيد المسافرون، أيًّا كانت دياناتهم، من حسن ضيافتهم ورحابة صدورهم.

وإن كان الجهلُ سائداً في تلك الب لاد، فمن الخطأ الكبير تحميل الدين الإسلامي ذنب كلّ ذلكَ. ففي القرآن الكريم، عديدةٌ هي الآيات التي تُكرِّمُ العلوم وتحثُّ على تعلمها. فالجميع يعلمُ ما أنتجه الخلفاء في بغداد والحضارة العربية في أسبانيا . فأسباب الجهل عند العرب، هي نفس الأسباب التي تجعل من فلاّحي إيطاليا الجنوبية وإسبانيا واليونان وسائر البلدان جهلة مثلهم أيضاً. ولا أحد يجرُؤُ على ا لقول بأن سبب كل هذا يعودُ إلى الديانةِ المسيحية تحديداً.

يستيقظ القبيلي كأيِّ عربيّ آخر، في الصباح الباكر، لأنهُ من الواجبِ على كلِّ مسلمٍ صالحٍ أداء فرض الصلاة قبل بزوغ الفجر. وبعد التدخين مطوَّلاً واحتساء كمياتٍ كبيرة من فناجين القهوةِ، يتَفَرَّغُ كلُّ واحدٍ منهم إلى أعماله أو مهنته . ويتناولُ وجبة الغداء عند الظهر، وبعدها يأخذ قيلولة صغيرة ثم يتعشى مساءً.

سيدي محمد ابن سيد عبد الله المؤيد بالله،
أحمد ابن علي اليمني وأبوه علي اليمني ابن اليمني،
من قبيليي وسط اليمن.

ومَن كان مزارعاً مِن القبائل، يغدو باكراً إلى الحقل، ولا يعود إلا متى حلَّ المساء وتهتمُّ نساء العائلة بتأمين الطعام لهم إلى الحقل

تَتَمَتَّع النساء القبيليات بكامل الحرية، ولا يلبسن أبداً الحجاب. وعادةً ما يتزوج الرجل عندهم بامرأةٍ واحدة، وفي الحالة النادرة التي يستطيع فيها رجل غنيّ أن يتمتع برفاهيَّة الاقتران بزوجتين أو أكثر، يجب عليه شراء منازل أخرى وذلك حسب عدد الزوجات. فالنساء القبيليات لا يُحببْنَ تأليف عائلة واحدة مع غيرهن ! وهذا أيضاً من نتائج تلك الحرية الكبيرة المُعطاة لهُنَّ.

ونساء القبيليين متوسطات القلة، ويتَمَيَّزن بأناقتهنَّ، وتكامل أشكالهنَّ. ولأنهن يشاركن في أعمال وتعب الرجال، فإنهن يتمتَّعن بنفس بُنيتهم الجسدية القوية، إلى درجة أنهنَّ في بعض الأحيان يتَفوقنَ عليهم في النشاط . عمودهنَّ الفقري مُقَوَّس للخلف، وأعضاؤهنَّ منتظمة ومستديرة، كما أن الأيدي والأرجل صغيرة وممتلئة بعض الشيء . ولهن عيون سوداء عميقة، مكللة بظلِّ حواجب طويلة وشديدة السّواد؛ وهن صاحبات نظرات مثيرة وحيوية إلى درجة أنه من الممكن أن تجعل نساءَنا الرومانيّات، اللاتي يمدحهن الصحافيون كآلهات الإغريق، تتملكهن الغيرة منهن . أضف إلى ذلك الأن ف الصغير والرفيع، وتلك الشفاه الممتلئة، والأسنان الناصعةالبياض، التي تصنع تميزاً ظريفاً مع لون وجوههنَّ الضارب للسمرة. وصدورهن ممتلئة ومتزنة، ولم ترضخ لتلك الاصطناعات الغبية الزائفة للتغنج الأوروبيويتمتعن بمشيةٍ أنيقةٍ وواثقة؛ وبرخامة وعذوبة في أصواتهن، فتدخل إلى القلب مباشرة، وتمتزج جيداً مع التعابير الغرامية لوجوههن الساحرة بمعالمها الحنونة. عندما يُوجّهن الحديث إلى المحبوب، يخاطبنه قائلات: يا عيني، يا قلبي، يا روحي، وينادِيْنَه دائماً يا سيّدي، يا أخي.

تعتني نساء القبيليين بمظهرهن كثيراً. تتملكهُنَّ رغبةٌ كبيرة في لفت الأنظار وإثارة الإعجاب خصوصاً إن كان الطرف الآخر أجنبياً، فيخترعن لذلك ألف طريقة عجيبة . وهن يصبغْنَ بالأسود أطراف جفونهنّ بالكُحل الذي يأتي على شكل مسحوقٍ أسود، يحفظْنَه في أكياسٍ صغيرةٍ من الجلد، أو في آنيةٍ فضية، ويَقُمْنَ بوضعه على الحاجب بواسطة قلمٍ فضيٍّ أيضاً.

كنتُ قد أهديتُ إلى زوجة ثابت، التي كنت قد قلتُ عنها لـمُقبل:"قد ما نشوف فيها، وهي تهالي في قلبي"(أي: على قدر ما كنت أراها، على قدر ما ازداد الإعجاب في قلبي)، قلمَ حبرٍ

صينيٍّ، فاستعملته لصبغ الحواجب، ورسم بعض الشامات على وجنتيها.

تقوم النساء الأخريات أيضاً برسم الشامات على الرقبة والصدر بواسطة الكحل . ويصبغْنَ الأنامل وراحة اليد وباطن الرجل والأظافر بالأسود أو الأحمر مستعملات أوراق الحِنّة التي يبللنها بالماء بعد تجفيفها وتحويلها إلى مسحوقٍ لتصير عجينة، بعد ذلك يقمْنَ، بِتفننٍّ كبيرٍ، بوضعها على بشرتهنَّ في المساء ليبقى منها في الصباح التالي طَبعٌ في غاية الجمال. كما يَضعن حول الرقبة، عجينةً من الطحين للتخفيفِ من جسامة نسيج هذا العضو فيصبح بذلك أكثر اتساعاً وانتفاخاً . ويَقمنَ أيضاً بوشم الذقن، والسواعد، واليدين، والساقين، والصدر والرجلين بشكل خفيف . يُشبه لباسهنَّ كثيراً لباس البدويات، لكنهن يلبسنَ دائماً سراويل ضيِّقة من القطن الأزرق، ومُطرَّزة في أسفلها بالأحمر أو بالأصفر أو الأخضر.

في كلَّ أنحاءِ اليمن، تصل النساء إلى سنِّ البلوغ مع اكتمال العاشرة أو الحادية عشرة، فغالباً ما نراهنَّ أمهات في الثانية عشرة، وجدّات في الخامسة والعشرين، وأمهات الجدات عند الثامنة والثلاثين، وجدات الجدات عند الخمسين؛ وليس من النادر رؤية بعض النساء مُحاطات بأبناء أحفاد الجيل الخامس . فهنَّ إجمالاً كثيرات النسل، والعقم في اليمن أيضاً شيء معيب، لذلك تلجأ النساء اللاتي لم يحظيْنَ بالأمومة إلى الخرافات وما هو أسوأ من ذلك للتوصل إلى مبتغاهن.

النساءُ في اليمن لا يتلقيْنَ التعليم، فلم ألتق بواحدةٍ تعرف القراءة والكتابة.

يُحَرِّمُ الإسلام بشدَّة ممارسة البغاء، مثلما تُحَرِّمهُ أيضاً ديانة موسى والمسيح. ومع كلِّ هذا، فإن النساء العربيّات لسْنَ بكل هذه العفة بل على العكس، ولكنهن يُجِدْنَ حفظ المظاهر.

علماً بأن الدين الإسلامي يسمحُ للرجل بالتزوج من أربع زوجات شرعيات، أو بعبارةٍ أخرى يُقر بنظام تعدُّدِ الزوجات، نرى أنَّ البدو والقبيليين لا يقترنون سوى بامرأةٍ واحدةٍ. ويُعتبرُ الزواج عندهم واجباً أخلاقيّاً، والتهرُّب منه يعد عيباً كبيراً، ويجب على كل رجل الزواج متى أصبحَ أهلاً لذلك، أي متى بلغَ من الثالثة إلى الخامسة عشرة من العمر . وهذا العرف متجذر بقوة فيهم إلى درجة أنهُ يَستحيل على الأعزب المكوثَ في بيتٍ لا يكون معه على الأقل بعض الجواري، وألا وجبَ عليه المبيت في السمسرة.

يَنتابُ الأهل شغفٌ كبيرٌ بإكثار النسل، لذلك يحاولون تزويج أولادهم في أسرع وقتٍ.

حين يطلبُ الرجل فتاة للزواج منها، يحتاج إلى موافقة والدها في حال لم تكن بالغة، وموافقتها الشخصية أيضاً إن كانت بالغة. بعد ذلك يُبرم عقدٌ خاص بين الطرفين، إذ أنَّ الدين الإسلامي لا يجعل من الزواج طقوساً دينيّة ولا يَقيّده بالإجراءات المدنية، إنما يكفي موافقة الزوجين وحضور شاهدين فقط ليكون العقد شرعيّاً

"تْزَوّجَك" (أي أقترن بك، أتزوج بك) تقول الفتاة إلى الرجل الذي طلب يدها . "تْقبلِك" (أي أقبلُ بكِ) يجاوبها عندها زوج المستقبل.

بعد ذلك يتم التطرق إلى مسألةِ المَهرِ الذي بعكس الحال عندنا لا تعطيه المرأة لصالح الزوج، بل على العكس ينصُّ الشرع على أن يدفعه هو للزوجة . وهذا القانون عادل جدًّا، خصوصاً في مجتمع يسمح الدين فيهبالطلاق، فيكون المهر هكذا بمثابة تأمين أو تعويض للزوجة المُطلَّقة . يُحسب عادةً المهر بالريالات (العملة الفضِّية الوحيدة المتداولة في اليمن) أو الجمال أو البضائع، ويعتَمِد الحساب على ثراء الزوج وحتى على ثراء عائلة الزوجة، فيتراوح بين مئة حتى ألف ريال(أي من 500 إلى

5000 ليرة إيطالية). يُسَلَّم المهر إلى أهل العروس، فيحتفظون بالثلثين في حالة الطلاق، تاركين لها الثلث الباقي لتكاليف تجهيزات العرس.

بعد مَضيِّ ثمانية أيام على عقد القران، تُقام حفلات الزواج (المُسَمّاة الزفاف). يركبُ الزوجُ حماراً أو جملاً، مُ تأنِّقاً بأبهى ثيابه وأكثرها فخامةً وثراءً، ويحيط به كلّ أقاربه الرجال وأصدقائه وسكان قريتهِ المُتَمَيِّزين هم أيضاً بملابسهم الغنية، ويضعون باقات هائلة من الورود أو من الأعشابِ المُعَطَّرة في عمائمهم، ويحملون بنادقهم، فينطلقون سيراً على الأقدام، في موكب كبير من بيت أو قرية العريس إلى دار أو قرية العروس. يسيرُ في الطَّليعة الموسيقيون الذين يقرعون الطبول من دون توقف ويعزفون المزمار بشكل مزعج غير متناغم.

ومتى اقتربوا من قرية أو بيت الزوجة، تقدم أهلها وسكان قريتها لملاقاة موكب الزوج، وهم يكتسون بدورهم حلّة الحفلة، وفي طليعتهم الموسيقيون.

ويبدأ الهرج والمرج متى شارف الطرفان على الالتقاء، فتَتَعَدَّدُ الطلقات النارية في الهواء، وتبدأ رقصة الجنبية (أي الخنجر)؛ فهم يتقدمون أربعاً أربعاً، يتراجعون، يرقصون، ينحنون، حاملين دائماً الخناجر في أيديهم، في الوقت الذي تع لو فيه أصداء الطبول والمزامير والطلقات التي تصدر من كل جانب مشكلةً ضجيجاً جهنَّمياً.

بعد انتهاء هذا المهرجان المُمَيَّز جدًّا، يَسيرُ العريس مع أهله نحو عائلة العروس، فيقبل أفرادها ثيابه ويديه.

في هذه الأثناء، تخرج العروس مُحَجَّبةً بالكامل من منزلها، يصطحبها والدها، أو أخواتها، أو وليّ أمرها، أو أقرب الأقرباء؛ فتَتَقَدَّمُ ببطء نحو العريس الذي يحملها على صهوة جواده ليعودوا جميعاً إلى قرية أو دار الزوج . وعند وصولهم، يُسَلِّم العريس

الزوجة التي ما زالت مُحَجَّبة لنساء المنزل، ويذهب مع الآخرين إلى المسجد.

بعد الانتهاء من الصلوات، يُقدِّمُ الزوج مأدبة غداء فاخرة للجميع، أما نساء الدار والمدعوّات الأخريات فيأكلن في غرفة أخرى.

مع انتهاء الوليمة وانصراف الضيوف، ينسحب الزوجُ إلى حُجرةِ زوجتِهِ و ... يقوم بواجبه الذي يتبينُ من خلالهِ بأن الزوجة كانت عذراء، إلا في حالة كونها أرملة أو مُطلَّقة.

فعند العرب الميزة الأساسية، أو بالأحرى الميزة الوحيدة المطلوبة من فتاة شابة للزواج منها، هي عذريتها الفعليَّة . فيرتهن شرف الفتاة عند الأهل والناس عموماً على هذا الأساس، ومن الطبيعي أن يكون هم الزوج بتلك المسألة بالغاً جدًّا . لذلك من الضروري أن تعطي الزوجة براهين واضحة ومرئيَّة على عذريتها، ليس للزوج ولعائلته فقط، بل وللأصدقاء والمعارف أيضاً. كذلك لم يكن فض البكارة عند العرب محاطاً بتلك الهالة من الحِشمةِ والخصوصيَّة، ففي الواقع يكاد أن يشاهدَ الناس ذلك، إذ يُطلبُ منهم تأكيد نتائجه.

تقام تلك العمليَّة البربريَّة بحضورِ الأمهات والنساء الحميمات للعائلة. ويقوم الزوج بفض البكارة بواسطة إبهام اليد اليمنى المغطى بمنديل أبيض رقيق للغاية، ويفعل هذا بوحشية كبيرة، مستوحاة فقط من أقسى وأجبن أنواع الغيرة.

تُقَدَّم قطعة القطن الأبيض، المُلطَّخة بدماء الصّبية الضحية، إلى الأهل الذين يُظهرونها على جميع الأصدقاء والمعارف. وإن حصل خطأ أو حادثة ما، أو كان هناك مرضٌ أو عَلَّة قد أصاب الفتاة منذ الولادة حال دون إعطاء البراهين عن عذريَّتها الفعلية، فإن المسكينة تُطرد على الفور من قبل الزوج الذي يسترجع المهر من أهلِها.

لا تتواصل العروس مع الزوج إلا بعد ثمانية أيام على الدُخلة، حيث تمضيها في منزل أبيها.

وعلماً بأنه لم يسبق أبداً أن حدث لعروسٍ شابة، سواء كانت من القبيليين أو من البدو، أن لجأت إلى الحيلة للحيلولة دون أن يطردها زوجها، لأن البدوي أو القبيلي يستطيع بسهولة مغازلة الفتاة، فنساؤهم لا يلبسن أبداً الحِجاب، فإني سوف أرجئ هذا الحديث لاحقاً.

تغمرُ ولادة الطفل العائلة بسعادة جَمَّة. فتَكِنُّ الأمهات حناناً ورحمة وانتباهاً خاصاً تجاه أبنائهن، ويرضعْنَهم بأنفسهن، إلا في حالة تعذّر ذلك، لنقصٍ في الحليب أو مرضٍ في أثدائهن؛ وتعتبر المرضعة فرداً من العائلة.

تحظر الشريعة الإسلامية فطام الطفل قبل بلوغه العامين.

الأطفال القبيليون لا يُزعجون أمهاتهم أو مربياتهم كثيرا، فهم لا يبكون إلا في القليل . ولا يتم تقميطهم كما الأمر عندنا، وإنما يُتركون ليَتَرَعرعوا بحريَّةٍ، وعند بلوغهم من ثمانية إلى تسعة أشهر يستطيعون المشي بمفردهم.

ونراهم من عُمر الثانية إلى الثامنة هزيلين و ضعيفين، ولهم بطون بارزة جدًّا.

ويتم ختنهم عند بلوغهم الرابعة عشرة، وفي هذه المرحلة من حياتهم يبدؤون بالحفظ غيباً بعض آيات القرآن.

وترافق هذه العملية احتفالات ورقص، إذ يلبس المعني بالأمر أفضل ملابسه، ويركب على ظهر الحمار، فيجوبُ بفخر كلَّ أنحاء القرية، يصاحبه الأ هل والموسيقيون وأصدقاء الطفولة.

عند وصوله إلى المسجد، يذكره الإمام بفضل انتمائه إلى الديانة الحقة، ويجعله يُرَدِّدُ شهادة الإيمان في العقيدة الإسلامية،

المؤلّفة على الشكل التالي : الله أكبر، أشهد أن لا اله إلا الله، أشهد أن محمد رسول الله.

متى انتهت العملية، تُردِّدُ جماعة الحاضرين: لا اله إلا الله، محمد رسول الله!!!

يُخَفِّف رماد الورق المحروق، الذي ينسبُ إليه العرب فوائدَ كثيرة، آلام المريض.

عندما يُساق المختون إلى داره مرافقاً بالموكب نفسه، تقومُ عائلته، ولثلاثة أيام متتالية، بتقديم الولائم، فيكون ضيفاً عندهم كلُّ مَنْ مرَّ بالقرية.

الخميس 27 - امتلأت غرفتي الصغيرة في الصباح من جديد بالرجال والنساء والأطفال، المرضى حقاً، وبالمتمارضين، ويجب أن أقول إن من بينهم كان هناك نساء كثيرات جئْنَ لإشباع فضولهن برؤيتي والتحدث إليَّ، عوضاً عن المجيء لطلب المعالجة.

عند الظهر انطلقتُ برفقةِ عبيش ومقبل إلى قعطبة (أي المبجلة من الجميع)، حيث وصلنا هناك عند المساء، مجتازين وادي الشاعري الجميل والخصب من الجنوب إلى الشمال - الغربي.

في قعطبة، مكثنا في دار صديق لعبيش، وهو عجوزٌ فقيرٌ، أعمى وأصمّ منذ الولادة، ومتزوّج من امرأة قبيحة جدًّا، ربما أقبح واحدة في كلّ البلدة، ولكن هذا لم يمنعها من أن تعاملنا بكلّ لياقة وحسن ضيافة. ذهبنا لاحقاً إلى مصطفى بك ، قائمقام أو حاكم مقاطعة قعطبة التابعة لحكومة تعزّ، الذي استقبلني بالإعزاز والتكريم في ديوانه.

بعد المجاملات الاعتيادية، قدَّم لي خلالها قهوة ممتازة وسجائر جيّدة، تطرَّقنا إلى الحديث عن الحرب، التي كانت قائمة

آنذاك بين الأتراك والروس، فأخبرته بالانتصار الأول والوحيد لـغازي عثمان باشا في بلونا (فقد جاء الانتصار الروسي الرهيب في بلونا بعدها بكثير، أ ما في ذلك التاريخ أي السابع والعشرين من سبتمبر 1877، فكان الأتراك ما زالوا منتصرين!)، وأخيراً تحدثنا عن صناديقي.

قال لي القائمقام بضرورة حملها جميعها إلى قعطبة ، حيث سيقوم بزيارتي شخصيًّا، وإذا لم يكن هناك مواد خاضعة للضرائب، مثل، النبيذ، الكحول، القماش، التبغ، ...الخ . فسيتركني أمُرُّ بسلامٍ حتى صنعاء.

أن يقوم هو بزيارتي فيقعطبةكانت في حد ذاتها خدمةً كبيرة، إذ أن الجمارك والقِباضة التركية كانت متمركزة على منتصف الطريق بين الجليلةوقعطبة في مكان مسمّى حكومة الهاجِفار (أي مكتب الطرقات)، لكن مصطفى بك اللطيف أراد أن يعطيني رسالة للحراس ورئيس الجمارك لكي يسمحوا لي بالمرور بسلام

شكرتُ مصطفى الطيِّب، وعدنا إلى دار صديق عبيش، حيث وجدنا العشاء جاهزاً، ومفاجأة طيِّبة لي.

خلال سيرنا من الجليلة إلى قعطبة، كنت قد اصطدتُ العديدَ من الحمام والعصافير؛ فوجدتها مُحَمَّرة تماما، وكان مقبل قد أعدَّها على شرفي.

الجمعة 28 ـ قضينا في قعطبة ليلة مريعة بسبب الكثير من بقِّ الفراش التي كانت تسكن دار صديق عبيش الأعمى والأصمّ.

انطلقنا في الصباح الباكر إلى الجليلة، مارّين بحكومة الهاجِفار ، وهناك أعطيت رسالة مصطفى بك إلى رئيس الجمارك، وهو عجوزٌ بهيٌّ، ذو قامةٍ طويلةٍ ولحيةٍ طويلةٍ بيضاء . كان أصلهُ من جزيرة كْريت، وقد ذهبَ إلى صقلية، ويعرف القليل من اللغة الإيطالية.

أمضيتُ كلاً من 28 و29 و30 من سبتمبر في الجليلة، و أنا أداوي المرضى، وأذهب إلى الصيدِ، مدوناً باستمرار ملاحظات علميّة، ودون أن أنسى أبداً تسجيل عادات وتقاليد هؤلاء القبليين

تَفتَقرُ الجليلة إلى الآبار، فتذهب النساء لجَلبِ المياه من بئرٍ قريب من البلدة، موجود في الوادي، وسطَ غابةٍ كثيفةٍ. فكان هذا المكان الأفضل لاصطياد الحمام وسائر الطيور الآتية للشرب، كما كان أيضاً مكانَ تَجَمُّع نساء الجليلة وسائر القرى المُجاورة.

وكنت أتوقَّف كثيراً عند ذلك البئر يرافقني دائماً بعض العرب للتحدثِ مع النساء اللواتي أتيْنَ لاستقاء الماء. ولم تقم أيَّة واحدة منهنَّ بحركة شائعة جدًّا في المغرب، وهي إخفاء الوجه بحضور أجنبي، بل على العكس، كنَّ يتسلّيْنَ بوجودي والصيد الذي أجنيهِ بالطلقات النارية العديدة.

في الجليلة أكلتُ للمرة الأولى في نفسَ الطبق مع مقبل، فاستطعتُ من خلالِ ذلك معرفةِ مدى التقدير الذي كان يَكِنُّهُ لي هذا الشاب الطيب، الذي كان رفيقاً وصديقاً أكثر مما كان خادماً.

العربُ في اليمن سواءً كانوا بدواً أو قبليين هم أكثرُ لُطفاً وودًّا وضيافةً من عرب المغرب، لكنهم أقل أدباً، على ا لأقل عندما يأكلون.

في المغرب يأكل الجميع من نفس الطبقِ بيدهم اليُمنى، إنما بطريقة أكثر لياقة: أما في اليمن، فمع كلِّ لُقمةٍ يتناولها العربيُّ، يجب عليه، وكأنه من حسن الآداب، أن يلعق كلِّ أصابعِ يدهِ؛ لحسن الحظِّ أن عنده خمس أصابع فقط، إذ أنه يَجتهدُ كثيراً في هذه العملية، ولو كان عنده خمسون إصبعاً، لَلعقها جميعاً . أما مُقبل، عوضاً عن الأكل كسائر سكان وطنه، كان يثرُدُ الخبزَ قليلاً في الحساء بحيث لا يغمس فيه الأصابع التي لم يضعها أبداً في فمهِ، ولم يحدث أبداً أن وضع في الحساء قطعةً من الخبز كان قد قطعها بأسنانهِ. كان يأخذُ من اللحم ما يراهُ كافياً لوجبةٍ

واحدة، ويضعهُ فوق تلك الكعكات التي كانت هناك تعمل كخبز لنا.

يوجد في الجليلة مصبغة للون الأزرق النيل، وهي في بيت واسع، مؤلَّف من طابق واحد، ومُجَزَّأ إلى عدةِ مخازن كبيرة، حيث نجدُ حُفَراً هائلةً محفورةً على عمقٍ كبير في أرضِيتها، سِعَتها من 150 إلى 200 لتر. يملأ العربُ بعضاً منها بالمياه ويضعون فيها أوراق وأزهار وبذور نبتة النيل لكي تنقع وتتخَمَّر؛ ويستعملون نباتات أخرى مثل الحوَر و الحسر والهال والدره والعدين الذراف. تنمو تلك النباتات في بلاد الأجعود (شرق بلاد العلوي)، وفي بلاد المشرق (شرق بلاد الشاعري)، وما بين الجليلة وتعز، وبين تعز والمخا، وفي إبّ وصنعاء. يتم قطع هذه النباتات على ارتفاع 10 أو 15 سنتمتراً عن الأرض وذلك أوَّل ما تُزهِر وتحمل بعض الثمار. يُتركُ المحصول ليَجِفَّ في الظلِّ حتى لا تصبح الأوراق، المقطوفَة وهي خضراء، مليئةً بالبُقَع؛ وبحيث تَتَفَتَّت بسهولة بين اليدين، وهذا يتم بعد مرور شهرٍ تقريبا. تأخذُ هذه الأوراق بعدَها لوناً رمادياً فضيّاً جميلاً. ويتم إجراء هذا لأن الأوراق لو لم يطرأ عليها هذا التغير في لونها لما حررت في الماء مادتها الملوِّنة. في البلاد التي تُقطَف وتُجفَّف فيها هذه النباتات، يتم أيضاً تجهيز أكياسٍ من الجلدِ لاحتواء هذا المنتوج الذي يُرسل بعد ذلك إلى المصابغ المنتشرة في اليمن. لا يحتاج تخمير هذه الأوراق لأكثر من 48 ساعة، وهي عملية صاخبة مع انتفاخ كبير في كتلتها. تذوب صبغة النيل الأبيض في السائل بسبب عملية التخمر، مع طرد لغاز الأمونيا وحامض الكربونات. ثم يَتَحَوَّلُ السائل تدريجيّاً من الأصفرِ إلى الأخضرِ الباهر؛ بعد ذلك مع ارتفاع الحرارة ومرورِ عشرِ ساعاتٍ يظهر على السطح غشاء أزرق قزحي تغطيه هنا وهناك رغوة بنفسجية. وتصل درجة التخمير إلى مستواها المطلوب عندما يَتَّخِذُ السائلُ لوناً أصفرَ مائلاً للذهبي، وعندما تركُد فيه معظمُ المادة الملوَّنة على شكل حبيبات

متساوية إذا ما حُرك السائل في فنجان أو كوب . عندها يُصفّيه الصِّباغَون، ويضَعونه في بُرم أخرى نظيفة، ثمّ يخضونه بقوة لمدة نصف ساعة بحزم من الأغصان، ليتسرَّب فيه الهواء، ممّا يُساعد ويُسهِّل تكوين المادة الزرقاء المُلوَّنة. بعد الخض، يُترك السائل ليسكن بضع ساعاتٍ، ثمّ يُحَرَّك من جديد عندما يراد صبغ الأقمشة البيضاء باللون الأزرق.

بعد غمس هذه القطع للمرة الأولى توضعُ في الشمس لتَجِفَّ، ومتى جَفَّتتكون قد اكتَسبت القليل من الصبغة الزرقاء، لذلك يكون من الضروري تكرار غمسها عدة مرات، وتَجفيفها بين الغمسةِ والأخرى، وهكذا دواليك، إلى أن تَكتَسِبَ لوناً أزرقَ داكنا

متى حصلوا على هذا اللون، وبعد أن يجف القماش، يقومُ العربُ بطَيِّ القطَعِ ويضربون الأطراف بأخشاب خصيصة ليخرج منه اللمعان.

كما يرى القارئ، فإن العرب لا يستعملون أيَّ ا من المواد المُثبتة للألوان، ولذلك بمجرَّدِ أخذِ الأقمشة بين اليدين فإنها تتلطَّخ باللون الأزرق.

في هذه الأثناء، كان عبيش قد أعلمني بأنه قد عثر على الجمال الضرورية لنقلِ أغراضي حتى السّدَّة. فحَدَّدتُ الأول من أكتوبر موعداً لمغادرتي للجليلة.

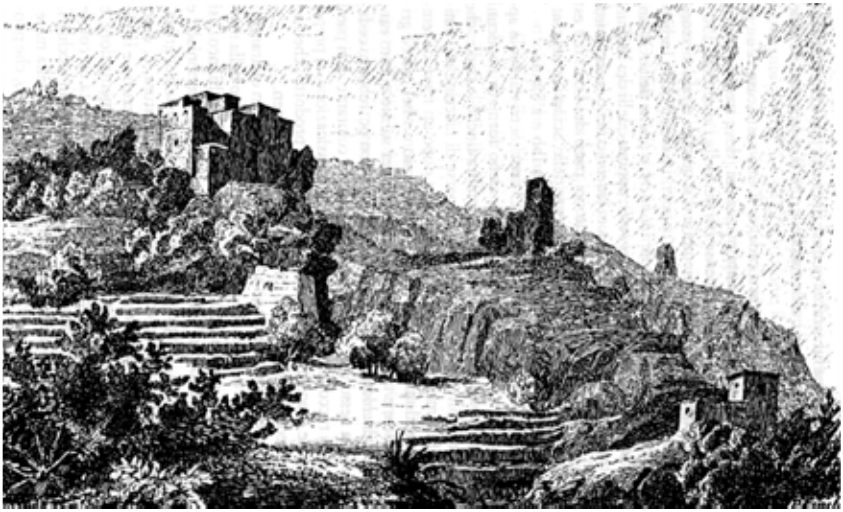

قريةٌ يمنيَّة

VI

السفر إلى قعطبة - تَفَقُّد صناديقي - قعطبة - السهر عند القائمقام - حُكّام اليمن - من قعطبة إلى "عزب" - وادي العود، أحد منابع وادي تُبَن - ممر حدّة - سهل وادي بَنَا - السِدَّة - الأمراض وأسبابها - وادي بنا - النباتات والحيوانات - القَات - نهاية شهر رمضان - الألعاب والتقاليد.

الاثنين **1** أكتوبر - بعد أن تم تحميل الجمال في الصباح، انطلقنا إلى قعطبة حيثُ وصلنا عند العاشرة ما قبل الظهر تقريباً . وأراد عبيش الكفؤ أن يرافقنا هذه المرة أيضاً . عند الظهر، قام القائمقام بزيارةٍ تَفَقُّدية لبعضٍ من صناديقي ثمَّ حيّاني وصافحنيَ ، ودعاني للسهر في ديوانه آمراً في الوقت نفسه كاتبَه بتحرير إذنٍ لي للسفر إلى صنعاء.

"قعطبة"هي مركزُ مقاطعةٍ واسعةٍ نسبياً، وتتألف من بلاد الشاعري، والشعيب، وجحاف ، ومريس ، والعود (بلدة خشب الصبار) ومن نصف بلاد وادي بنا.

قعطبة بلدةٌ صغيرةٌ يقطنها حوالي **300** نسمة تقريباً، فيها جامعٌ وحمامٌ لكنه خربٌ بالكامل، لذا فهو غير صالح للاستعمال. وهي مبنيةٌ وسط السهل، لكن بناياتها ليست بذات جمال وأناقة بيوت الجليلة أو باقي قرى بلاد الشاعري التي تتمركز جميعها تقريباً على التلال، فتبدو شبيهةً بالقلاع. للبلدة "سوقٌ" ينعقد يوم الأربعاء [من كل أسبوع].

قضيتُ تلك الليلة أتعشى عند القائمقام مصطفى بيك الذي عاملني بلطف بالغ، حتى أنه سلَّمني رسالتين كان قد أعدَّهما

مُسبقاً، إحداهما مُوَجَّهة لقائمقام يريم والأخرى لقائمقام ذمار، حيثُ أوصاهما بي خيراً.

كانت السهرة مرحةً رغمَ ما صرّحَ بهلي مصطفى بيك بأنه يشعر وكأنه في إقامةٍ جبرية بدلاً من كونه حاكم مقاطعة كبيرة، وذلك من عدم رضاه بتاتاً عن الإقامة في قعطبة. ولم يكن ليقول إلّا الحقيقة فبيته أو «قصر الحكومة» كان تعيساً جملةً وتفصيلاً. ولكن قال لي العديد من العرب، ومن بينهم عُبيش، بأن مصطفى بيك للتخفيف من وحشة وجوده في ذلك المكان ولأداء تلكَ الوظيفةِ، كان يَضعُ جانباً، كأي تركي نبيه، العديدَ والعديدَ من الدراهم؛ وذلك بالطبع لأيام أفضل من تلك . كان يحصل على هذا المال من خلال مضاعفة الرسوم الجمركية أو الضرائب المفروضة على الأراضي والأبنية.

على أي حال إنه من الواجب علي أن أصف كثيراً الضيافة الممتازة التي لقيتها عند هذا الحاكم التركي.

ومثل المعتاد، نزلنا ل لهبيت تلك الليلة في دار صديقٍ لعُبيش، بمصاحبة آلاف الحشرات الماصة للدماء البشرية، لذلك لم يغمض لي جفن.

منذ عام **1870**، واليمن أو القسم الأكبر منه واقعٌ تحت الحكم العثماني وقد تم تقسيمه إلى ثلاثة ألوية: صنعاء والحديدة وتعز، وهذه بدورها قُسِّمت إلى العديد من القضوات يرأسها "قائمقام" (أو حاكم). جُزّئت تلك القضوات إلى عدَّة مديريات يرأسها "مدير" (نائبُ حاكمٍ). فيكون القائمقام الرئيسَ المدني والعسكري والديني لمقاطعته والمُدير كذلك لمديريته

حَدّدَت الحكومةُ المركزية في صنعاء منذ وقتٍ طويلٍ قيمة الضرائب التي يجب أن يدفعها كل قضاء؛ فيُترك للقائمقام كيفيةُ الحصول على المبلغ الذي قررته الحكومة المركزية، فيكون ذلك نوعاً من إيجار القضاء للقائمقام.

فماذا يفعل أولئك؟ إنما يفعلون نفس الشيء الذي تفعله الحكومة المركزية معهم . يُؤجِّرون المديريات إلى مدرائهم، وبالتأكيد مقابل سعر أكبر من الذي يجب عليهم إرساله إلى صنعاء، فربما لا يرسلون إلا نصفَ ما يجنونهُ من مُدرائهم، محتفظين بالطبع بما يتبقّى. وبدورهم يقوم المدراء بطلب مبالغ أكبر بكثير ممّا يتوجَّب عليهم تسليمُها إلى قائمقامهم . وهكذا إذاً تقوم القضوات اليمنية في نهاية المطاف بدفع أربعة أضعاف ما تُحَدِّده الحكومة المركزية. فلا يُعاني من جرّاء هذا الظلم سوى العربيّ المسكين، إذ تَمتَصُّ الحكومة المركزية دَمَهُ من دون أن يعود ذلك بمنفعة عليه ، فيبقى دمّ تلك الشعوب رهي نة جَشَع الحكام الأتراك الخبثاء.

عند مراكز الجمارك، يُصَرَّحُ أمام صاحبِ البضاعةِ نفسِه عن وزن أكبر لحمولته وذلك لإخضاعه لضريبة أكبر، ومن ثم يُعمَدُ إلى تسجيل تلك الأوزان نفسها على الدفاتر بقيمة أقل.

تشكل هذه الممارسات «الدخل الثابت» للحكام الأتراك. إنما يستطيع هؤلاء أيضاً الحصول على إيرادات «استثنائية» مثل تلك، على سبيل المثال، الناجمة عن الخلافات والنزاعات بين عربيين أو أكثر، إذ يقوم الأكثر ثراءً وإن كان الحق عليه، برشوة الحاكم للحصول على حكم لصالحه. ويصل الحد إلى أن القائمقام أو المدير يحصل على النقود بالقمع وأحيانا بالتهديد.

فيُمكن أن يحدث لعربي ثري، لمجرد حصوله على حصادٍ جيّد أو ربحٍ من تجارة، أن يتم استدعاؤه يوماً من الأيام من قبل القائمقام أو المدير، فيفرض عليه دفع مبلغٍ معينٍ من المال. فإن دفع المسكين كان خيراً له، وأصبح المال ملكاً للحاكم . وإن رفض تم اعتقاله ليبقى في السجن حتى تدفع عائلته ضعف المبلغ- على الأقل- الذي طُلِب منه في البداية، وذلك جزاءً له لعدم إطاعته السلطات. وفي حال تَخَلَّفت العائلة عن الدفع أو لم يكن بمقدورها، يُتهَم المسجون أمام الحكومة المركزية، وهي

حالة ليست بالنادرة، بتهمة التواطؤ ضدَّ الأتراك؛ وتقوم عندها الحكومة، كي لا يبقى هناك شكٌ، بحجز جميع ممتلكاته.

إنما أتوقف الآن عن سرد هذا الموضوع الكريه لأنه وللأسف سأتكلم عنه، وربما بشكل مطول، فيما بعد.

الثلاثاء **2** - عند السادسة صباحاً، انطلقنا من قعطبة إلى السدة، وهي قرية في سهل بنا، بعيدة عن صنعاء مسافة خمسة أيام سيراً بالقافلة.

هناك طريقان يؤديان إلى معبر حدة : الطريق المباشر - وبالتالي الأقصر- يذهب من شمال قعطبة، ويجتاز بلاد مريس، وهي بلاد مأهولة بالقبيليين الشجعان الذين استطاعوا حتى الآن التصدّي لأعدائهم الأتراك، وذلك للحفاظ على استقلالهم.

كان عبيشٌ متخوفاً - وله الحق في ذلك - من أن يحسبني القبيليون تركياً بسبب حوزتي رسائل مصطفى بك، فمن دواعي الحرص طَلَبَ مني ورجاني أن أسلك الطريق الأطول، قائلا لي بإنه سيرافقني بنفسه لو قررت سلوكه.

لذا أخذنا الاتجاه الجنوبي ، وسرنا فيه مسافة ميل وتوجهنا بعدها غرباً مسافة ستة أميال ثم شمالاً- غرباً لندخل سهلاً ضيقاً ونسير في "وادي الرجع" الجاف (أي النهر الذي يُرَدِّدُ الصدى، الذي يُذكِّر)، المُسمى هكذا بسبب الصوت الذي يُحدثُهُ عند جريانه

وبعد استراحة دامت خمس ساعات، عند منتصف الطريق تقريباً، وصلنا مساءً إلى قرية "العزب" (مكان مهجور في الصحراء)، تقع على قِمّةِ معبر "نقيل العزب". أشار ميزان الضغط إلى **618** وميزان الحرارة إلى **18.5** درجة، لذا أعتقد أن " العزب" تعلو **1627** متراً فوق سطح البحر.

تم استضافتنا في دار أحد معارف عُبيش، عند رجل يدعى محمد الشاوش، حيث أمضينا لسوء الحظ ليلةً أسوأ بكثير من الليالي التي أمضيناها في قعطبة، وللأسباب نفسها.

فرسٌ عَربيَّة

الأربعاء 3 - نظراً لارتباطه بأعمال كثيرة، لم يكن باستطاعةِ عبيش مرافقتي، فألحقني في الصباح بمرشد اسمه محمد، وهو فتىً قويٌّ وصاحٍ، ليرافقني حتى صنعاء، وهكذا لم أعد بحاجة لمرافقة القافلة لقطع الشوط القادم . ونظراً للسير المتعب والصعوبة الكبيرة في اجتياز حدّة، لكنت أُجبرت على قضاء ليلة أو اثنتين في الجبال، إذ لم تكن الجمال قادرة على عبور ذلك الجبل الشاهق في يوم واحد فقط.

استأنفتُ رحلتي عند الخامسة والنصف، بعد أن ودعت عبيشاً الذي فارقته بأسفٍ وحسرةٍ شديدين، وكنت أحمل في جُعبتي رسالة منه يوصي بي فيها إلى أخيهِ أحمد المقيم في السدة.

سِرنا بين الجبال، ونزلنا شمالاً نحو وادي عود الرجع الذي أطلَّ علينا بعدما قطعنا مسافة خمسة أميال ونصف. وادي الرجع- الذي مشينا بمحاذاته حوالي ثلاثة أميال متى لم نكن مجبرين على سلوك مجراه أو النظر إليه ينبع شرقاً من الأكتاف الجنوبية الناتئة من جبل حدّة الكبير.عند وصوله إلى النقطة التي التقيناه بها، من الجهة الجنوبية الشرقية، يَلتَفُّ فجأةً مُنحنياً نحو الجهة الجنوبية الغربية متفادياً جبالالعزب ومن ثم يجري نحو بلاد النارعي.

بعد اجتياز ستة أميال أخرى، تقاطعنا مع وادي حدة الذي يرفده من يمينه وادي العود؛ وكما هو الحال بالنسبة للرجع فإنه يلتفُّ فجأةً نحو الجهة الجنوبية الغربية بسبب ا لأكتاف الموازية لتلك الجبال.

قال لي العرب بأن وادي حدة بعد اتحاده بوادي العود، يَصُبُّ في وادي الرجع.

يسقي وادي العود سْهلاً يأخذ نفس الاسم، وهو سهل أخضر بأكمله كونه غنياً بالنبات.

بعد وصولنا بقليل إلى قرية "الحريمة " (أي حارسة المعابر)، بدأنا بصعود جبل حدة سالكين طريقاً ضيِّقاً ووعراً جداً، حتى أنني لم أصدق كيف استطاعت الجمال المُحَمَّلة صعود ذلك المسلك، وأصعب من ذلك نزوله.

عند التاسعة والنصف، وصلنا إلى قِمّةِ المعبر الذي يبلغ ارتفاعه استناداً إلى المعلومات التي أخذتها ومن ثم صححتها، **2285** متراً تقريباً ف وق سطح البحر . يعلو النقيل، شامخاً و

مُرعِباً ، "نجد حدة" (أي قِمّة حدة)، والذي يفوق المعبر ارتفاعا بحوالي **300** متر؛ فإذا من الممكن استنتاج أن هذه القِمّة - وهي ألأكثر ارتفاعا بين عدن و السدة - تعلو **2585** متراً عن سطح البحر.

ومن أعلى المعبر ، يمتدّ المنظر ج نوباً حتى جبلي مريس والشعيب وحتى جبل بلاد الشاعري وجبل جحاف الشاهق؛ وشمالاً الى سهل "الصوبة" (أي المنحصر بين الجبال)- على علو يبلغ **1975** متواً- فنزلنا نحوه حيث توقفنا بعد حوالي ميلٍ من القريةٍ التي تحمل نفس الاسم، قرب جدولٍ صغيرٍ ، فشربنا من مياهه النقية والمُنعشة.

رأيتُ أنَّ العرب يحرثون الأرض ويهيئونها للزراعة إلى حد ارتفاع ألفي متر تقريباً. تلبس نساء هذه البلاد أثواباً قصيرةً جداً ذا ت أكمامٍ واسعةٍ، يضعنها فوق سراويلٍ تُغطي سيقان أ نحيفةً جداً. إنهنَّ قبيحات حقّاً. للرجال نفس أثواب الجليليين، مع الفارق الوحيد أنهم يلبسون دائماً "جُبَبهم" المصنوعة من جلد الغنم، حيث الطقس هنا بارد نسبيّاً.

عند الظهر، وبعد إنعاشنا بالطعام، غادرنا الموقع ونَزلنا نحو "المعبَر"، وبعد نصف ساعة دخلنا سهل "وادي بنا" (أي الذي يتوقف عند مكانٍ ليجعله خصباً).

أنها بالفعل جنة على الأرض ! اليمن السعيد ! فإن نظرَ القارئ إلى الخارطة، لرأى كم من القرى حتى الكبيرة منها موجودة في هذه المساحة الصغيرة.

يَتَناسب اسم بنا فعلا مع هذا الوادي، إذ كما رأينا فإن المعنى هو النهر الذي يحافظ على مياهه الغنيَّة والغزيرة ليُفيض على الأراضي الخصبة.

يَخضع نصف وادي بنا لحكم قائمقام يريم، ويخضع النصف الآخر، كما سبق أن ذكرت، لحكم قائمقام قعطبة.

وأخيراً بعد السير طويلاً - **38** ميلاً ونصف تقريباً في يومٍ واحدٍ- وصلنا عند السادسة والنصف مساءً سالمين إلى "السِدَّة" (أي التي تقفل السهل)؛ وكنا شبه ميّتين من شِدَّة التعب، ليس نحن فقط، بل أيضاً البَغل المسكين وحمار مُقبل الذي ليس له مثيلٌ، اللذين ركضا حقاً بشدة. لكن حَري بي الاعتراف بأنّ أقلَّ واحدٍ ظهر عليه التعب كان محمد مرشدنا، الذي مشى دائماً على الأقدام! إنه بالتأكيد متسلقُ جبال!

نزلنا في دار رجلٍ اسمه علي عبيد ، حيثُ كان يقيم فيه أيضاً أحمد أخو عبيش، فسلمت له الرسالة التي أعطاها لي عبيش ذلك الصباح في عزب. أُعطِيَ لي غرفة الضيوف التي كما لاحظت فيما بعد كانت مُظلمة جداً خلال النهار : وساعدت كثيراً بطانيتي من الصوف المفروشة على الأرض على إضفاءِ جوِّ السجن الذي كان للأسف يتميّز به مسكني الجديد، إذ كان يَفتَقرُ أيضاً للفراش الذي أعارني إياهُ عبيش الممتاز في الجليلة.

ما إن وصلتُ، حتى باشرت الحديث مع أحمد للحصول على جمالٍ وجمّالين للسفر إلى صنعاء . كانت تفصلنا أيامٌ معد ودات عن "العيد "، أي الاحتفال الذي يقام لنهاية شهر رمضان، فلم يكن ليرضى أيُّ عربي بأن يترك دياره أثنا ءه. فتَوَجَّبَ عليَّ المكوث في السَّدَّة ستة أيام.

من الخميس **4** حتى الثلاثاء **9** أكتوبر - كانت تلك الستة الأيام طويلةً ومملةً! فأكلت بشكلٍ سيئ ونمت بشكلٍ أسوأ.

إنَّ فارق الحرارة ما بين عدن و السِدَّة، وخاصةً التقلب الواضح بين النهار (معدله **24.5** درجة) والليل (معدل الدرجات الصغرى **11**)، بالإضافةِ إلى الرطوبةِ العالية بسبب

وجود نهر بنا، كانت عوامل ألقت تأثيرها السلبي على صحتي . فحرارةٌ عاليةٌ نسبياً، وإسهالٌ متواصلٌ، وألمٌ قويٌ في الحنجرة متزامن مع سعالٍ حادٍّ، ونزيفُ دم غزير ومُتَكَرِّر من الأنفِ، قامت كلها بتعذيبي طيلة فترة إقامتي الحزينة في السَّدَّة. انتهى بي الحال إلى الشعور بهز الٍ شديدٍ. ورغم ذلك، كنت مُجبراً على «علاج» أولئك المرضى الذين كانوا يأتون لاستشارتي . فحتى سكان السَّدّة والقرى المجاورة أعتبرونى أيضاً طبيباً ماهراً.

وإنْ أطلت الحديث عن أوجاعيفلم أفعل ذلك بغرض إثارة شفقة مَنْ عظمت طيبتُه بقراءتي. فبينما أكتبُ الآن، أتمتع بحالةٍ ممتازة وقد نسيت المآسي التي مررت بها؛ لكني اعتقد أن من واجبي تحذير مَنْ يرغب في السفر إلى اليمن، بأنهُ فضلاً عن أخذ كل الاحتياطات اللازمة والتعامل بحذر ولطف مع سكان تلك المناطق، وأن عليه عدم نسيان شدة طقس اليمن بالنسبة للأوروبي، فلذلك من الضروري التزود بأفرشة وبطانيات صوف جيِّدة، كانت للأسف تنقصني: فكان نتيجة ذلك كلّ تلك العواقب الحزينة التي أصابتني بالرغم من قوةِ وصلابةِ صدري ومَعِدتي وأعضائي.

لحسن الحظِّ، كانت تلك الأوجاع تَهجم عليّفي أوقاتٍ محدَّدة، وخصوصاً في الليل، لذلك كنت استطيع خلال النهار أن أذهب قليلاً للصيدِ ولزيارةِ الحقول الجميلة في ذلك السهل الخصب

استطعت ذات يومٍ بطلقةٍ واحدة قتلَ ثمانية عصافير، فكان ذلك كافياً لإثارة إعجاب كلّ أهل السدة أشدَّ الإعجاب، علماً بأن صيدي كان بالعادة دائماً مُتَوَّجاً بالنجاح. لا داعي لتكرار أنَّه لم يكن باستطاعتي أن أخطو خطوتين خارج البيت من دون أن يرافقني ستة أو سبعة من القبيليين الممتازين الذين بعد كلِّ طلقةٍ كانوا يركضون لجلب الطرائد والرضى بادٍ على وجوههم.

جمَّالون قبليُّون

في مساء الخامس من أكتوبر، من الساعة التاسعة والنصف حتى العاشرة والنصف، رأيت العديد من الشُهُبِ ناحية الشرق.

إنَّ "وادي بنا" هو أحد الأنهر دائمة التدفّق في اليمن . فهو يصل إلى السدة من الغرب البعيد البعيد، من المنحدرات الجنوبية لجبال إب . وبعد أن يسقي البلاد التي تسمى باسمه، محافظاً دائماً على اتجاهه من الغرب إلى الشرق، يمرُّ وادي بنا شمالَ بلاد الشعيب ، ثم يتجه جنوباً، ماراً شرقَ بلاد حرير والعلوي والأجعود، وعابراً بلاد الفضلي ليصُبَّ في خليج عدن، شرق المدينة نفسها.

تتواجد الحقولُ إما في عمقِ السهل أو تَتَدَرَّجُ على جوانبِ الجبال، مرتبةً بنفس الطريقة في مناطقنا بالبريانزا : بنفس الجدران الاستنادية الحجرية، ونفسالمدرجات للصعود من حقل إلى آخر . والطرقات ليست سوى مسالك صغيرةٍ بعرض مترٍ

ونصف تقريباً؛ وتحاذيها جدران من الحجارةِ الموضوعة الواحدة فوق الأخرى من دون جص أو إسمنتٍ؛ وترتفع قدر مترٍ عن الأرض، وذلك لمنع الجمال المارة من هناك من أكل المحاصيل التي تنتجها الحقول.

تتبع تلك المسالك اتجاه النهر عندما تُشيَّد في قعر الوادي، أما عندما تصعد إلى منحدرات الجبال فتسيرُ مُعوجَّةً.

كلُّ حقلٍ يُروى بواسطة قنوات صغيرة تحمل مياه بنا الصافية. تصل هندسة الري إلى أوجها في تلك المنطقة : في مكانٍ تحت الهلزي (واحدة من القرى الكثيرة)، لتجنُّبِ عمل شاق يَقتضي حفرَ قناةٍ في الصخور الصلبة، وهي عملية عسيرة وصعبة جداً، قام العرب بأخذ جذوع الأشجار الكبيرة، ثم نحتوها وأوصلوها ببعضها ليؤلفوا بذلك نوعاً من أنابيب تنقل المياه من الحقول العالية إلى الحقول المنخفضة.

عندما تكون الحقول مرتفعة كثيراً، ولريِّها بالقنوات العادية، قام العربُ بصنع مجاري على ارتفاع شاهق تأخذ مياه النهر من على بعد كبير حيث مستوى سيره أعلى ارتفاعاً فتوصّله إلى قنوات الري. وعندما تمتلئ القناة بالمياه تصُبُّ في الحقل الأعلى ومتى ارتَوَت تلك الأراضي، تفتُح السد ة السُفلى وتنساب المياه لتروي الحقول في الأسفل. وتُزرع هذه الحقول بشتّى أنواع الحبوب والخضار، مثلما الحال في أراضي لحج وبلاد الشاعري. لاحظت بأن ارتفاع سيقان الذُرة يصلُ إلى أربعةِ أمتارٍ ونصف تقريباً . واسعةٌ هي الحقولُ المزروعة بالحنطة، بالذرة الشاميَّةِ، بالشوفان، بالثُمام، بالجُويدار، بالدُخن،...الخ.

كما رأيت م روجاً صغيرة ينموا فيها "الريام "، والتبغ ("تتن "، "تنباك ")، و"الخشخاش "، و"الحلبة "، و"القضب"، و"السِغامور "، والعنب، والسمسم ("الجلِجلان " الذي يستخدم لصنع الزيت). وتُزرع في البساتين ، بالإضافة إلى العديد من أنواع الخس ، و"الملوخية "، والجَزَر، و "الميرير "، و"القات "

(وهي شجيرة صغيرة، تؤكل أوراقها التي لها مفعول مُنشط، ويعتبرها العرب علاجاً ضد الزهري)، و"البرابرا "، و"المرداح"، و"الهروجي"، والكوسة، والخيار، والبطيخ ومنها "الكشع" و"الحباب".

أينما ذهبت وجدت شتولاً رائعة من "النردسان "، و"التبشع"، والآلاف من الشتلات والنباتات الأخرى.

وعلى سفوح الجبال المعرضة للجنوب، وخصوصاً في النصف الأسفل لكل السهل، وجدتُ أعداداً كبيرةً من أنواع الصبار، مثل "البسيسل" و"العبلية" و"القُباب" و"الخرخرة".

ويوجد بكثرة على جوانب الحقول وعلى طول مجرى النهر، وحتى في ثنايا الجبال، أشجارُ فواكه مثل الدراق، و"البرقوق "، و"التفاح "، و"السفرجل "، و"المشمش "، و"الليم "، و"الترنج "، وأنواع من التين مثل : "التين "، و"السور "، و"البلس "، و"الطولق "، وبعض "الموز " النادر ، وبعض "الجوز "،... الخ،...الخ.

ولكني لم أجد هناك أية نبتة من نباتات القهوة، وهي نبتة لم أرها في أي مكانٍ على مدى سيري الطويل من عدن إلى صنعاء.

يَستخرجُ القبيليون "الأفيون" من الخشخاش الذي يزرعونه، فيمزجونه بالزيت أو الزبدة أو الشحم لتدليك الأعضاء المُتألّمة، لكنهم لا يدخنونه. في البساتين القريبة من البيوت وعلى نفس أسطحها، تُزرعُ الأعشاب المُعَطِّرة مثل "الغَبيرا"، و"الزميق"، و"المردقوش"، و"الحبق"، و"الزعتر"، و"النشوش"، و"السِلاب"، و"الجَزل"؛ ونجد في البساتين فقط، وفي حالاتٍ نادرة، عشبة "القات".

اكتشف "القات" عالمُ النبات الشهير فورسكال، وتنمو تلك الشجيرات في جبالِ اليمن أينما تزرع فيها تقريباً، لكنها تتواجد خاصةً في البلاد المُنتجة للبن . القات شجرةٌ صغيرة، يصلُ عُلوّها في بعض الأحيان إلى نصف متر، وتشبهُ للوهلة الأولى،

من حيث أغصانها وأوراقها، نبتة الكاميليا الموجودة في بلادنا . يقوم العرب بمص ومضغ أوراقها طويلاً،فهم يقولون إن لها تأثيرات عجيبة. فيدَّعون بأنها حيثما تُزرع لا يمكن أن يصل الطاعون؛ وأنَّ غصناً منها إن وُضِعَ عند الصدر يحمي بقوة من أي التهاب أو حشرة، وأنَّ عصيرَ أوراقها، عدا عن كونه مُنشطاً، له أيضاً مفعولٌ مهيجٌ جنسياً. لذلك يعتني العرب كثيراً بزراعة القات، ويبيعون أوراقه بسعرٍ مرتفع جداً . لكن عالم النبات فورسكال يقول إنه لا يوجد أي من هذه الفضائل في القات. وخلال إقامتي الطويلة في اليمن، مَضَغتُ مراتٍ عديدة تلك الأوراق، وأردت أخذ ملاحظات والقيام بدراسة التأثيرات الفعلية لها. في نظري، لتلك الأوراق مفعولٌ منَشِّط للتبول، لكنها غير مؤثرة على الرغبة الجنسية، إنما تُسهل بطريقة غريبة إفراز المني الذي يخرج بشكل وفير؛ وتُثير أيضاً حركة المَعدةِ وبالتالي الشهية . إن استُهلكت بكمياتٍ كبيرة، تُسَبِّب الأرَقَ، إذ أنها لا تُنشط إطلاقاً إنما تسيطر على النفس سكينةٌ لطيفةٌ ورخاءٌ ظريفٌ.

الحصانُ (بالعربية "خيل" الذكر، و "فرس" الأنثى) في اليمن، ليس بالحيوان الذي لا يمكن فصله عن حياة العربي كما يُعتقد عادةً . يُمثِّلُ الحصان في تلك البلاد نوعاً من الرفاهية، فيتراوح سعره بين الألفين والخمسة آلاف ليرة إيطالية . له قامةٌ عالية جدّاً؛ رأسُه صغير قليلاً بالنسبة لعنقه الواسع؛ وعيناه مملوءتان بشرارة النار والحماسة؛ خياشيمه واسعة ومنفتحة . ساقاه نحيفتان قليلاً وعصبية . له مظهر نبيلٌ فخورٌ وملوكيّ . وباستثناء المدن الكبيرة، فإنه من النادر رؤية الخيول في اليمن.

إنَّ "الحمار" في البلاد العربية ليس في الحالة التي يُرثى لها مثل بلادنا حيث يعتبر من البهائم الذليلة، ويعامل معاملةً سيئة ولا يُعتنى به من حيث التغذية. فيَتَمَيَّز حمار اليمن بقامة عالية، ومظهر جيد، وهو ذو قَوامٍ قريبٍ للنبل، كما ويتمتَّع بمشيةٍ خفيفة

وسريعة. يُفضل العرب استخدامه خلال الأسفار الطويلة في الصحراء والجبال . وتتراوح أسعار الحمير في اليمن بين المائتين إلى الخمسم ايئ ليرة إيطالية . عادةً ما يكون للحمير الأكبر حجماً شعرٌ أبيضٌ، كما ونجد في اليمن الحمير المستوردة من السواحل الإفريقية، لكنها صغيرة وذات شعر أسمر، ويتراوح سعرها بين الخمسين والمائة ليرة.

وبلاد اليمن السعيد، التي تمتلك أحصنة وحميراً بهذا الجمال والمواصفات، يمكنها أيضاً إنتاج "بغال" رائعة تتمتّع بقَوامٍ طويل وقوي وصلب؛ وهي سريعة في جريها، وتحظى باهتمام كبير من قبل اليمنيين الذين يبيعون الواحد منها بسعر يتراوح ما بين الخمسمائة والألف ليرة.

لا وجودَ في اليمن للجمل ذي السنامين، إنما يوجد الجمل ذو السنام الواحد فقط . رأسه طويل، وشفَتهُ العليا ممتلئة ومشقوقة، وعنقه طويلٌ جداً وله سنام واحد، وسيقانه طويلة ونحيلة، ومظهره إجمالاً لا يمكن وصفه بالأنيق، لكن العرب يقدرونه كنعمة حقيقية من عند الله، ولم يخطئ بوفون **(Buffon)** عندما أطلق عليه اسم «سفيرة الصحراء».

إنَّ الجمل معتاد منذ صغره على حمل الأثقال، وهو مدرب على أنْ يُحَمَّل وهو جاثٍ على ركبتيهِ . ويُظهر الجمل ذكاءً لا يقل عن ذكاءِ الحصان: فهو مقتصد ومطيع؛ وهو مسالمٌ معظم الوقت، ما عدا في فصل الربيع أي فصل التزاوج، عندما يصبح لمدة شهرين تقريباً خطيراً وصعبَ المراس، وتنبعث من عرقه رائحةٌ لا تُطاق بسبب تهيجه.

تغطي سنامَه ورأسَه والطرفَ الأعلى من عنقهِ خِصلاتٌ من الشعر المجعّد الطويل ذات لونٍ أحمرٍ بنيٍ؛ أما بقيةُ جسمه فتغطيها بالكامل شعيراتٌ قصيرةٌ من اللون نفسه. ويقوم العرب باستعمال "شعر" الجمل لحياكة السجاد. في اليمن يكاد يُستعمل

الجمل، الذي يَتَحلّى بقوّةٍ عظيمةٍ ،كوسيلة النقل الوحيد . ويقوم البدو والقبليون بتربية وتدريب الجمال على السباق . وهذه الجمال التي تدعى "البحاري" لا تحمل أثقالاً أبداً عدا وزن راكبها، وهي تركض بسرعة هائلة لدرجة أنه لا تستطيع أي خيل أن تجاريها، حتى الخيول العربية الأصيلة.

"الثيران" و"ألا بقار" التي رأيتها في اليمن ليست من أصولٍ عربية، بل بالتأكيد قادمة من السواحل الصومالية، فثيران وأبقار اليمن لها حَدبة على أكتافها وقرون طويلة جداً مثل الصومالية، وهي تدرّ كميةً قليلة جداً من الحليب لا تتعدى اللتر الواحد في النهار.

ولم أجد في كل أرجاء اليمن، باستثناء الحوطة، أي نوعٍ من الثيران المخصية، لأن العرب يرفضون بشدة أي نوع من البتر للأعضاء التناسلية.

إنَّ الأغنام ثروة حقيقة لسكان اليمن، وتشكل الغذاء الأساسي من الذبائح. وتتراوح أنواعها بين الكبيرة جدّاً بشعر طويل؛ وأخرى مستوردة أيضاً من الصومال تتميَّز بشعر أبيض قصير يغطي جسمها بالكامل باستثناء الرأس المغطى بشعر أسود داكن؛ وأغنامٌ أخرى ذات قَوام صغير جداً، ورأسٍ شبه عار والقليل من الصوف على الظهر إنما ناعم ولامع تكاد تحسبه حريراً؛ البعض منها سوداء بالكامل، أو بيضاء بالكامل، ومنها ما تميل إلى لون أصفر زهري جميل، والكثير منها تتميّز ببقعٍ كبيرة سوداء وبنية وحمراء بنية.

أما العنز فقامتها قصيرة أيضاً، وشعرها أسود اللون، ولها قرون طويلة مستقيمة. تَتَميّز بالحيوية الكبيرة والمرح والسرعة. ورأيت فصيلة منها صغيرةً جداً (طولها **40** سم) تكاد تشبه لعبةً بدلاً من كائنات حيّة.

وكذلك الديوك ("السردوق") و"الدجاج" احجامها صغيرةٌ جداً، ولكن لحومها لها مذاق لذيذ.

من النادر رؤية "الكلاب" في القرى، وذلك لأن العرب يعتبرونها حيوانات نجسة . أما في بيوتهم فيوجد العديد من القطط ("البسُومُ") الكبيرة الحجم والكثيفة الشعر.

وفي الجبال يعيش ابن آوى في مجموعات، كما أنه من السهل في اليمن رؤية "ثعالب" جميلة جداً.

وحتى في السِدّة وجدتُ نفس تقاليد القبيليين، ونفس الحريّة المتروكة للنساء لعبت مع زوجة علي عُبيد لعبة "العبدور"، بل هي التي علّمتني إياها . وهي لعبة شائعة عند القبيليين ولكنها مجهولة في صنعاء حيث يتسلّى الأولاد بلعبة الكُرة والدوّامة، وهي بالتأكيد ألعاب مأخوذة عن الأتراك الذين بدورهم أخذوها عن الأوروبيين.

لعبة "العبدور" (أي المفاجأة) مسليةٌ جداً وفي الوقت نفسه مفيدةٌ للأولاد الذين من خلالها يتعودون على عملية الحساب . لذلك لا أعتقد أنه من غير المُجدي تفسير طريقة اللعب بها.

يقوم عادة الصبيان العرب بتحضير صفّين مؤلفين من ست حُفَر، محفورة في الأرض، وفي كل واحدة من تلك الإثنتي عشرة حفرة يضعون أربع حصى أو أربع خراطيش. يجلس كل لاعب أرضاً بجانب صفٍ واحدٍ فيكون أمامه ستُّ حفر و**24** حصوة، ويكون الصف الثاني للاعب الآخر.

اللاعب الذي يأتي دوره أولاً، يأخذ الحصوات الأربع الموجودة داخل أيٍّ من حُفَرِه الست ثم يضعها واحدة تلو الأخرى في الحُفَرِ التي تليها من جهة اليمين أو الشمال بما في ذلك حُفَرِ الخَصم.

مع العلم أنه، متى بدأ بوضع الحصوة الأولى في الحفرة من جهة اليمين، وَجبَ عليه المتابعة بهذا الاتجاه طيلة ذلك الشوط من اللعب، وبالمثل إن بدأ من الجهة اليسرى توضع آخرُ حصوة أو خرطوشة إما في حفرته أو حفرة خصمه : يأخذ عندها تلك الحصوات الخمس ويتابع كما فعل سابقاً، وبالوجهة نفسها من حيث بدأ، واضعاً إياها الواحدة تلو الأخرى في الحفر التالية . ويستمر في اللعب على هذا النحو إلى أن تقع إحدى هاتين الحالتين:

1- في حال وقوع الحصوة الأخيرة في حفرةٍ فارغة، يحق للاعب أخْذ كل الحصوات الموجودة في الحفرة المقابلة في الصف الآخر، لتضاف بذلك إلى حصته وينتقل الدور إلى اللاعب الآخر.

2- في حال وقوع الحصوة الأخيرة في حفرةٍ مليئة بالحصى لكن الحفرة المقابلة في الصف الثاني فارغةٌ، عندها لا يستطيع اللاعب متابعة اللعب وينتقل بذلك الدور إلى اللاعب الآخر من دون تسجيل أي ربح للأول.

يعمل اللاعب الثاني مثل الأول فيأخذ الحصوات من أيّ حُفْرَة من حُفرِه ويتابع اللعب بالطريقة نفسها التي اتبعها الآخر.

تنتهي اللعبة عندما تَنفد الحصوات من الحفر واللاعب الذي يحصد أكبر عدد من الحصوات يكون الرابح.

[لمزيد من الإيضاح أضع في خدمة القارئ الشكلين التاليين، للتمكن من فهم قوانين هذه اللعبة جيداً].

Mohammed
Àli
a b c d e f
A B C D E F

Mohammed
Ali
a
b
c
d
e
f
A
B
C
D
E
F

من عدن إلى الجليلة، لم أصادف أيّ يهودي، لا أثناء السفر ولا خلال المحطات، باستثناء مدينة الحوطة، التي تحتوي على حيّ خاص للهيود يسمى "قاع اليهود". لكن من قعطبة فصاعداً جميعَ القرى تقريباً لها أحياء صغيرة مخصصة لليهود.

يعيش اليهود في وئام تام مع العرب الذين يعاملونهم معاملةً حسنة، إلا أنهم لا يستطيعون ركوبَ الدواب وعليهم المشي سيراً على الأقدام دائماً. لا يشبهون إطلاقاً أولئك اليهود القذرين في المغرب، فبيوتهم هنا نظيفة جداً، وحتى لباسهم المؤلف من قميص من الصوف فوقه جبةٌ من الصوف أيضاً وجدته نظيفاً ومرتباً دائماً - وهو لباسٌ يشبه زيّ الكهنة عندنا أثناء قيامهم القداس. والنساء اليهوديات الموجودات في هذا السهل قبيحاتٌ جداً ويلبسن مثل القبيليات، لكن من غير أيّ زينة خارجية كالعقود أو الخواتم . للرجال اليهود عادةً خصلتان طويلتان مجدولتان تتدلّيا ن أمام الأذنين - وهما التعويذةُ الكبيرة الدينية لليهود، لكن هذه الخصل تجعلهم قبيحي المنظر . إنهم يعملون بالحياكة تحت ظلِّ الأشجار، ويصنعون من البلح نوعاً من المشروب الذي لا يحتوي على الكثير من الكحول، لكن مذاقه جيدٌ.

في العادة لا يقوم القبيليون بإزالة ريش الدجاج أو الطيور إنما يقومون بسلخها كما يُفعل مع الغنم والماعز والبقر. لكن مُقبلاً خلافاً لعادات مواطنيه كان ينتفها من الريش لأجلي.

في الصباح، يتربع القبيليون تحت الشمس ليتدفئون، مستندين إلى جدران المنازل.

في ليلة الخامس من أكتوبر، من الساعة التاسعة والن صف وحتى العاشرة والنصف، رأيتُ العديد من الشُهُبِ تتساقط ناحية الشرق.

وأخيراً جاء آخر يوم من رمضان (السابع من أكتوبر) حاملاً معه "العيد" أو "البيرم"، الذي يدوم ثلاثة أيام ، ويزول خلالها زهد رمضان ليحل مكانه الفرح والبهجة. في تلك الثلاثة الأيام السعيدة، يقومُ المسلمون بتبادل أحرّ المجاملات والتهاني، غافرين الأخطاء لبعضهم البعض، ويلبسون الثياب الجديدة ويضعون الزهور والأعشاب العطِرة في العمامة . ووُجِّهت لي أيضاً التحيات والتهاني وقُبِّلت يدايَ وثيابي.

من خلال المعلومات التي جمعتها، حسبت أن السدة تقع على ارتفاع يبلغ **(2038** متر) عن مستوى سطح البحر وترتفع بمقدار **120** متراً عن ظفار **(1918** متراً) وهي قرية صغيرة تقع في الشرق حيث يبدأ ـ عند معبر "مابره" **(1953** متراً)ـ سهلُ بنا.

ينحدر مجرى نهر بنا من **2025** متراً تحت السدّة إلى **1911** متراً تحت الهُلزي حيثُ يترك هذا النهر السهلَ الذي يحمل نفس اسمه، ليسلكَ شمالَ السلسلة الكبيرة لجبال حدّة.

VII

مغادرة السَّدَّة- سوق الثلوث- محاولة صيد "الرباح"- وادي (خبان)- نُزهة- ودِيانٌ جافةٌ وصخرية- رباط القلعة- شيخٌ ممتاز- يريم- نساءٌ مُحجَّبات- سمسرةٌ في الجبل- مغادرة يريم- الخطوط الفاصلة في اليمن- معجزة علي- العجوز زينة- ذمار القرن- زوابع وأمطار- ذمار- انهيار منارة- طريقة قطع الخشب- المغادرة- معالجة زكام- معبر- نقيل يسلح- الريّ بالمياه المستخرجة من الآبار - وعلان- صاحب مطعم خبيث- وادي المحاقرة- حزيز- الوصول إلى صنعاء.

الأربعاء 10 أكتوبر - بعد اكتمال التحضيرات للسفر، غادرتُ السَّدَّة عند الظهر، متوجهاً إلى صنعاء المنشودة، التي كنتُ أبعدُ عنها مسافة خمسة أيامٍ سيراً على الجمل.

عند السادسة والربع، وصلنا إلى قمة تَلّةٍ، وكان هناك بلدةٌ اسمها "سوق الثلوث": نزلنا في دار ناجي صالح حيث قضينا فيها الليلة. كنّا على ارتفاع 2215 متراً عن سطح البحر، أي أعلى بـ177 متراً عن السَّدَّة وبـ190 متراً عن وادي بنا.

هنا أخبرني القبيليون كيف أن الجبل القريب "جبل رأس السَّدَّة" مأهول بـالقرود "بالرباح" الكبيرة، لذلك أخذت فوراً بندقيتي، وبمرافقة ولدين من أولاد صاحب المنزل، توجهتُ نحو الجبل. لكن حالتي الصحية الضعيفة منعتني من تحقيق هدفي بالحصول على واحد من تلك الحيوانات. فكنت ضحية خفقان قويٍّ للقلبِ وضيقٍ في التنفس، ودورانٍ في الرأس، والتَقيؤ، إلى درجة أني اضطر رت أن استلقي على الأرض، مع استغراب

شديد من قبل مرافقيّ؛ وبعد أن ارتحت قليلاً عدت إلى دار ناجي صالح ميتاً أكثرَ من حيّ.

لم أشك أبداً في أنَّه لو اضطررت أن أتوقف في السَّدَّة بضعة أيامٍ أخرى لمرضت فعلاً . بيدَ أن الحركة والتنشط لاستكمال السفر إلى صنعاء، سبّبا تحسنا كبيراً في كل جسدي، فهذه الحركة أعادت إليّ عافيتي، وعندما وصلت إلى صنعاء، كنت في حالة لا بأس بها.

الخميس 11- استأنفنا المسير في الصباح الباكر. كان الطريق صاعداً بمحاذاة الجبال، وكنا ما نزال نرى في الأسفل وادي بنا الخصب، المُمتدّ نحو الغرب . وبعد متابعة السير غرباً، انعطفنا نحو الشمال- الشمال الغربي ومن ثم اتجهنا شمالاً إلى سهل وادي (خبان) (أي النهر الذي يختبئ) الذي يرفد وادي بنا من يساره. عند العاشرة إلاَّ ربعا، اجتزنا "جبل التاش" (أي جبل الحجارة) عند معبرٍ صغير (على ارتفاع 2337 متراً)؛ ويمتدُّ بعده سهلٌ صغيرٌ خصبٌ وجميلٌ، يرويه هو الآخر وادي (خبان) الذي بالقرب من جبل التاش يصبُّ منه شلالٌ يرتفع نحو أربعين متراً.

عند العاشرة والنصف اجتزنا نقيل خبان (2359 متراً) حيث ينبعُ منه النهر الذي يحمل نفس الاسم.

بعد عبور هذا النقيل، دخلنا سهلاً (2325 متراً) تغطيه الحجارة، ولا يقطنه إلاَّ عددٌ هائل من "الحرادين " (العظايا) الكبيرة جدّاً، ذات لونٍ رائع يمزج بين الأزرق والأخضر الفلزيّ.

اتّسم هذا السهل، كغيره من السهول التي تليه مباشرة، بوجود نباتات قصيرة جداً، ويعزى ذلك لشح المياه فيها؛ وفي بعض الحقول المزروعة، لم ترتفع سيقان الشوفان والحِنطة التي كانت تحمل الثمار أكثرَ من شِبرٍ ونصف عن الأرض.

عند الواحدة ظهراً، توقفنا بالقرب من قرية (رباط القلعة)، ويعني اسمُها «الطرقات الأربع»؛ فهناك كان يلتقي الطريق الذي

يوصِّل إلى السِرَّة من الجهة الجنوبية الشرقية (وه و الذي كنّا قد سلكناه)؛ والطريق الذي يؤدي إلى (ماوية) جنوباً؛ والطريق المؤدي إلى إبّ من الجهة الغربية؛ وأخيراً ذلك الذي يوصل إلى يريم من الجهة الشمالية. في (رباط القلعة) جلسنا أرضاً في دار الشيخ محسن علي حسين، حيث انتظرنا الجِمال التي كانت تسير أبطأ منّا بكثير. وما أن رآنا الشيخ، حتى أحضر لنا بعضاً من لحم الخروف المطبوخ بإتقان، بالإضافة إلى الحليب والزبدة والخبز. ووافق الشيخ على شرب شيء من«الجن» الذي كنت أحمله في قارورة على كتفي، متذمّراً من عدم وجود«البرندي» معي، فهو كان يعلم أنّه أفضلُبكثير من الأول. كان الشيخ محسن علي حسين قد عاش سنينَ طويلة في عدن، حيث تعرّف على أوروبيين وأقام صداقةً حميمة مع الحاج حسين الرَّحبي، فاعتقدَ أنّه من الواجب استضافتي وتقديم الطعامَ لي، لأنّه كان قد علم بمجيئي . فقبلتُ الطعام على الفور، ولكنني اضطررت إلى الاعتذار عن المكوث عنده، فقد كان من الضروري أن أصل إلى صنعاء في أسرع وقت.

جبليَّةٌ في سوق الثــَّلوث

تحدّث الشيخ إليَّ مُطوَّلاً، وهو جالس بالقرب مني على سجادتي "الفِردة"، عن تعاطفه مع المسيحيين، وعن إعجابه بالإنجليز، وعن احتقاره للأتراك، وعن أسفه لكونه خاضعاً لهم، ثم أضاف: "إن شاء الله الإنجليز يقاتلوا كُلّ هذا التركي".

في هذه الأثناء، مرَّت الجمال من أمامنا، فبعد ذلك بقليل قمتُ وسلّمت على العجوز اللطيف بمودةٍ وصافحته بقوة . وعند الثانية، تابعت سيري نحو "يريم" (الواقعة في وسط اليمن)، حيث وصلت عند الرابعة والنصف عصراً.

يريم (2398 مترا) مدينةٌ جميلةٌ تتّكئ على تلةٍ، وهي مُحاطة بأسوار متينة، ولها أربعةُ أبواب: اثنان من جهة الجنوب، وواحدٌ شرقيّ، وآخر غربيّ، ويسكنها حوالي ثلاثة آلاف نسمة.

كانت يريم المدينة الحقيقية الأولى التي أراها في شمال اليمن؛ فيها بازاراتٌ ودكاكين مثل تلك التي رأيتها في لحج، وبيوتها مبنية بأكملها من الحجارة أو الآجر (الياجور) المحرق في الأفران الساخنة ، وعلى نوافذها الصغيرة وواجهاتها بعضُ الزخارف، وبعض هذه الواجهات تشبه في ترتيبها لوحة الشطرنج بحجارة رمادية تتبادل مع أخرى حمراء بُنية.

تقع يريم في سهل قاحلٍ، ولكنه في بعض المناطق، وخصوصاً بعد (رباط القلعة)، يصبح ذا طبيعة مستنقعيّة . والجبال المحيطة بهذا السهل جميعها جدباء، إذ لا يُلمح فيها حتّى أصغرُ الأشجار، إلاّ بعض النباتات في ضواحي المدينة، ولكن ما من شجرة واحدة، ولهذا السبب لا وجود للحطب في يريم.

ولإشعال النار يستعمل أهل يريم روثَ الحيوانات مثل الثيران والأبقار والماعز والغنم، والجمال والحمير والبغال، المخلوط بالتِبن أو موادٍ أخرى قابلة للاشتعال.

رأيتُ خارج المدينة، في حقلٍ مفتوح، كيف يُصنع ذلك «الفحم الحيوانيّ »، وكانت النساء وحدُهنّ يعملن في هذا المصنع.

ولأول مرة نزلت في سمسرة جبليّة، وهي عبارة عن غرفة واسعة ومظلمة بعض الشيء، ومُدَعَّمة بأعمدة جسيمة تحمل أقواساً عريضة . وفي الداخل كانت تستريح الجمال والحمير والبغال والأحصنة مع حمولتها وأصحابها ومع المسافرين. وبالرغم من وجود غرفةٍ صغيرة بالقرب من الباب مخصّصةٍ للمسافرين المهمّين فقط، رفض مالك هذه السمسرة تأجيرها لي، رغم إلحاح مقبلٍ، معتقداً بأنني مسافرٌ فقير. وهكذا قضيت الليلة وسطَ الجمال والحمير وبين صناديقي وطرود التبغ.

كان المطبخ فوق تلك الغرفة الصغيرة، وكذلك مسكنُ صاحب المكان الذي كان يعمل كطبّاخٍ أيضاً.

عند المساء، أرسلتُ مُقبلاً إلى القائمقام لتسليمه الرسالة التي أخذتُها من قائمقام قعطبة، لكن أحمد توفيق بيك كان قد غادر في الصباح نفسه مع الجنود، لتلقين واحدٍ من تلك الدروس التركية لشيخ عربي مسكين، يظهر أنّه لم يكن في استطاعته دفعَ إحدى الضرائب الباهظة وغير العادلة التي تفرضها الحكومة العثمانية.

فأوكلتُ مقبلاً بأن يستخبرَ عن بعض المعلومات في شأن أحمد توفيق بيك، فأفادني بأنه كان من بين خدّامي المشير مصطفى عاصم باشا، أي الحاكم العام لليمن . لكنّه منذ سنين مضتْ كان قد خان سيّدَه الذي قام بسجنه . وبعد أن كادَ كيدَه للخروج من سجن صنعاء وأصبح حرّاً طليقاً ، لم ينفكّ عن حياكة نسيجه حتى وجَدَه سيدُّه السابق جديراً ليس بأن يرجع إلى مهمة الخادم من جديد، بل وجده جديرا بأن ينالَ منصبَ حاكم

مقاطعة، وهكذا أصبح قائمقام يريم . تصوّروا أنّه لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة..!

في عام 1879، كما سنرى فيما بعد، خُلعَ أحمد توفيق بيك من منصبهِ وسُجنَ من جديد، ثم أُرسِل إلى القسطنطينية للمثول أمام المحكمة المدنية والشرعية كي يُحاكم على الأعمال التي ارتكبها في اليمن.

ولكون يريم مدينةً بكل الموصفات، بدأت تتراءى لنا النساء المُحجَّبات في الطرقات، لكنهنّ سرعان ما يخلعن الحجابَ إذا ما دخلن بيتاً أو سمسرة، حتى وإنْ تواجدَ رجالٌ كثرٌ في تلك الأماكن؛ هذه العادة هي نوعٌ من الحالة المتوسطة ما بين الحرية المطلقة التي تنعم بها النساء القبيليات، والانضباط الحازم الذي يُفرض بالمقابل على نساء المدن، مثل النساء العربيات في صنعاء . ولم نلاحظ هذا الجانب فقط، بل بدأنا بالتعرف، في يريم، على تلك العادات والتقاليد الخاصَّة بعاصمة اليمن الكبيرة، والتي تتباين بشدّة مع طريقة العيش السهلة والبسيطة التي يَتَمَتَّع بها البدو والقبيليون.

ولذلك فإن النساء اليريميّات اللواتي أتيـْنَ ليبعْنَ لنا فطائرَ الخبز، قد خلعن الغطاءَ عن وجوههنَّ وتوقفنَ بكل راحة للتحدثِ إليَّ وإلى مُقبلٍ وسائر رجال القافلة.

الجمعة 12- انطلقنا عند الخامسة فجراً. مررنا بجانب بئرين شبه جافَّين، ومن ثم دخلنا مجرى "وادي الخاع" (النهر ذو مجرى صعبٍ ما بين الصخور). هنا أيضاً، كان وجود النبات مُنعدماً أو ضئيلاً، ففي بعض الأماكن التي لم تكن الأرض فيها عاريةً كلياً من النباتات كانت مغطّاةً بطحلب رقيق.

كان الطريق نحو الشمال ينحدر قليلاً، فإذن لا بدَّ أن يوجد بين يريم وإبّ وتعز مفترقُ تلك الأنهار التي تصبُّ بعضها

جنوباً (في خليج عدن) وبعضها الآخر غر باً (في البحر الاحمر). وكذلك الجبالُ الممتدّة من جهة الشرق كانت تنتمي بالتأكيد للسلسلة الأساسية التي من المفروض أنْ تفصِل الأنهار التي تصبّ في البحر الأحمر عن تلك التي تضيع في "الربع الخالي" أو هي الأنهار الرافدة الشماليّة لتلك الأنهر البعيدة التي تصبُّ شرق عدن، كما هي حال نهر بنا.

عند العاشرة والنصف، مررنا بـ "نقيل الفار النِبع " (أيّ المعبر الذي تخرج منه المياه الساخنة) على ارتفاع 2357 متراً. وكان هناك صخرةٌ كبيرة انفصلتْ عن الجبل تكاد تعيق المرورَ، ويُطلقُ العرب عليها اسم "ضربة علي "، وتلفِت انتباهَ المسافر بسبب الإجلال الذي يُقَبِّل به العرب تلك الصخرة، ولوجود بقعة زيتيَّة كبيرة في وسط قمّتها. يعتقد العرب بقدسيّة تلك الص خرة لأنّها، كما أخبروني، تذكّرهم بمعجزة. فعندما كان النبي العظيم محمدٌ حيّاً، أرسلَ صه ره عليّ إلى اليمن ليدعو اليمنيين إلى الدين الحقّ. وكان علي يَتَمتَّع، حسب معتقدات اليمنيين العَلويّين أو أتباع علي، بنعمة المعجزات، ويكشف العرب عن آثار تلك المعجزات في أماكن عديدة من اليمن.

وإليكم قصَّة هذه المعجزة عندما كان عليٌّ مُتجِّهاً من يريم - التي كان قد دعاها إلى الدين الإسلامي - إلى ذمار مارًّا بنقيل "الفار - النِبع"، قام الشيطان، الروح السوداء، في محاولةٍ منه لسحق حاملَ كلمة الله، بإلقاء تلك الصخرة الكبيرة من الجبل، عندها قال عليٌّ، وبعد مناجاة الله : «توقَّفي أيتها الصخرة، أنتِ التي أردتِ قتلَ أول أتباع الرسول العظيم، وابقِي هنا للأبد، لتشهدي على قدرة الإله الواحد ». فتَجَمَّدت الصخرة، وفرَّ الشيطان خائفاً.

لذلك، يقوم العرب عند مروره م بجانب تلك الصخرة بتقبيلها مُبتهلين إلى الله، ويأتي القبيليون الذين يؤمنون بالخرافات لزيارة الصخرة كل جمعة، لأنه يصادف فيها ذكرى

مقتل علي، ثمَّ يَصبّون عليها بعض الزيت أو الزبدة بعد أداء أدعية هذه الطقوس.

توقفنا عند الثانية عشرة ظهراً أسفل ذلك المكان بقليل، في المنزل الصغير للعجوز "زينة" (كلمة معناها الجميلة) التي مهنتها تحضير القهوة "قهوجيّة". فهي تمتلك عدداً كبيراً من (الجمين) ومن الفناجين الصغيرة التي تضعها حول فرنٍ صغيرٍ مُغذى بالمحروقات الحيوانية المذكورة سابقاً في غرفة متواضعةٍ تصلح كمأوى للعج وز زينة، أكلتُ لحماً بارداً جلبتهُ معي من يريم وشربتُ كميّات كبيرة من فناجين "القهوة" المغليَّة، التي عادت عليَّ بالخير الوفير، مدفئةً معدتي.

تابعنا مسيرنا عند الظهر ومتى قطعنا عند الثانية والنصف، "ذمار القرن" (أي قصر ذمار) وهي حصن بُنِي على قمّة تلّة منعزلة تعمل كمتراس لمدينة ذمار، بدأنا نركض بسرعة البرق إذ أنَّ زوبعة ثائرة كانت تهدِّدنا . لم يكن باستطاعتنا تفاديها، فهطلت أمطارٌ غزيرة من الغيوم التي كادت تلامس الأرض . استطعتُ بفضلِ معطفي أن أحتميَ من المياه، لكن مُقبل المسكين، الذي لم يكن يملك شيئاً يقيه من المطر، تغطى بغطائي الصّوفي الذي تشبع كليًّا بالماء.

دخلنا عند الثالثة والنصف إلى ذمار، تُرافقنا الأمطار العنيفة نزلنا في سمسرة أكبر حجماً وإنارةً من سمسرة يريم، ولكن لم يكن فيها أيةُ غرفة خاصة للمسافرين. وكما فعلتُ في يريم فعلتُ في ذمار، فأرسلتُ مُقبلاً إلى القائمقام حاملاً معه رسالة من قائمقام قعطبة. حمَّله حاكم ذمار رسالةً أخرى لرئيس جمارك صنعاء، ثم أرسلَ إليَّ أحدَ أبنائه، لتهنئتي ودعوتي لتمضية السهرة عنده . رفضتُ الدعوةَ بلباقة، مُعتذراً بسبب تع ب السفر وعدم التمتّع بصحة جيدة.

شارعٌ في ذمار

ذمار (المدينة الحامية للعلوم والفنون)، التي تقعُ على ارتفاع 2328 متراً، مدينةٌ جميلةٌ يسكنهاحوالي 5000 نسمة، محاطةٌ بأسوارٍ وأبراج، وفيها نصف دزينة من المساجد وحمامان، وبيوتٌ جميلة، يمكن ملاحظة، على واجهاتها، تلك الزخارف البيضاء الشائعة في دور صنعاء، والت ي تشبه التطاريز.

لذمار أيضاً، كما ليريم وصنعاء، حيٌّ لليهود أو "قاع اليهود"، منعزلٌ عن المدينة وبعيد عن المساكن العربية

خلال إقامتي الأولى في ذمار، كنت قد رأيتُ، في الساحة الكبيرة منارةً أو "صومعة"، مائلة إلى درجة تحسبها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى . قيل لي إنها كانت أقدمَ منارةٍ في المدينة. بعد عدَّةِ أشهرٍ، تسببت هزَّةٌ أرضيَّة في تدمير ثُلثيْها،

وعندما مررتُ من جديد بذمار، لم أرَ سوى جزئها السفلي الذي لا يزال قائماً حتى اليوم.

لم أقمْ سوى بنزهةٍ صغيرة في شوارع ذمار النظيفة، ثمَّ رجعتُ إلى السمسرة حيثُ وجدتُ مُقبلاً قد أعدَّ لي عشاءً لذيذاً.

سنَحَتْ لي الفرصة أيضاً بمشاهدة صاحب «فندقنا» وهو يقطع قطع الخشب الكبيرة لاستعمالها في مطبخه . كان يضعُ قطعةً من تلك الأخشاب الكبيرة فوق صخرة عريضة ثمَّ يأخذ حجراً ثقيلاً وكبيراً نسبياً ويتركه يسقط على وسط الخشبة . بعد اثنتين أو ثلاث من هذه الضربات، كان يحصل على مبتغاهُ إذ كانت الأخشاب تنقسمُ إلى نصفين.

عند المساء، أتَت لملاقاتنا بعض المطربات والعازفات القبيليات : كنت قد استلقيتُ للاستراحة، لذلك أمرتُ مُقبلاً بإعطائهنَّ بعض النقود والطلب منهنَّ المغادرة. فقمَ بذلكَ على الفور، لكن ذلك سبَّب خيبةً كبيرةً تَمَلَّكت نفوسَ العرب الذين كانوا يرافقونني.

السبت 13- لم يغمض لي جفنٌ طيلة تلك الليلة، بسبب البرد والرطوبة. وعند السادسة صباحاً، امتطيتُ البغل وخرجنا من المدينة باتّجاه "عدِق" (أفيق) (حيثُ المياه المُستنقعة) التي تبعد مسافة كيلومترين عن ذمار؛ وبوصولنا هناك عند السابعة، توقفنا للتشاور إن كان من الأفضل اتّخاذُ الطريق الأقصر عبر زراجة، أم تلك الأطول عبرمعبر ووعلان. وقع الاختيار على هذا الأخير؛ فالطريق الأقصر إلى زراجة كان يمرُّ وسط مناطقَ قبيليين مستقلّين عن الأتراك وفي حرب معهم، لذا كان من المجازفة المرور وسط قبائل من المحتمل أن تشتبه بأنّنا أعداؤها

وبهذا القرب من صنعاء، تجدَّدت الحالة التي منعتني من المرور في بعض البلاد العربية، نظراً للسلطة الضعيفة والحكم الركيك للحكومة العثمانية في اليمن.

ثمّ توجهنا إلى معبر، وتوقفنا بعد ستة أميالٍ ونصف تقريباً في منزل متواضع صاحبه محمد أحمد وهو قهوجي (مقهوي)،

فتناولنا الفطور هناك. أحضرتْ إلينا القهوة امرأتان، زوجة محمد أحمد وابنته، وكانت الابنة ذات الأربعة عشر ربيعاً في غاية الجمال.

كانت الاثنتان ترتديان عقوداً حَليَّة كبيرة وخرزات أخرى، وكانت تَتَدلَّى منها الحلي والنقود الفضيَّة. كما كانتا تلبسان خواتم فضيَّة كبيرة في أصابعهما، وكذلك في معصَميهما وذراعيهما وساقيهما ورجليهما . كانت الأم مصابةً بالزكام، ولعلاج هذا المرض طلبت من أحمد قاسم (رئيسي الجديد للجمالين، من السَّدَّة إلى صنعاء) بعضَ الزبدة السائلة التي صبَّتها في يدها اليُسرى، وغمست فيها سبّابة يدها اليُمنى ثم وضعتْها في أنفها وتَنَشَّقتْ بقوّة.

انطلقنا عند منتصف النّهار، وبمجرّد اجتيا زنا "بلاد قارة" (التي تنتج الأعشاب الطويلة، على ارتفاع 2250 متراً)، حيثُ ينتصبُ "جبل القارة" (2800 متر تقريباً)، دخلنا "بلاد دارة" (البلدة المُسوَّرة، على2205 متر). يوجد في هذين البلدين وديانٌ واسعة ومزروعة بعناية كانت تطل من على يميننا(من جهة يريم) أعلى جبال اليمن، والتي ينحرف منها ـ شمال معبر باتجاه الغرب ـ الدعامة الكبيرة التي تشكل الفاصل بين وادي تعز والعُدين وإبّ وضوران من جهة، ووديان صنعا ء ومناخة من جهة أخرى، وجميعها تصبُّ في البحر الأحمر؛ الأولى جنوب دهرة بيت الفقيه والأخرى شمالها.

وبلاد دارة مأهولةٌ أكثر من بلاد قارة، فبعد جبال خَدّة التي تحصرُ بلادَ دارة من الجهة الغربية، تمتدُّ سهولٌ خصيبة لبلاد منشرق و(ضوران) و(آنس) التي تشبه في عظمة خصوبتها سهل بنا. كما تأوي بلاد دارة القسمَ الأكبر من المزارعين الذين ينزلون إلى تلك الوديان لحراثة الأرض بأجرٍ بدلَ كميةٍ

وعند الرابعة والنصف وصلنا إلى معبر (أي مكان المرور، المرتفع 2210 متر)، وهي قرية صغيرة مؤلّفة من عشرين بيتاً، فتم أخذُنا إلى واحدة من السمسرات المعتادة.

أخبرني العربُ الذين كانوا برفقتي بالعديدَ من الأشياء القبيحة عن عادات سكان تلك الوديان، إذ يظهر أنَّ نساءَها غيرُ شريفات، حتى ابنة مالك السمسرة التي نزلتُ فيها تلك الليلة، كان الجميع يعلم أنها سُجنَت في صنعاء بسبب فضائح على ملأ من العالَم

عند المساء، عَرضَ عليَّ بعض عر ب معبر أن يحرسوني طوال الليل؛ إذ كانوا يدّعون بأن البلدة كان يعمها قبيليو زراجة.

أجبتُهم عندها بكلِّ الهدوء الممكن، بأني لو استقبلتُهم في حجرتي للدفاع عني لكنتُ على الأرجح، بل بالتأكيد، أدخلتُ السارقين إلى داري، ولكن إن أرادوا الحراسة خارج غرفتي، فلا يسعني إلا أنْ أشكرَهم، وأضفت أنه ما كان عليهم أنْ يأخذوا بهذا الانزعاج، إذ كان بحوزتي بندقيتان جيِّدتان ذات فوَّهتين، ومسدَّس بستِّ طلقاتٍ . ففهموني جيِّداً ورحلوا . أمّا نحنُ، فقد قضينا ليلة هانئة.

الظاهر أنَّ هؤلاء العرب اعتقدوا بأني سوف أسمح لهم بحراستي وهم فـي الخارج، بشرط إكرامهم بريالين أو ثلاثة، ومن ثم متى ما نمت يغادرون، فرحين بمال جنوه بالغش.

الأحد 14- انطلقت القافلة عند السادسة صباحاً. صعدنا قليلاً نحو "ضاف" (مكان إيواء الجمال)، وتابعنا السير في هضبة "يكار " الضيِّقة (أي الهضاب التي تتواجد فيها المياه المالحة ونبات الصفصاف) حيثُ تبدو "قرية النقيل " من هناك (أي قرية المعبر)، الواقعة على قمَّةِ جبلٍ صغيرٍ، وكأنَّها قلعة منيعة. وصلنا عند التاسعة والنصف إلى أسفل الجبل (2327 متراً) فبدأنا صعودَ "نقيل يسلح " (أي الذي يشمخُ بجلا ل)، سالكين طريقاً عرضه ثلاثة أمتارٍ، مُبَلّطاً بالكامل تقريباً بحجارة كبيرة

لونُها أزرق داكن، تعرَّض بعضُه للتلف بسبب المياه، وكانت تعرجاته مريحة للسلك لانحدار طفيف فيها ولتطاولها.

وصلنا عند العاشرة والربع إلى قمّة المعبر (2620 متراً)، حيث لم تكن الرؤيةُ من هناك بعيدةَ المدى، إذ حدّت منها الجبال المُحيطة والتي لم يكن يتجاوز ارتفاعها عن قمة المعبر أكثر من 200 متر (أي 2820 متراً تقريباً).

ثمّ نزلنا حتى "بيسر" (الموجودة على المنحدر، 2395 متراً) وهي قرية صغيرة عند منتصف النهار، وصلنا إلى "بيت الثوم الخضار" (أي دار المزارع القوي، 2330 متراً) وهي أيضاً قرية صغيرة أخرى، وكما أصبحتْ العادةُ توقفنا في بيت صغير للاستراحة ننتظر الجمال التي كانت تقطعُ جبلاً سَلح رويداً رويداً.

ووادي "بيت الثوم الخضار" الصغيرُ يكاد يكون مزروعاً بالكامل بالبرسيم (القضب) الذي ينمو بجمال رائع، بما أنّه من الممكن ري تلك الحقول بالمياه المُستخرجة من الآبار . ويؤخذ البرسيم إلى صنعاء ليُباع فيها

البلاد هنا تُسمّى ببلاد جهران وتَمتدَ من جبال يسلح إلى الشمال قليلاً من وعلان (أي الاستقبال الجيِّد) حيثُ تبدأ بلاد سنحان التي تَحُدُّ مدينة صنعاء.

بديعة هي الطريقة التي يتَّبعها العرب لاستخراج المياه من الآبار لريِّ بساتينهم فكما في لحج وصنعاء وجميع أنحاء اليمن حيث لا وجودَ لمياه جارية دائمة، فعندها طريقة واحدةٌ فقط لسقي الماء. فهناك آبارٌ عديدةٌ محفورة الواحدة بجانب الأخرى، ونَجدُ أمام كلّ واحدة من تلك الآبار حوضٌ واسعٌ وعميقٌ . والآبار في بيت الثوم الخضار تغوص نحو خمسة عشر متراً في الأرض، لذلك نجدُ أمام الحوض مسلكاً ينحدرُ قليلاً إلى الأسفل، ويتراوح طوله بين الـ17 والـ18 متراً؛ أي أطول عادةً من البئر بمترين أو ثلاثة.

وهذه المسالك بالذات ه ي التي تسلكها البغال أو الحمير أو الثيران، التي يُعلّق بها حبلان يحملان (الدلو) الذي يستقي المياه، فتسير الحيوانات نحو الأسفل عندما ترفع (الدلو) الممتلئَ، ونحو الأعلى عندما تتركه ينزل في البئر.

وهناك جهاز معقد من البكرات والحبال والساقيات تعمل بحيث يمتلئ الحوض بالماء المحمول في (الدلاء) الصاعدة، ومن ثم يتم فتح مسد الحوض ليجري الماء في وقنات الحقول متى ما أُريدَ ريّها

غادرنا عند الساعة الثانية، وبعد نصف ساعة بدأت أمطا ر خفيفة بالهطول، ورافقتنا حتى وعلان (2270 متراً)، وهي قرية صغيرة مؤلّفة من حوالي عشرة بيو ت وقد وصلنا إليها في الرابعة عصراً وقضينا الليلة فيها.

و يعتبر العرب والقبيليون الآخرون سكانَ تلك البلاد (من ذمار إلى صنعاء) ذوي سمعةٍ سيِّئةٍ، ويصفونهم بالمحتالين والسارقين؛ وحتّى أنا نلت نصيبي من خبثهم.

فكان قد وصل العديد من الناس الذين نزلوا في نفس السمسرة التي كنت أنزل فيها. وقيل لنا إنّه ما كان بوسعنا إيجادَ أيَّ بيضٍ أو دجاج في القرية ذلك النهار، فاتفقنا إذاً كلُّنا على شراء خروفٍ كبير لنتقاسمه فيما بيننا، فنأخذ أنا ورجال قافلتي النصف، ونترك لهم النصفَ الآخر.

فأخذتُ لناحيتي سبعَ قطع كبيرة لوجبة ال عشاء ولفطور الصباح التالي، من بينها القلب والكبد، والكِلى؛ وأعطيتُ ما تبقّى لمُقبل ولرجالي، ثم سلّمتُ قطعي السبع لصالح أبّاح صاحب السمسرة لكي يطهوها.

عندما طُهيتْ كلُّ القطع لم يقمْ صالح أباح بإعطائي سوى أربعٍ منها، فكانت تنقصُ الكِلى والقلب وقطعةٌ من العض ل. وعندما طلبت منه تفسير ذلك، تظاهر بداية بالاستغراب ، وبدأ

رويداً رويداً يثورُ غضباً من جرّاء التشكيك بمصداقيَّته واعتباره سارقاً، من ثمَّ أخذ يشكو الافتراءَ الموجَّه إليه.

لإنهاء الجدال، إذ كان مُقبلٌ قد بدأ هو أيضاً بإهانته، صرختُ فيه قائلاً: "أسكتْ يا سرّاق... براك قلتْ لك ... ما ثردّ حتى كلمة...الله يصيبك وروح لجهنم... يا كلب واحد!..."

فسكتَ مُتعجِّبا من فصاحة تلك الجمل العربية، فقلتُ له عندها بأني حالما أصلُ إلى صنعاء سأتحدَّثُ إلى الحاكم مطالباً إياه بالعدالة. فطلب منّي السماح، قائلاً بأنهُ ربما قد قام بذلكَ عن طريق الخطأ، لكثرة الفوضى في تلك الليلة. ولكن بعد ما علمت بأنَّ القطع التي سرقها منّي قد قام ببيعها للعرب الآخرين المتواجدين في السمسرة، لم أدفع له في الصباح ما عليَّ مقابلَ الإنارة والسكن، فما كان منه إلا أن تقبَّل الوضع على مَضَض.

عند المغيب، أنعكس شعاع من الشمس على الغيوم، فألبسها حلَّةً صفراء ساطعة، إلى درجة أن الأرض بأكملها والجبال والبيوت وحتى الرجال أصبحوا يتلألئون باللون الأصفر . فكان فعلاً تأثيراً رائعاً أوقعه ذلك الضوء، ودام ربعَ ساعة على الأقل.

قلت إن وعلان تعني «الاستقبال الحسن »!، لكن لم يقم سكانُها، أو بالأحرى القهوجي صالح أباح، بتكريم هذا الاسم.

الاثنين 15- في الصباح الباكر غادرنا وعلان ممتطين الجياد ركضاً . فكانت تفصلنا مسافة 25 ميلاً عن صنعاء . إلى الأمامِ، فلنَتَحَلَّ بالشجاعةِ ! كان ذلك اليوم آخر يوم السفر . تركنا على يميننا قرية "مِعور" (أي سد النهر السائل)، ومن فوقنا- يساراً - قرية رأس وعلان، ثمَّ مررنا بالقرب من قرى أخرى، ووصلنا عند العاشرة والربع إلى "المحاقِر" (المكان المُحصَّن بالحجارة)، حيث كانت مروجها مزروعةً كاملةً بالبرسيم. وهنا توقَّفنا برهة من الوقتِ.

واصلنا بعدئذٍ السير، ودخلنا بعد نصف ساعة إلى حزيز، حيث مكثنا حتّى الظهرِ في دار الحاج علي لانتظار الجمال وتناول القليل من الطعامِ.

ينبع الغيل الأسود من حزيز، حاملاً المياه إلى مستشفى صنعاء بعد أنْ يلتقي قريباً من المدينة بالنهر الذي ينبعُ من جبلِ حدة غرباً.

عند الثالثة عصراً بعد ركضٍ سريع، دخلت من باب اليمن إلى المدينة الكبيرة والمشهورة صنعاء، التي كنت أنظرُ إليها وكأنها أرضُ الميعاد الجديدة، أو على الأقل المكان الذي أستطيع فيه الاستراحة قليلاً، والشفاء من كلِّ تلك الأمراض التي تربصت بي طوالَ الطريق في رحلتي الأولى هذه.

VIII

مدينة صنعاء- الانطباعات الأولى- البيوت- قنواتٌ وسخةٌ - أجدُ بيتاً لي - ليلةٌ تعيسة - البقّ - أقع من أرجوحة النوم - البنّاؤون والمبيِّضون- زياراتي إلى السلطات.

من الخامس عشر من أكتوبر **1877** إلى الثاني والعشرين من مارس **1878**- أولَ ما دخلت صنعاء «الباهرة»، ساقوني إلى "مخازن الرُّبالي"، عند العربيّ حسين بن أحمد الرحبي، ابن أخ الحاج حسين الرحبي من عدن، الذي وضع بعض الغرف تحت تصرفي. وبعد ذلك بقليل، ذهبنا سوياً إلى الجمارك، حيثُ سمح لي حافظ أفندي رئيس تلك المصلحة، وبكل لطف، أن أنقل كل صناديقي إلى مخازن حسين، إذ لم يكن باستطاعته المجيء للتفتيش الجمركي إلا في اليوم التالي . وعندما قدَّمت له كلَّ مفاتيح صناديقي رفضها، قائلاً إنه لو فعل لعنى ذلك نقصاً من الاحترام تجاهي.

في النهار التالي، أتى حافظ أفندي إلى مخازن الربالي فتظاهر وكأنه يؤدي واجبه بتفقُّد بعضٍ من صناديقي . وكان واضحاً أنَّ رسالة القائمقام كانت قد أدت غرضها.

وبعد أنْ قلتُ لحافظ أفندي إنَّ القسم الأكبر من حمولتي لم يكن إلا معدّاتٍ خاصة بالتصوير، طلب منّي هذا الأخيرُ وبإلحاحٍ كبير، أن أعمل صورة شخصية له، فور ما أنتهي من ضبط أغراضي. قبلتُ طبعاً طلبَه بكلِّ طيب خاطر، وحافظت لاحقاً على هذا الوعد المقطوع.

وبعد أن أنهيت أموري مع مصلحة الجمارك المركزية لليمن، أصبح همّي الوحيد إيجادَ بيتٍ لي، أستطيع فيه، إضافةً إلى الإيواء إليه إقامةٍ مريحة، أن أنكب مرتاحَ البال على دروسي وأشغالي. لذا أمضيتُ أياماً عديدة وأنا أبحث عن هذا السكن. وخلال تلك الجولات التي رافقني فيها دائماً حسين بن أحمد الرحبي، استطعتُ تكوين فكرةٍ أولى عن مدينة صنعاء والحصول على أخبار ومعلومات مهمّة . واليكم انطباعاتي الأولى، أنقلها لكم كما وجدتها مُدوَّنة في كُتَيِّب مذكراتي:

- المدينة تبدو لي جميلة جداً، فالبيوت رائعة وكبيرة - هذه البيوت مبنية بأكملها بالحجارة المقطَّعة والآجُرّ- وهذا الآجر جيد الصنع ومتين جداً، لونه أحمر بنيّ: وله الشكل والحجم الكبير الذي نراه في الآثار الرومانية.
- الطرقاتُ الواسعة والجميلة نظيفةٌ جداً . إنَّ البيوت المرتفعة جدًّا، تعطيها الحجارة خلفية رمادية، وخلفية حمراء بُنية يعطيها الآجر ، والنوافذ والواجهات، والأشكال الزخرفية البيضاء، كلها تعطي تأثيراً سحريًّا وباهراً تحت ضوء القمر ، عندما أتواجد في حيّ المقاهي التركيَّة ، والدكاكين اليونانية، يخيل إليَّ وكأنني في ضاحيةٍ أوروبية.
- البازار العربي يشبه تلك الموجودة في المغرب : نفسُ الدكاكين الصغيرة التي ترتفع متراً ونصف عن الأرض، والتي بداخلها عربيٌ مُحاطٌ دائماً بقدر من البضائع لا أفهم كيف بإمكانه أن يتحرك.
- ألتقي بجنود أتراك في كلَّ مكان . ما يدهشني ويزيد من عطفي نحو هؤلاء الفلاحين المساكين البعيدين عن وطنهم وعائلاتهم، هو بالأخص سلوكُهم . فهم لطفاء مع العرب المغزوين، ولا يحدث أبداً أيُّ صِدام ولا أية مشاجرة . والجميع يمدح هذا التصرف.

- العرب الذين ألتقي بهم أنيقون وجليلون . يبدو وكأنهم لا يهتمون أبداً بوجود أجنبي غريب. عندما يُسلِّم أحدُ المعارف أو الأصدقاء على حسين يسأله عمَّن أكون أنا . عندها يقوم بتحيَّتي ويصافحني.
- لا ألتقي إلا بنساء محجَّبات، وهذا يؤسفني كثيراً.
- أرى في كل الطرقات العديد من الكلاب، جاثيةً تحت الشمس، وخصوصاً وسط الساحات.
- التقي أيضاً بالعديد من الضباط الأتراك، الذين بمرورهم يتركون وراءهم رائحةً زكيةً للسجائر التي يدخنونها كالفنانين المحترفين.
- يعجبني اتساع بعض المساجد.
- التقيت يوماً بطبيبٍ يونانيّ، أتسَّاكي أفندي، الذي قدّم لي فنجاناً من القهوة الممتازة (وأصبح بعدها صديقاً طيِّباً لي).
- وفيما يخصُّ اليونانيين، لديهم دكاكيُن مليئةٌ بكل ما يحتاجإليه المرء، وتتواجد تلك الدكاكين في "البازار" الموجود شرق "السوق" العربي. ووجدتُ في تلك الدكاكين : عيدان الثقاب، ورق لفّ السجائر، علب سردين، شموع، مُلمِّع الأحذية، أجبان ، أرز، بطاطا، زيتون ، صابون، جوز، بندق، لوز ، زجاجات مخللاتٍ، جميعُ أنواع الكحول، نبيذ، بيرة، بسكويت، حلويات والعديد من المأكولات الأخرى . وفي بعض الدكاكين اليونانيَّة في صنعاء، نجد أيضاً الملابس، والقمصان، والسراويل، والجوارب وجميع أنواع الملابس الداخلية . في أماكن أخرى تُباع العصيُّ، والمظلات، والمصابيح النفطية، والشمعدانات، والكؤوس، والقوارير، وأدوات المائدة، والصحون الفخارية، والمرايا إجمالاً نجد في صنعاء كلَّ ما يحتاج إليه ، وما هو ضروري للأتراك وعائلاتهم.
- كلُّ هذه البضائع مستوردةٌ من قبل بعض اليونانيين الذين عملوا سابقاً في بناء قناة السويس، والذين بعد انتهائهم من هذا الإنجاز

الجبار انتشروا من منطقة (سواكن) في السودان، و(مصوع) في أثيوبيا، والحديدة في اليمن، ليصلوا إلى هنا مع كميات كبيرة من البضائع وبالأخص تلك الضرورية للأتراك ولذلك فهي سهلةُ البيع. وقيل لي إنهم بهذه الطريقة يجنون الكثيرَ من المال. (وجب عليَّ لاحقاً الاقتناع بحقيقة هذه المقولة).

- يوجد في البازار مقهيان تركيان، ومقهى يونانيٌ واحدٌ فيه بلياردو، ومحلان للحلاقة، وثلاثة محال للخياطة ومحل ساعاتي.
- فيما يخصُّ سياسة البلد: الحاكم العام لليمن أي المُشير باشا هو معالي مصطفى عاصم. وهو مُسلمٌ، من مواليد كاندية [هيراقليون]، ابنُ مسيحيٍّ مرتد كان بدوره باشا منطقة يتّينا وطرابلس الغرب.
- مصطفى عاصم شخصٌ مُثقفٌ جداً، يتكلمُ اللغة الفرنسية بإتقان وطلاقة، وتطيب عشرته كثيراً.
- يأتي في المرتبة الثانية حاكمُ صنعاء إسماعيل حقّي، وهو رئيس المجلس أي رئيس باشا، من مواليد بودغوريتشا في الجبل الأسود، والذي قضى شبابه في معاهد باريس العسكرية. وهو مثال الرجل المهذب المؤدب.
- قائدُ الميدان والجنود هو اللواء حميد موسى باشا، سوري الأصل. كما أن هناك قائداً للمدفعيَّة، وقائداً للأركان الحربية.
- مسؤول المراسلات - مِفتوبشي أفندي - هو إسماعيل بيك، من مدينة سكوتاري الألبانية. يتقن عدَّة لغّات، يتكلم جيِّداً اليونانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية: إنه شخص مثقَّف ولبق.
- يوجد هناك مكتبٌ للبرقيات يوصّل صنعاء بالحديدة، على خط من المفترض أن يربط عدن أيضاً، لكن ذلك استحال بسبب الحرب. وللسبب نفسه توقفت أعمال شقّ طريق مُعبَّدٍ من هنا إلى الحديدة.
- هناك مستشفى عسكري رائع، وثكنات جيدة للجنود.

- خدمات البريد ما بين صنعاء والحديدة تتم بانتظام بإرسال ووصول أسبوعي.
- في المدينة عربةٌ واحدة : تلك التي يملكها المُشير، يجُرُّها حصانان أبيضان رائعان.
- هناك جياد عربية رائعة، وحمير تركض وتعدو كالأحصنة.
- وصفٌ لمدينة صنعاء للرحالة كروتّْدِنْ (Cruttenden)، والوارد في كتاب دس فيرغيرس (Des Vergers) عن العالم العربي، يُبيِّن أنهُ لو تواجد هذا الأخيرُ حقاً هنا فلا بدَّ أنهُ قد رأى مدينةً ضِعْفَ ما هي عليه الآن! فأين هم الأربعون ألف نسمة في صنعاء؟ أين هي الجوامع التي تتنافس فيما بينها من حيث الفخامة والغِنى؟ أين هي القبب المُذهَّبة بالكامل؟ أين النوافير العديدة التي تَمُ دُّ المدينة بالقليل من البرودة، حاملةً المياه من السهل؟ وأين هي المدينة الجديدة؟
- لا وجود في صنعاء إلا لقناة مياه صغيرة تخدم المستشفى، شُيِّدتَ مؤخَّراً من قبل الحكومة التركية . ولا وجود لأية نافورة في المدينة، إنما هناك آبارٌ فقط يُستخرج منها الماء بالطريقة التي وصفتها سابقاً. وكيف يمكن أن تكون صنعاء، التي تعلو **2130** متراً عن سطح البحر، بحاجة إلى البرودة؟ هنا عادةً، تبقى النوافذ مغلقة، لأن الجو حارٌ تحت الشمس، لكنه باردٌ في الظل. كما تبقى الشبابيك مُغلقةً دائماً في بيوت الأتراك، حتى تلك المُطلة نحو الجنوب.
- في الحديدة وعدن وعلى طول الساحل يكون الطقس حارّاً، أما في صنعاء فبالتأكيد ليس كذلك . وأية مياه يستطيع إعطاءها هذا السهل القاحل المليء بالحجارة؟ ولْنَتَجنَّب الحديث عن فخامة المساجد وعن القِبب المُذهَّبة . إنها مجرد أحلام. أنظروا إلى الرسومات المستخرجة من صوري.
- ويتبين بوضوح أن كروتّْدِنْ لم يطأ أرضَ صنعاء أبداً عند الصفحة **38** من الكتاب المذكور سابقاً : «إنَّ جفاف الطقس سيئٌ في المخا)، وهو أسوأ في صنعاء . هنا لا وجود حتى

للندى خلال الليل، والهواء الذي يضرب الوجه أو اليدين، متى كانت مكشوفة، يُسبِّبُ حالة من الحمّى. ليس من النادر، في وديان البلاد العربية، رؤية مقياس الحرارة ودرجاته تعلو في الظلّ، لتصل إلى الأربعين مئوية، يبقى الحال هكذا طويلاً، ويخفّ قليلاً فقط خلال الليل . وهذا الانقطاع لأية برودة خلال النهار، يسلب كل الطاقة، يُضعف الأعضاء ويُدمِّرُ رويداً، رويداً حتى أقوى الأجسام».

- كل ذلك حقيقةٌ مطلقة بالنسبة للوديان القريبة أو القريبة جداً من البحر، ولكن الأمر ليس كذلك للبعيدة عنه . فعلى بُعد خمسين ميلاً عن البحر تكون الوديان في اليمن باردة نسبيًّا، إذ أنها هضاب بكل معنى الكلمة.
- ثم أن هناك شيئاً يجرح شعور المسافر عند أول دخوله إلى صنعاء، ولم أرَ أحداً قد ذكره من أولائك الذين يدَّعون أنهم زاروا المدينة، وهو أن قنوات المنازل المستعملة لصرف السوائل، مثل مياه المطبخ والمغاسل، ...الخ، تكون خارجية أو على الأكثر محفورة عمودياً بتماس حائط المنزل، لك نها دائماً مكشوفة.
- باستثناء بعض منازل النبلاء الأتراك، فإنَّ لجميع بيوت صنعاء أحزمة بيضاء تحدد تلك القنوات على الجدران الخارجية، ونرى جريان المواد السائلة فيها، من الأعلى إلى الأسفل، لتَتَجَمَّع في حوض ، ويتم بعد ذلك تصريفها إلى تحت الأرض بواسطة مجرى صغير.
- لم أرَ قط منظراً أكثرَ بشاعةً واشمئزازاً من هذا، الذي، إضافةً إلى تسميم الهواء، يتناقض بشكل غريب وقبيح مع الزخرفة الجميلة للمنازل.
- وتفاجئ هذه الظاهرة الأوروبيَ الحديثَ الوصول، إلى درجة أنه يبدو من المستحيل عدمُ ملاحظة ذلك لمن ادعى أنه قدم إلى هنا.

وأخيراً وجدت بيتاً ما بين مسجد المدرسة ومسجد الطواشي ، مقابل دار إسماعيل حقي باشا، وكان بيتاً جميلاً ومريحاً مؤلفاً من ثلاثة طوابق ، وفيه اثنتا عشرة حجرة، ودرجان وإسطبلان، وحديقة صغيرة ... وكلّ ذلك مقابل أربع ة ريالات شهرياً.

لكن مسكني الجديد هذا، كان مهجوراً منذ وقتٍ طويل لذا وجدته غير مرتب ووسخاً، وفيه الكثير من الغبار . فكان همّي الأول أن أنظفه بالكامل و أبيضه وأرتبه ؛ فأرسل حسين على الفور وراء المبيِّضين، وفي نفس الوقت أخذ الحمالون بتكنيس السلالم والغرف . لكن لم نجد مُبيِّضين مُتوفَّرين ذلك اليوم، فقاسيت الكثير تلك الليلة بسبب غيابهم.

فأول ما حلَّ الليلُ استلقيت على بعض السجاد، لأني لم استطع تجهيز سرير . وما أن أطفأت المصباح لكي أنام حتى هاجمتني الملايِيُن والملايِيُن من البَقّ . فنهضت على الفور ورأيت طوابير طويلة كطوابير النمل لتلك الحشرات المقرفة، وكانت تتحرَّك وتجري على الجدران والسقف والأرض في جميع الجهات . وكانت تلك الطوابير تطول وتطول وكأن لا نهاية لها، إذ كان خروج تلك الزواحف النَّتِنة متواصلاً من ثقوب الجدران.

فقمت بملاحقتها وسحقها بالأحذية أينما يقع نظري عليها على الحائط والأرضية؛ لكن دون جدوى، إذ بدا لي بأن ضربات الأحذية على الحائط وعلى الأرض، لم تفعل شيئاً سوى إيقاظ بقية البَقّ الأكثر نوماً والتي سارعت بالخروج أفواجاً أفواجاً من ثقوبِ الحائط، فتركتها على حالها.

فغرزتُ مسمارين كبيرين في جدارين مقابلين للغرفة ووصلت بهما سريري المعلق . وأخذتُ من الصناديق التي لم تكن قد تلوَّثت بعد "بالكتن " (البقّ)، بعضَ الثياب الداخل ية والألبسة، ثم وقفت على إحداها ونشرت من حولي مسحوقَ

الفلفل، فخلعتُ ملابسي وارتديتُ تلك النظيفة . بعد ذلك وبحذرٍ شديدٍ، صعدت من الصندوق إلى السرير المعلق.

بيت الخواجة رينزو مانزوني الطلياني،
بيتي في صنعاء.

لم تأت تلك الطُّفيليّات الشنيعة لإزعاجي، فكيف بإمكانها مهاجمتي في سريري الهوائي؟ ولم أنس حتى أن أرشَّ مسحوق الفلفل على الحبال التي تصل السرير بالمسامير . فغفوتُ. بعد وقتٍ قليلٍ، صحوتُ جرّاءَ ضربةٍ قويةٍ أصابتني في أسفلِ ظهري . كان قد سقط أحد المسمارين فوقع السرير المعلق

أرضاً، جارًّا معه ضيفه. فبدا وكأنَّ البقّ لم تكن تنتظر إلا هذا، إذ أصبحت فوقي بلمحة بصر .. فعَدَلتُ تلك الليلة عن النوم واستسلمت، واكتفيت بالتمشي على الشرفة.

أتى أخيراً الصباح المنشود ومعه البناءون والمُبيِّضون المُنتظرون طويلاً. قام البناءون بأمر مني بفتح بابٍ إضافي ما بين غرفتين، وجهَّزوا لي فرناً لأدواتي الكيمائية . من حيث المعدات لم يكونوا يملكون سوى مِطرقةٍ بدا شكلها وكأنها من قبل التاريخ، يستعملونها لكَسرِ الحائط والآجر . وكان العمال يمسكون الجص بأيديهم، حيث أنَّه لا يُستعمل الجير في صنعاء، ويمزجونه بالماء ثم يضعه البناءون على الحائط ببسْطِهِ باليدين كذلك، ناصبين الآجرة في المكان المخصص بلَكْمَةٍ قوية عليها.

كان المبيضون كذلك يجهزون الجص الأبيضَ باليدين داخلَ وعاءٍ من الفخار. عندما ينتهون من الأول، يجهزون واحداً آخر، وهكذا دواليك . في تلك المياه، أردتُ وضع كمية كبيرة من حامض الفينول، إذ لم أكن مُقتنعاً تماماً بأن الجص وحدَه يستطيع أن يخلصني بالكامل من البقّ . وبهذه الطريقة حصلتُ على النتيجة المطلوبة.

إنَّ المُبيِّضين في صنعاء لا يملكون الفراشي، فهم يقومون بعملهم مستعملين الخِرَق. واليكم كيف: إنهم يضعون في نصفِ قرعٍ فارغ يُشبه العود، خلطة الماء والجص التي حضَّرها العمال، فيمسكون نصف القرع في اليد اليسرى ويغمسون الخرقة بيدهم اليمنى، ويحكون بها على الحا ئط وكأنها أسفنجه. ولديهم سلالم خشبيةٌ شبيهةٌ بالتي عندنا، يسندونها على الحائطلتبييض السقف، يتَّبع ه ؤلاء طريقةً أكثرَ غرابة. بعد ملء نصف القرعة بالسائل الأبيض، يمسكونها بيديهمالاثنتين، ويبدؤون بتحريكها حركةً قوية نصف دائرية، من الأسفل إلى الأعلى، ثم يقذفون السائل على السقف. تقع بعد ذلك آلاف وآلاف من القطرات، فتكتسي سواعد وثياب ووجوه ورؤوس المبيضين باللون الأبيض، إلى درجة أنَّ ه ؤلاء العاملين يُشبهون أشخاصاً مُقنَّعين بالطحين

في المغرب، يقومُ ال يهود بمهنة التَّبييض، إنما هناك يملكون، كما الحال عندنا، فراشياً موصولة بقضبان طويلة ودلاء يضعون فيها الكلس الأبيض.

عندما تنتهي عملية تبييض السقف والجدران، يقوم الصنعانيون بتبييض الأرضية أيضاً، وحين تجفّ، يحكونها بقوةٍ بباقات من البوسيم (القضب) الأخضر، إذ يقولون إنَّ لعصير البرسيم مفعولاً فتّاكاً لإبادة الحشرات.

تم تنظيف بيتي في نهارٍ واحدٍ فقط، وأصبح جاهزاً لاستقبال بقية الأمتعة التي ما زالت في "المخازن". في النهار التالي، وبمساعدة خدمتي، رَتَّبتُه بالكامل وجهَّزتُ منزلي.

اخترتُ بالطبع الدورَ الأخير ليكو نَ مسكني الخاص، إذ يُعتبر هذا الطابقُ عند عرب صنعاء الأفضل في البيت، من حيث فساحة الغرف وحجم نوافذها.

كان للطابق الثالث والأخير، أربعُ غرفٍ كبيرةٍ نسبياً، تطلُّ على شرفة جميلة، حوَّلتها فيما بعد إلى صالة لالتقاط الصور . ومن تلكَ الغرف الأربع جعلتُ واحدةً تستخدم لمجلس الاستقبال، والثانية للنوم، والثالثة مشغلاً لمعالجة الصور معكوسة الضوء، والرابعة لمشغل التحميض.

في غرفة الاستقبال، والتي كانت تستخدم أيضاً كمكتبٍ، وضعت طاولة وكرسيين، طلبت صُنعها خصيصاً في صنعاء . الغرف التي خصصتها للتصوير رتبتها على الطريقة الأوروبية باستخدام بعض الألواح والعوارض الخشبية . أما بقية أرجاء المنزل فجعلتها مخازنَ لوضع أغراضي وغرفاً للخدم.

في آخر غرفة الاستقبال، جهزت أريكةً بوضع صندوقين جنباً إلى جنب وغطَّيتهُما بفرُش صغيرة ثم وضعت فوقها قطعاً من القماش الملون، كنت قد حملتها معي من عدن.

في غرفة النوم، جهزت السرير- الذي لا غنى عنه- بوضع مِصْراعين كبيرين لبابٍ كان لمخزن المنزل ، فوق صندوقين

فارغين، ثم وضعت فوق المصراعين الفُرُش والوسائد والأغطية.

بعد ذلك زيَّنتُ جدران تلك الغرفتين بأقمشةٍ عدنيةٍ من القطن المُلوَّن، مثبتاً إياها على الحائط بواسطة المسامير. وحتى حولَ السرير كنت قد وضعت قطعةً رائعةً من قماش القطن كي تغطي الصندوقين، لتعطي طابعاً من الفخامة والثراء.

وجعلت صناديق أخرى صغيرة مُغطّاة بأقمشة من القطن، تصلح كطاولاتٍ ومقاعدَ صغيرة . ووضعت على الأرض في كل مكان سجاجيدَ صنعانيةً، وعلى طول أسفل الجدران فوُشاً ووسائد، كما هي العادة في البيوت العربية.

أقمتُ في صنعاء، المرة الأولى هذه، مئةً وستّين يوماً؛ من الخامس عشر من أكتوبر **1877** إلى الثاني والعشرين من مارس **1878**.

وكي لا يسأم القارئ من أخبار حياتي اليومية، إذ لم أكن أعيد وأكرر إلا الأشياء نفسَها، سوف أروي باختصار كيف استُقبلت وعومِلتُ في صنعاء؛ ثم أنتقل بسرعة في الفصول المقبلة إلى وصف كامل للمدينة، والتحدث عن عادات وتقاليد سكانها، وسوف أتطرَّق أيضاً بطريقةٍ وجيزة إلى الحديث عن التاريخ السياسي لليمن.

كان من بين رغباتي العديدة التقاطُ بعض الصور، خصوصاً لمناظر تلك المدينة، فكان لا بدَّ من تقديُم نفسي وطلب الإذن من المسئولين؛ والطريقةُ اللطيفةُ التي عُوملتُ بها من قبل قائمي مقام ذمار وقعطبة، ومن رئيس الجمارك، والعديد من الضباط، شجعتني على القيام بذلك، فـ تقدمتُ إلى معالي الرئيس باشا إسماعيل حقّي يوم **28** أكتوبر. وكان خيرَ ما فعلت.

فاستقبلني هذا الرجل ذو المعاملة اللطيفة بأشدِّ لياقةٍ ومحبّةٍ، وأحْرَسَنِي فوراً بثقةٍ كبيرة تجاهه . ومتى عرف غاية سفري، وعدني بتقديم المساعدة والحمايةتحدَّثنا كثيراً، ولأكثر منساعة.

ولم يَسْمَحَ لي بالتقاط الصور فقط، بل عبَّر عن رغبته بتصوير بيته الجميل والحديقة التابعة له، وهذا ما قمت بتحقيقه فيما بعد.

ولفرط لُطفِهِ، أراد أن يهتمَّ بي ابنُ أخيه إسلام أفندي، ولم يقصر الأخير أبداً عن إفادتي، وعاملني دائماً بصداقةٍ عاليةٍ، وأصبحنا بالفعل صديقين.

إسلام أفندي يتكلَّم ويكتب جيِّداً اللغة الفرنسية، ويعرف التاريخ المدني والطبيعي، وعلوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات؛ وهو شابٌّ مليءٌ بالذكاء . أصبح تلميذي في التصوير وعلَّمني بالمقابل اللغة التركية.

ولحسن حظي، كما أسلفت، كانت داري قريبةً من دار الرئيس باشا، لذلك استطيع القول بأني أمضيتُ فترة إقامتي في صنعاء برفقته ورفقة ابن أخيه إسلام.

وأولُ زيارةٍ قمت بها بصحبة إسلام أفندي، كانت طبعاً إلى بيت عمِّهِ الجميل ومكتبته الغنيَّة . وفي اليوم التالي **11** نوفمبر **1877** ذهبنا سويةً لرؤية قصر قديم لسلطان [يبدو أنه قصر غمدان]، الذي أصبح الآن ثكنةً عسكريةً، وكان من أعلى العمارات في صنعاء.

قصدنا بعد ذلك جبل نقم، في الثاني والعشرين من نوفمبر . كان يرافقنا السيد جيوفاني استوياديس- يانكو أفندي- رائدٌ في الطاقم الطبّي. فكانت نزهةً حقيقيةً سارَّة.

جمعت خلالها الحجارة والشجيرات القليلة المتواجدة على طول الطريق. تَمَتَّعنا من على القمة (على ارتفاع **540** متراً

تقريباً عن صنعاء، أيّ **2670** متراً عن سطح البحر) بمنظرٍ خلاّب يطلُّ على سهل صنعاء وعلى الجبال التي تُتَوِّجُ المدينة . عند الثانية ظهراً، أشار مقياس الحرارة إلى **16** درجة مئوية . كان الطقسُ بارداً بعضَ الشيء .

وهكذا رأيت تقريباً كل سهل صنعاء، الذي يوجد فيه مدينة الروضة أيضاً.

بعدَ أيامٍ قليلة، التحقَ بنا حافظ أفندي، وعمر أفندي، وهو صاحب متجر ثري، وذهبنا خارج صنعاء مسافة بضع ساعاتٍ، عند أسفل جبل حدَّة، في وادٍ غنيّ بأشجار المشمش والجوز.

كان هناك جدول يحركُ طاحوناً في غاية الجمال قد شيَّدهُ الأتراك، وكان القليل من الجنود، تحت إمرة "شاويش"، يقومون بمهمة الطحانين.

كان إسلام أفندي قد أمر بأن تجهز الفرقة الموسيقية للجيش نفسها عند رجوعنا . فتمكنت هكذا من حضور حفلتين موسيقيَّتين.

من بين الجمائل الطيبة التي حظيتُ بها، أحبُّ ذكر التالية:

أراد إبراهيم بيك، نقيبٌ في الأركان الحربيّة وتلميذي في التصوير، بمناسبة وليمةِ غ داء أقيمت على شرفي، تقديَم قالب رائع من الحلو ى التركيةِ، كُتِبَ عليه بطريقة مثالية «فلتحيَا إيطاليا»، فصافحت يده بكلّ الرقة التي ملأت قلبي.

ومساء الأحد **23** ديسمبر **1877**، دُعيتُ إلى وليمةٍ رسميّة عند الرئيس باشا. كان من بين الحضور الباشا القائد الميداني والعديد من الضباط والمفتي العسكري. وبما أن ذلك النهار كان يُمثّل ذكرى لعيدٍ غالٍ على الأتراك، وهو عيد دولتهم، فكَّرت بإضاءة حديقة الباشا بواسطة المغنسيوم البراق.

في منتصف السهرة، وكلنا را فعين كؤوس نبيذ البوردو الفرنسي لشُربِ نخبٍ، قال الرئيس إسماعيل حقّي باشا متوجِّهاً إليّ: «أشرب نخبَ صحةِ وهناء وازدهار إيطاليا، وعلى صحة وهناء ملكها فكتور إمانويل الثاني».

وهكذا، قبل يومين من عيد الميلاد لعام **1877**، في قلب اليمن، شُرِبَ نخب ملك إيطاليا الشَّهم، الذي يحمي اسمهُ في أقاصي الأقطار كل من يخضع لسلطته . فشربتُ بالمقابل على صحة تركيا وسلطانها وانتصاراتهم.

بعد ذلك أصبحتْ في متناولي مكاتبُ الأركان الحربية التركية في اليمن، وبالتالي خرائطها التي استعملتها بحرية.

وتم تجهيز الحدائق عند العُرضي (أي الثكنة) وطواحين المُتوكل بناءً على رسوماتي.

وصلتني من ميلانو كميَّةٌ كبيرةً من بذور الزهور والخضار، فأعطيتُ منها لكل ملاكي الحدائق والبساتين، وللمرة الأولى، في عام **1877** أثمرت صنعا ء شتى أنواع البقوليات والسلطات والزهور الرائجة في إيطاليا.

ولم ينقصني وقتٌ للذهاب إلى الصَّيد في الحقول والغابات المُتواجدة بين صنعاء و الروضة. وحصيلةُ أوقات الصيد هذه : حجلان ، وأرانب ، بكميات هائلة. كما اصطدت الأيائل على جبال نقم.

XI

مدينة صنعـاء

تنقسم مدينة صنعاء، التي تعتبر المدينة الرئيسية في اليمن ، حيث إنها كانت العاصمة السابقة لمملكة الإمامة، وحالياً مركز الولاية التركية في القسم الجنوبي الغربي للجزيرة العربية (اليمن وعسير)، تنقسم إلى ثلاثة أقسام مُنفصلة، كل منها مُحاط بأسوار.

وهذه الأقسام هي:

- مدينة صنعاء الفعلية، "صنعاء المدينة "، الواقعة شرقاً ، وتحتوي على "القصر" الذي يقع في حدودها الجنوبية الشرقية.
- "المتوكل" الذي يقع في الوسط.
- "بير العزب"، و"قاع اليهود"، غرباً، وهما حيّان كبيران، الأول كله حدائقٌ، والثاني يشكل منطقة سكن اليهود.

وهذان الحيان أيضاً "الحمى" محاطان بالأسوار "الدَّائر" الذي يحوي العديدَ من الأبراج والدعائم المخروطية "الزُّوَب". وجميع هذه الأبراج والأسوار مبنية من الطين والحصى باستثناء بعض الأبراج المبنية من الحجارة المقطعة . إن تربة صنعاء الكلسيَّة عند امتزاجها بالماء، تتصلَّب بشدة مع مرور الوقت لتصبح شبيهةً بالصخر . وتعطي الحصى المضافة إليها طابعَ الجلاميد الضخمة للأسوار المنه دمة. فتلك الأسوار مبنيَّةٌ منذ عدة قرون، ويدل بقاؤها إلى هذا اليوم على قوتها وصلابتها . وإنْ كان قد تهدَّم جزءٌ منها، خاصة في "قاع اليهود "، فلم يكن هذا بسبب قِدمها أو بسبب التقلبات الجوية، وإنما بسبب الحروب

المتكررة التي كانت تحدث بين القبيليين والصنعانيين.

أساساتُ هذه الجدران قليلةُ العمق، ولكن يتراوح سمكها ما بين المترين والمترين ونصف . وكلَّما زاد ارتفاع السور، كلَّما ضاق حجمه حتى يصير شبيهاً بالمنشور القائم . ويتراوح ارتفاعُ السور ما بين ثمانية إلى عشرة أمتارٍ وذلك حسب الموقع؛ أما ارتفاعُ الأبراج المبنية فوق الأسوار فيتراوح ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار .

تشبه مدينة صنعاء بأجزائها الثلاثة شكلاً متوازي الأضلاع، ضيقٌ من الجنوب إلى الشمال ومتسع من الشرق إلى الغرب. ويبلغ طول الأسوار الخارجية لمدينة صنعاء بأكملها **13** كيلومتر و**400** متر تقريباً.

بعد أخذ قياساتٍ فلكية عديدة بأجهزتي، وبعد إجراء التعديلات اللازمة إثر مقارنة البيانات المأخوذة في صنعاء مع تلك المأخوذة في عدن والمخا والحديدة، فإنني أعتبر الإحداثيات الجغرافية الصحيحة لمدينة صنعاء هي التالية:

النقطة الأكثر شمالاً عند : **15** درجة **15** دقيقة **52** ثانية، دائرة العرض **8** شمالاً.

النقطة الأكثر شرقاً عند : **44** درجة **34** دقيقة **33** ثانية، غربَ جرينتش.

النقطة الأكثر جنوباً عند : **15** درجة **15** دقيقة **2** ثانية، دائرة العرض **5** شمالاً.

النقطة الأكثر غرباً عند : **44** درجة **32** دقيقة **15** ثانية، غربَ جرينتش.

إذَن في نظري يقع وسط مدينة صنعاء عند:

15 درجة **15** دقيقة **27** ثانية، دائرة العرض **6** شمالاً.

44 درجة **33** دقيقة **24** ثانية، غربَ جرينتش.

وكان نيبور قد أعطى لنفس هذا الوسط:

15 درجة **21** دقيقة شمالاً.
44 درجة **29** دقيقة **39** ثانية، غربَ جرينتش.

أمّا لكروتندّن:
15 درجة **22** دقيقة، شمالاً.
44 درجة **31** دقيقة **04** ثانية، غربَ جرينتش.

إنَّ الاختلافات كبيرةٌ نسبياً، لكن لا أعتقد أنَّ بياناتي مخطئة، وهذا ليس بفضلي أنا، لكن لأنه كان عندي وقتٌ كافٍ لتكرار القياسات عدة مرات . وعندما رجعت إلى صنعاء عام **1878** و**1880** أعدتُ مرةً أخرى التجارب فخرجتُ بنفس النتائج
وبحساب المعدلات للضغط الجوي ودرجات الحرارة بين عدن وصنعاء، وباستخدام معادلة الفرنسيّ سان روبير، وجدتُ أنَّ صنعاء ترتفع عن سطح البحر **2130** متراً تقريباً.

ويمكنني القول بأن مقياس الضغط الجوي بَقِيَ في المعدّل ثابتاً عند **582** ملبار، وهذا يرجع إلى ضآلة وانتظامية التغيرات. كان المقياس يرتفع بانتظام الساعة الرابعة فجراً إلى حد **585**، وينزل بانتظام إلى حد **579** عند الرابعة عصراً.

أعطتْ مقاييسُ درجة الحرارة النتائجَ التالية تحت الظل وفي الهواء الطلق:

الفترة	القصوى (م°)*	الصغرى (م°)
النصف الأول من نوفمبر **1877**:	**22**	**11**
النصف الثاني من نوفمبر **1877**:	**20**	**10.5**
النصف الأول من ديسمبر **1877**:	**19**	**9**
النصف الثاني من ديسمبر **1877**:	**18**	**8.5**
النصف الأول من يناير **1878**:	**17**	**5**
النصف الثاني من يناير **1878**:	**16**	**3.5**
النصف الأول من فبراير **1878**:	**18**	**6**

النصف الثاني من فبراير	1878:	21	9
النصف الأول من مارس	1878:	22	11
النصف الثاني من مارس	1878:	22.5 - 20	11.5

[*مْ = درجة مئويَّة.]

في ليلة السادس والعشرين من يناير عام **1878**، سجَّلَ مقياسُ الحرارة انخفاضاً وصل إلى ثلاث درجاتٍ تحت الصفر وحَدَثَ تجمدٌ قوي، فَغطَّتْ طبقةٌ من الجليد يبلغ سمكُها **12** مليمتراً على المياهِ داخل الأواني الموجودة على شرفتي. ورغم أن الحرارة بقيتْ متدنيَّة جداً في ليالي النصف الثاني من هذا الشهر، إلا أنها لم تصلْ إلى الصفر . (وه ي قياسات للدرجات الدنيا والقصوى دُوِّنتْ بواسطة مقاييس الحرارة).

إن التفاوت الكبير في درجات الحرارة بين النهار والليل، هو السببُ في الإصابة بالكثير من الأمراض الشائعة جداً في صنعاء، والتي تصيب الأجانبَ بالأخص وهي : الحمّى العالية، والتهاب الرئة، والطحال، وآلام الروماتيزم والمفاصل، وضيق في التنفُّس، وتسارع في دقات القلب.

إن الطقسَ جافٌ بطريقة استثنائية، فطشوتي اليابانية الصغيرة، التي صمدت بوجه الطقس والاستعمال في المغرب وعدن، تحطَّمت بعدَ وصولي إلى صنعاء بقليل.

وإن عَرَضْتَ قطعةً من القماش على الهواء بعد غمسها في الماء وعصرها، فإنها تجفُّ في غضون أربع دقائق، وهذه تجربة كررتها عدةَ مراتٍ معتمداً على ساعة يدي . وعند مل ء الأزيار بالمياه، كثيراً ما نرى خروجَ بخارٍ على شكل غيمةٍ خفيفة من أفواهها. وأيضاً عند غسل اليدين خلال النهار بالمياه الباردة، نلاحظ انبعاثاً للبخار منها.

سرعةُ الرياح في صنعاء ثابتة . في الصباح، يهبُّ نسيمٌ عليلٌ "الذية" من الساعة التاسعة حتى الحادية عشرة، آتياً من الجهة الشمالية الغربية . ومن الثانية عشرة والنصف حتى

الرابعة عصراً تهبُّ رياح قوية "الريح المجوية" آتية من الجهةِ الجنوبية - الجنوبية الشرقية؛ وفي بعض الأحيان من الجهة الجنوبية الشرقية تهب رياحٌ شديدة ("الرياح الشديدة" أو "الرياح العاصفة") إلى درجة أنها تثير نقعَ غبار وترابٍ في الطرقات والقرى على شكل دواماتٍ هوائية ("الجراف"، "الطوفان"، "النفة").

بدت لي جميعُ الليالي، باستثناء القليلة النادرة منها، ساكنةً وهادئة دائماً.

ووجدتُ مدوناً في مفكرتي أنَّ الجو اتَّصفَ على الأغلب بالصفاء الكامل أو شبه الكامل. وقليلةٌ جدّاً هي المرات التي كان فيها الطقسُ غائماً جزئياً؛ وسمعتُ صوتَ الرعد مرتين أو ثلاث مرات؛ وفي الواحد والعشرين من يناير والسابع عشر من فبراير، هطلتْ في المساء زخاتٌ من المطر لكنها لم تكن كافيةً لترطيب غبار الطرقات.

صنعاء "المدينة" و"القصر"

يبلغ طول الأسوار الخارجية لمدينة صنعاء **6843** متراً. وللمدينة أربعةُ أبوابٍ خارجية وبابٌ آخر داخلي يصل المدينة بالقلعة ويُسمّى "باب القصر".

والأبواب الأربعة الخارجية هي:

أولاً: باب شعوب (أي باب الأحراج) في الجهة الشمالية، الذي يؤدي إلى قرية تحمل نفس الاسم، ثم إلى قرية "الجراف"، وهي قريةٌ كبيرة تؤدي إلى مدينة (الروضة) التي تبعد خمسة أميال عن صنعاء. وحيث يوجد عندها أفضلُ الحدائق التي يملكها الصنعانيون الأغنياء.

وثانياً: باب سترات (الباب المُغطى، المختبئ)، في الجهة

الجنوبية وهو الباب الخارجي للقصر.

وثالثاً: "باب اليمن" في الجهة الجنوبية أيضاً، الذي يؤدي إلى طرق عدن وذمار ويريم وتعز وقعطبة .

وأخيراً "باب (السبح) " (باب الخندق) في الجهة الغربية، الذي يوصل صنعاء بالمتوكل وقاع اليهود .

إن الطرق عريضةٌ ومنتظمة بما فيه الكفاية، إذ أنَّ المهندسين الصنعانيين كانوا يعرفون الخط المستقيم بشكل جيد. تُسمَّى الطرقات الأكثر عرضاً وأناقةً، المشابهة لشوارعنا، بـ(المحجَّة)، والطرقات الأقل عرضاً تسمى بـ "الشوارع"؛ أما تلك الصغيرة أي الدروب فتُسمى بـ"الزُقزُقي"؛ وتُسمى الطرقات الصغيرة التي لا مخرجَ لها "بالزقاق". أما الساحات الأكثر اتساعاً وهي في الأغلب غير منتظمة الشكل فتُسمى بـ"الميادين"، وتلك الأقل اتساعاً فتُسمى بـ"الصرحة".

يوجد في صنعاء **48** مسجداً، بما في ذلك المسجد الوحيد المتواجد في القصر والذي يُسمّى (المرادية).

من بين تلك المساجد، هناك "الجامع"، أو المعبد الكبير، المعبد بامتياز؛ وهو أكبر مساجد صنعاء، والذي كان في وقتٍ ما ينافس الكعبة الكبيرة في مكّة.

لا يضير القارئ أن يعرف ما تمَّ إخباري به من قبل عربِ صنعاء حول تأسيس هذا المسجد المهم، حتى أنَّ رجلاً إيطالياً وبالأحرى من ميلانو كان من أولئك الذين ساهموا كثيراً بمساعدة ملكِ اليمن آنذاك على نشر دي انتِنا في البلاد العربية . ففي عام **381** قبل الميلاد، أسَّسَ حِمْيَر، أب الحميريّين، الذين هم أسلاف اليمنيين، إمبراطورية سبأ العظيمة التي كانت تضمُّ اليمن وحضرموت وعُمان، والآلاف من قبائل وسط الجزيرة العربية الكبير. وعندما مات حميرٌ، قامت عائلة أخيه (كهلان)

بالمطالبة بالعرش من أبناء حمير، فانقسمت الإمبراطورية الكبيرة إلى قسمين : فحكم الحميريّون سبأ واليمن، وقام أبناء كهلان بتأسيس مملكة "ظفار" في حضرموت . واستمرَّ الوضع هكذا حتى عام **150** قبل الميلاد عندما قام (الحارث الرايش) (أي الذي يغتني)، ملكُ الحميريّين بضمِّ المملكتين تحت حكمِه . وبعدما قَبِلَ كلُّ سكان اليمن وحضرموت قوانينَه و اتبعوها، قام الملكُ بتلقيب نفسه "بالتُبّع" (أي الذي يجعل الآخرين يتَّبعونه) وهو لقبٌ أُطلِق بعده على كلِّ ملوك اليمن.

دام حكمُ تبّع اليمن حتى عام **480** بعد الميلاد، عندما قام إمبراطور بلاد الحبشة التي كانت منذ سنين طويلةٍ تَدين بالمسيحية بإرسال أرياط **(525م.)**، وهو زعيمٌ حبشي، على رأس ثلاثين ألف مقاتلٍ للاستيلاء على إمبراطورية سبأ ـ أي اليمن ـ التي كان يحكمها آنذاك الحميريّ ذو نواس. وكان نتيجة ذلك انتصارَ أرياط المسيحي وخضوعَ اليمن بأكمله وتغيير الأسرةِ المالكة فيه . حكم أرياط دون أيةٍّ معارضةٍ، بعد أنْ أيَّدَ إمبراطورُ الحبشة فتوحاتَه، إلى أن قام أحدُ قادتِه واسمه أبرهة، الذي كان عبداً سابقاً لتاجرٍ روماني في أدوليس، بالتآمر ضده . عَرضَ أبرهة مدعوماً بقسمٍ من الجيوش الحبشية بمبارزة الزعيم الحبشي أرياط لتجنب- حسب قوله ـ إراقة دماء الجنود . فوافق أرياط على عرض أبرهة وفي أثناء قتالهما طُعِنَ أرياطٌ غدراً من قبل عَبْدٍ في اللحظة التي قام فيها أرياط بشرم وجه منافسه، ومنذ ذلك الحين سمي هذا الأخير (الأشرم)، أي المقطوع الأنف. هكذا أصبح أبرهة (الأشرم) ملكاً على اليمن، وحاول بجميع الوسائل المتاحة أن يجعلَ الديانة المسيحية هي المسيطرة على جميع أرجاء البلاد العربية. وكان يُشعِر بالأسف الشديد أنْ يرى أغلبية رعاياه يحجّون إلى مكّة ليكرِّسوا أنفسَهم للعبادات الوثنيَّة، فأراد أن يبنيَ كنيسةً في صنعاء، المركز الرئيسي لسلطته.

لقي أبرهة تأييداً شديداً في غيرتِه على الديانة المسيحية من قبل الأسقف الذي أرسله بطريركُ ألإسكندرية إلى اليمن . هذا الأسقفُ الذي جعلتْه الكنيسة من أعداد القديسين، كان اسمه «جريجنتيوس » (Gregentius) وقد ولِد في ميلانو؛ ووضع لسكان اليمن بعضَ القوانين التي صُدِّقتْ باسم ملكهم الجديد .

مع اكتمال بناء المعبد بشكل كامل، أمَرَ أبرهة بمرسومٍ خاص عُمِّمَ في كلِّ أنحاء الجزيرة العربية، بأن تكون صنعاء مركزَ جميع الاحتفالات الدينية . فأثار ذلك غضبَ سكان "الحِجاز "، التي تضم "مكَّة "، ودخل البعضُ منهم عمداً إلى كنيسة صنعاء عشيَّة احتفال عظيمٍ ودنسوها بشكل مهين. فثارتْ ثائرةُ أبرهة، وشاكّاً بالفاعلين الحقيقيين أقسم على أن لا يُبقيَ حجرةً على حجرةٍ من الكعبة.

فقام بتجهيز جيشٍ عدده **40** ألف رجل يرأسُهم بنفسه، وانطلق راكباً «فيلاً أبيض » يتميز بعلوِّ قامته . أجبر أبرهة سكانَ تهامة (أي الأراضي المنخفضة والحارة، التي تمتد من المخا إلى جدَّة) على الفرار؛ ووصل بعدها إلى الطائف واستولى على كلِّ المواشي في البلاد، ومن بينها مائتي جملٍ تعود إلى عبد المُطلب، أحد رؤساء مكة الكبار. وعلى وقع إعلان تلك البعثة المهيبة، تَملَّكَ الخوفُ سكانَ المدينة المُقدسة، إذ كان المكّيون يفتقرون للقوة الكافية لكي يتصدّوا طويلاً للجيش اليمنيّ. فتقدَّم عبد المُطلب إلى معسكر أبرهة، واستقبله هذا الأمير بكل تقديرٍ ظاناً أنَّه حاضرٌ للاستسلام والخضوع.

فقال (القرشي): «إني أتيتُ إليك طالباً استرجاعَ جمالي».

فردَّ أبرهة : «ولمَ لمْ تأتِ متضرعاً رحمتي لهذا المعبد، مركز عبادتكم الكافرة ومصدر ثرائكم؟»

أجابَ عبدُ المطلب: «الجمالُ مِلكي»، «أما الكعبةُ فهي ملكُ الآلهة التي ستعْرِف كيف تحميها. حاول ملوكٌ آخرون تدميرَها

إنما لم ينالوا إلا تضليل مشاريعهم».

أعادَ أبرهة الجمالَ، وانسحب عبد المطلب مع مواطنيه إلى الجبال تاركاً المسجدَ بحماية السماء التي تضرَّعَ إليها، طالباً الانتقام من اليمنيين المُدنِّسين.

فلاقتْ أدعيتُه الاستجابة . أراد أبرهة دخولَ المدينة مُعتلياً فيلَهُ الأبيض الذي كان يُسمَّى "محمود"، لكن لا الملاطفة ولا القوةَ استطاعتا أن تدفعاه للتقدم نحو الكعبة ولو خطوةً واحدة، بل قام الفيل بالركوع آيةً لل عبادة. في الوقت نفسه، تلبَّدتْ السماء وكأنَّها غيومٌ، فتجمَّعتْ فوق الجيش اليمني أو بالأحرى الحَبَشيَّ، أسرابٌ من الطيور، المُسمّاة بـ "الأبابيل"، حجمُها كالسنونو، وكان كل طائرٍ يحملُ ف ي منقاره حجرةً صغيرة، لا يتعدّى حجمها حبة الحمّص، فتركتْها تسقط على رؤوس الغزاة بقوة لدرجة أنَّ كلَّ حجرة كانت تثقب جُمجُمة الجنديّ وتخترق جسدَه ثم تغرس عميقاً في الأرض . وعلى كلٍّ واحدة منها كان محفوراً اسمُ ضحيتها!!.

وكلُّ مَنْ استطاع الهربَ من تلك العقوبة المُنزلة من السماء لقيَ حتفاً بائساً في الصحراء. كان أبرهة الوحيدَ الذي تمكَّن من الوصول إلى صنعاء، حيث فارقَ الحياة بعد صراع طويل وأليم مع المرض. وأصبحت "حربُ الفيل" (هكذا تم تسميتها)، مَعْلَماً من معالم التاريخ العربي؛ إذ أنها وقعتْ في السنة التي وُلِدَ فيها النبي مُحمد (أي في العام **571** بعد الميلاد).

بعد موت أبرهة، توالى أبناؤه المسيحيون على العرش إلى أن أصبحوا مسلمين على يد عليٍّ، ومن ثَمَّ عادوا إلى عبادة الأصنام تحت حكم كِسرى ملك الفرس الذي استحوذ على اليمن. وهكذا فإنَّ معبدَ صنعاء، الآن الجامع الشهير *، خدم الديانة المسيحية، ثُمَّ الإسلامية، ثم عبادةَ الأصنام، وأخيراً مرةً أخرى

الديانة الإسلامية . وحالياً معبد صنعاء هو الجامع الكبير للمسلمين التابعين لطائفة العلويين.

ما زال شكلُ الجامع حتى يومنا هذا مستطيلاً يبلغ طوله مئة متر وعرضَه ثمانين متراً، وتتألف واجهاته من جدرانٍ عاليةٍ مبنية من الحجارةِ والآجر، عليها نقوشٌ عربية إسلامية مَحِضة.

ويتم الدخول إلى المسجد من ثلاثة أبواب في الجهة الشرقية، اثنان منها مفتوحان دائماً. تنتهي تلك الأبواب المنتظمة في تشييدها بأقواسٍ بيضاوية خُطَّ عليها آيةٌ من آيات "القرآن" أو قول مأثور، نذكر على سبيل المثال: "الله أكبر"، "أشهد أن لا اله إلا الله"، "أشهد أن محمداً رسولُ الله "، "بسم الله الرحمن الرحيم".. الخ.

وحين يدخل الزائرُ للمرة الأولى، يجد نفسَه في فناء واسعٍ، ذي شكل متوازي الأضلاع؛ طولُه ثمانون متراً وعرضه ستون متراً. وهذا الفناء مُحاطٌ بثلاثة أجنحةٍ متعددة الأروقة التي لها أقواسٌ ترتكز على عدد هائل من الأعمدة، البعض منها من حجر الغرانيت والبعض الآخر من الحجرِ البركاني الرمادي اللون الذي يتم استخراجه من الجبال القريبة، وأخرى من الآجر البسيط المُغطى بالجص . وتعلو قبَّةٌ فوق كل واحدة من تلك الأروقة التي تتدلى من وسطها مصابيحٌ تُضاءُ ليلاً . وتحت الأروقة الشمالية (في الجهة الشمالية الغربية) نجدُ "القِبلة"(وهي تكويرٌ داخل الجدار) المشابهة للمحاريب في كنائسنا، والتي تشير إلى جهة مكة . وعلى جوانب الأروقة الجنوبية ترتفع شامخةً "صومعتان " أو "منارتان " أسطوانيتا الشكل، وهما الشيئان الأبيضان اللذان نراهما على اليمين من الصورة لمنظر المدينة.

إن الأرضيَّة مرصوصة بـألواح عريضة من الغرانيت (الصخر الناري)، وفي وسط الفناء يبرز إنشاءٌ مكعب الشكل، هو يشبه كثيراً الكعبة في مكة، مكونٌ من الحجارة الكلسية

المتعددة الألوان الموضوعة بالتناوب. ويبلغ طول كلُّ جهة من جهات هذه الكعبة الصنعانية حوالي تسعة أمتار ويقارب ارتفاعها العشرة أمتار تقريباً.

وفي الجهة الجنوبية من هذا المكعب يوجد على مستوى الأرضية بابٌ صغير يؤدي إلى حجرةٍ من دون نوافذ، حيثُ يُحْفَظُ فيها أقدمُ نسخٍ للقرآن الكريم وأكثرها قداسةً.

أما المساجد الأخرى فهي أصغر بكثير من الجامع الكبير . بعضُها يحتوي على "صومعة" عالية جدّاً، وبعضُها الآخر تحتوي على أخرى أقل ارتفاعاً؛ كما أنَّ هناك مساجدَ تفتقر كلياً إلى المئذنة . نجد أيضاً مساجدَ صغيرة جدّاً، وإذا شبهناها بمعابدنا فهي أقرب لجوقة الترتيل منها إلى الكنيسة.

إنَّ المساجد التي لها قبة ومئذنة ، تحمل فوقهما رأساً مدبباً أو حمامة إن كان المسجد عربياً؛ في حين أنَّ تلك التي عمَّرها الأتراك، قبل قرنين من الزمان في وقت غزوهم الأول، فحمل الهلال بدلاً من ذلك.

تُذكّر تلك الحمامة بحدثٍ في سيرة نبيّ الإسلام.

عندما أُجبرَ محمدٌ على "الهجرة" من مكة المكرمة ، هرباً من أيدي القُرشيّن الذين كانوا يريدون له الموت، لجأ مع بعض المؤمنين إلى كهفٍ مهجورٍ (غار ثور) محفور في الجبل المُسمّى "ثَور"، على بعد ساعةٍ ونصف مشياً جنوب مكة. مكث اللاجئان مُختبئين هناك لمدة ثلاثة أيام متتالية، سمعوا خلالها أكثر من مرة أصواتَ أعدائهم وهم يبحثون عنهم. وبعد أن طاف القرشيون كلَّ أرجاء الجبل، تمكنوا من الوصول إلى أمام الكهفِ وأرادوا الدخولَ إليه. ولكنهم توقفوا حينما رأوا أنَّ عنكبوتاً قد حاك شبكتَه على مدخل ال كهف ، وأنَّ حمامتين قد بنتا عشَّهما على جدار الكهف وكانتا تعتنيان ببيضهما . فاعتقد "القُرشيون" بأن الكهف لم تطأه قدمُ إنسانٍ منذ زمنٍ بعيد ، فابتعدوا بسرعة ليبحثوا عن الهاربين. ومنذ ذلك الحين، أصبح للحمامة التي هي

رمزُ خلاص النبي مكانةٌ مقدسةٌ عند المسلمين. والعنكبوت أيضاً بنسيجه، كان قد ساهم في إنقاذ النبي، علماً بأن ه..... [قد ورد في القرآن الكريم] (السورة التاسعة والعشرون، العنكبوت : الآية **40**): (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوْ ا مِنْ دُوْ نِ اللّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوْتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوْتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوْتِ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ)، هكذا نسي المسلمون العنكبوت ونسيجَه، ولم يتفوه النبي محمد بشيءٍ ضدَّ الحمامة أبداً.

لإعطاء فكرة عن شكل البناء للمساجد في صنعاء يمكن تلخيص التصاميم إلى اثنين. لكن تختلف المساجد فيما بينها في الحجم والشكل، لأنه من الواضح أنَّ المكان الذي يُبنى عليه المسجد، ومعالم الأرض، والمصانع أو المنازل التي تجاورها تؤثر في تشييد جدرانها.

الطراز الأول؛ الذي سنعتبر أنموذج ه "مسجد المدرسة "، وهو من غير قبةٍ بل بسقفٍ أفقي؛ وله باب دخول يبدأ منه درجٌ صغير يسنده جداران أو أعمدةٌ تدعم سقفاً صغيراً غالباً ما يعلوه قبةٌ صغيرةٌ. يوجد في المسجد صوحٌ مبلطٌ بأحجار تُقام عليه الصلاة. وهناك أيضاً فناءٌ آخر فيه حوضٌ للتوضؤ : تأتي المياهُ من بئر يكون بالقرب من المسجد أو بعيداً عنه، وذلك حسب ا لحالة . ثم هناك بيتٌ صغير، يعمل سقفُه كأساس للصومعة وتشكل أرضيتُه سكناً للحارس أو المؤذن . وإن وجدت الصومعة ؛ فإنها إمَّ ا أسطوانية ، أو منشورية الشكل . وهناك غرفة مقدسةٌ، تُسمَّى "بيت الله"، حيث تُودَعَ فيها الكتبُ المقدسة داخل خزائن محفورة في الجدار؛ وهي تخدم جيداً كمدرسة، فيتم فيها تدريس وتفسير القرآن .

شكل (1)

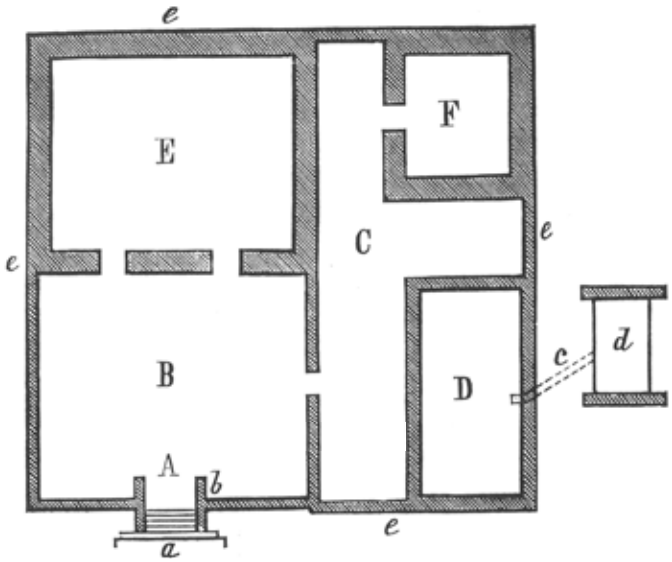

وعلى غرار هذا المثال بُني أيضاً الجامع الكبير.

أمّا النموذج الثاني؛ فيمثله مسجد "الطواشي" والذي له قبةٌ : فهناك مدخلٌ، وبابٌ، وقلبٌ حيث تقام الصلاة، وقبتان، وحوض، وصومعة مع بيت المؤذن.

هناك مسجدٌ واحدٌ فقط في صنعاء لا ينتمي لهذين النموذجين، وهو مسجد "قبة (البكيلية)"، الذي شُيِّدَ على الطراز العثماني.

وبنيت كل المساجد بحجارة مهندمة ذات ألوانٍ مختلفة موضوعة بالتبادل. أما القبب فهي مبنية من الآجر ومطليةٌ دائماً بلون أبيض، وزُيِّنَتْ في بعض الأحيان بزخارف بارزة.

شكل (2)

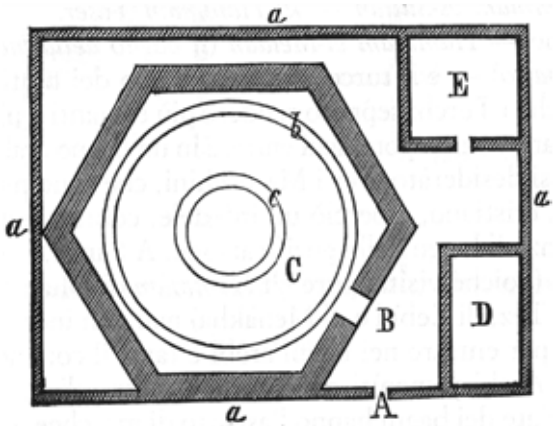

مـسـجـد الطـواشــي

وفيما يتعلق بالصوامع، سواء الأسطوانية أو المنشورية، فهي مشيدةٌ دائماً بالآجر العارية (ما عدا مسجد الجامع الكبير)؛ أما نتوءاتُها وزخارفُها فمطلية بالنورة. وعلى بعضها نقوشٌ كتابية دينية عربية. وأيضا اسم مَنْ أمر ومَنْ قام ببنائها.

وللعلم سأذكر اسمَ كل مساجد "صنعاء المدينة" مثل ما هو معلَّمٌ في الخارطة:

1. المدرســة./ 2. قبة البكيلية [البكيرية]؛ وقديماً كانت تُسمى "بلكي آغا"./ 3. صلاح الدين ./ 4. الطواشي./ 5. موسى./ 6. عقيل./ 7. المذهب ./ 8. الجامع ./ 9. علي ./ 10. الشهيدين ./ 11. الأبهر ./ 12. قبة طلحة ./ 13. غزل الباش ./ 14. قبة المهدي./ 15. داوود./16. الزمر ./ 17. الفليحي./ 18. العلمي./ 19. خضير./ 20. جمـال الدين./ 21. الوشلي./ 22. الجـديد./ 23. حجر./ 24. محسن./ 25. النهرين./ 26. الجلاء./ 27.

ابن الحسين ./ **28**. الخراز ./**29**. الحرقان ./**30**. فايع ./**31**. باب اليمن [الرضوان]./ **32**. المفتون./ **33**. الأبزر./ **34**. الباشا./ **35**. الطاووس./ **36**. النور [معمر]./ **37**. معاد./ **38**. القاسمي./ **39**. نُصير ./ **40**. المجمع ./ **41**. الحبس./ **42**. عدِّل في بير العزب./ **43**. توفيق./ **44**. محمود./ **45**. التقوى ./ **46**. بروم [أبو الروم]./ **47**. العابدين ./ **48**. المرادية، داخل القصر.

تحتلُّ الحمامات في الأهمية المركزَ الأول بعد الجوامع، إذ أنها مكان التطهير وتُسمى بـ"التغسيل" (المشتقة من "غسَلَ") أو "الحمام". يوجد منها عشرةٌ في صنعاء المدينة، وواحدٌ في "المتوكل" واحدٌ في "بير العزب".

الحمامات الموجودة في صنعاء:

أ. حمام الميدان./ ب. حمام الطواشي./ جـ. حمام الحُميدي./ د. حمام الأبهر./ هـ. حمام القوعة [سبأ]./ و. حمام السوق [محمود]./ ز. حمام الجلاء ./ ح. حمام شكر ./ ط. حمام السلطان./ ي. حمام ياسر.

الأول؛ أي حمام الميدان (أي حمام الساحة أو الحمام الكبير)، هو الحمام التركيّ، أو بالأحرى أحد الحمامات الصنعانية العربية الكثيرة التي حسَّنها الأتراك مضيفين إليها أسبابَ الراحة والأناقة.

في المغرب، استحال عليَّ أن أدخل حماماً عربياً مهما أبديتُ من رغبة شديدة في دخوله، إذ أن المغاربة، وهم من المسلمين المُتشددين، يعتقدون بأن المسيحي، وبالتالي كافرٌ، يُدنِّسُ بوجوده مكان التطهير هذا. أما في صنعاء، وأينما ذهبتُ في اليمن (إذ أني كنت قد زرتُ حمامات ذمار، يريم، إبّ، تعز،

زبيد ومَناخة)، فإنني لم أواجه قط أيَّة صعوبةٍ في دخول الحمامات العربية والتصرف بها، إذ أن عربَ اليمن مضْيافون ولطيفون جداً في معاملتهم مع المسيحيين.

تشبه واجهاتُ الحمامات واجهاتِ المساجدَ، وتشبه أيضاً مبانيها من الخارج مباني المساجد ذات القبلب.

عند المدخل نمرُّ عبرَ ممرٍ صغيرٍ باردٍ نسبياً كونُه سفليّ ومظلمٌ حتى نصل إلى ما يشبه غرفة استقبال ، يتم الدخول من يمينها بواسطة سلم صغير "الدرجان " إلى مكان التشليح "المَخلع".

ولأن أرضية المخلع "البلاط " مفروشة بـ "الحصيرة " و"البساط"، فمن الواجب خلع الحذاء "الكندرة" أو "القبقاب" عند آخر السلم "الدرجان "، وتسليمها إلى صاحب الحمام المُلقَّب بـ"رجل حق الحمام" أو ببساطة "المُعلِّم"، الذي يبقى مستلقياً أو جالساً على الصناديق التي تحتوي على الملابس والنقود . ومن الأفضل تسليمه أيضاً ساعة اليد وكلّ ما هو قيِّمٌ. أنا كنت أسلِّم دائماً إلى المعلمين كلَّ ما لدي، حتى نظارتي . وللأشخاص المعتبرين أي أولئك الذين يدفعون "بخشيشاً" كبيراً (الإكرامية)، يقوم "الخ ادم" بفرش سجادةٍ أخرى من الصوف الأسود "الزربية" محلَّ ما يخلعون ملابسَهم.

بعد أن يتعرى الشخص، يقوم الخدم بتزويده بمنشفة بيضاء "الفوطة" يلفُّها على خصره لتغطي رجليه حتى الركبة، فتكون المنشفة بمثابة سروال السباحة عندنا.

عند نزول أيٍّ شخص للدرج، يقومُ المُعلم بتسليمه "القِبقاب "، الذي يكاد يُشبه في شكله القبقاب الذي تنتعله الفلاحات في مناطقنا، ولكنه يختلف في مكان وضع القدم حيث بدلاً من أن يكون له جيب من الجلد، فإنَّ ه عند العرب له قطعةٌ خشبٍ عمودية "النُخ رة"، تفصل ما بين الأصبع

الكبرى وباقي أصابع القدم .

بعد اجتياز غرفة الاستقبال، ندخل إلى (المخرجة) وهي غرفة ذات حرارة متوسطة تصلح كمنطقة عبور من الجو البارد إلى الحار عند الدخول، ومن الحار إلى البارد عند الخروج.

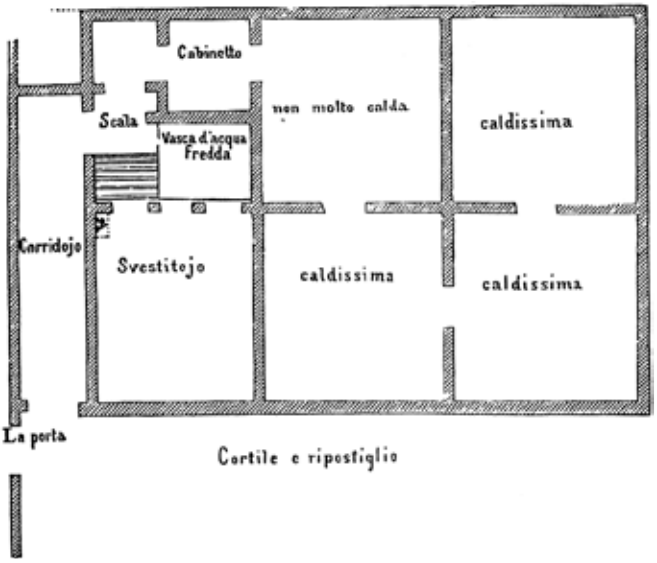

حمَّام الطَّواشي

من "المخرجة" ندخل إلى "الأوسط" [أي مكان التطهير الجسدي ، وبالتالي فهو مكان مريح]، وهي الغرفة الأولى الفعلية للحمام ذات حرارة تتراوح ما بين 25 و 30 درجة مئوية . ولمن يرغب بحرارةٍ أعلى، هناك غرف "الصَدِر " المختلفة (وهي الغرف الأكثر سُخونة في الحمام) حيث تصل الحرارة فيها من 35 إلى 48 درجة مئوية.

ما بين الغرفة والأخرى نجد بابيْن من الخشب، مغلقين باستمرار وذلك لكي لا يكون للغرفتين نفسُ درجة الحرارة. لكلّ غرفة من غرف الحمام العربي قبَّةٌ دائريةٌ، أُقيم عليها شبابيكٌ صغيرة مُدوَّرة أو مستطيلة مغلقةٌ بإحكام بواسطة زجاج سميك مدخَّلٍ في الجدران، أو بواسطة ألواح من الجبس، لذلك لا يدخل منها إلا نورٌ خافت.

الأرضية مَكسُوَّةٌ بألواحٍ من الحجارة القاسية العريضة والكبيرة، ذات لون رماديٍ يتحول إلى لون شبه أسود بفعل الرطوبة.

وفي غرف الحمام، نجد بركتين أو أكثر حسب حجم الغرفة ("المغطس" أو "حوض الحمام")، مبنية من الحجارة وتُملأ بالمياه الساخنة بواسطة حنفياتٍ معدنيّة، وهي استيرادٌ مستحدث من أوروبا إلى عدن.

سحُبٌ من البخار تتعالى باستمرار فوق الأحواض، لتمتزجَ بالروائح الزكية (خشب الصندل، البخور، خشب الصبار) التي تنبعث عن حرقها في تلك الغرف بين الحين والآخر.

يأخذ قاصدُ الحمام، وهو مستلقٍ على الحجارة الساخنة، الوضعية الأكثر راحةً، مُحاطاً بتلك السُحُب العطرة التي تتموَّج على جسده، و بِفعل حرارتها تُفتّح كلَّ مسامات الجلد.

بعد عدة دقائق من ذلك الاسترخاء الم لدّ، عندما يبدأ الجسم بتصبُّبِ العرق، يأتي خادمٌ متخصص (المرزِّم) ليبدأ بعملية (الهليك).

الخادم يجعل الشخصَ يستلقي أرضاً على ظهره : ثم بيديه، يضغط برفق على الأعضاء يلويها ويقوم بتصرير المفاصل بلطافة. وبعد ذلك يجعل الشخص يستلقي على كتفه وبضربة واحدة يقعقع له عظمتَها ويعيد نفس العملية للكتف الأخرى. عند الانتهاء من ذلك يُقلِب المرزِّم الشخصَ على بطنه ثم يقومُ

بالجلوس على ظهره ويضغط بيديه على ساقيه وكتفيه.

متى أصبحت كل المفاصل ليِّنة، يَدْعَكُ الخادم الجسدَ بالكامل بواسطة قفاز أو بالأحرى بـ"كيس" من الصوفِ الخشن. من خلال هذا الدعك القوي فإنَّ كلَّ الوسخ الذي كان على الجسد يتم إزالته تماماً، ويصبح الجلد ناعمَ الملمس وكأنه حرير . عند انتهاء هذه العملية الثانية، ينادي المرزِّم أو يجلب بنفسه وعاءً معدنياً (الطاسة) مليئاً بالمياه المعطرة والصابون؛ ثم بواسطة قبضة من (الألياف)، وبعد مزج الصابون بالماء حتى تتكون "رغوة" كثيفة، يُغطي جسد الشخص بأكمله بذلك المزيج . ثمَّ يُغسل الجسد بِسَكبِ كمية كبيرة من المياه الساخنة على رأسه.

بعد الانتهاء من هذه العملية الأخيرة، التي تستغرق حوالي ساعة، يتم الخروج من الصدر للانتقال إلى الغرف الأقل حرارة إمّا للمكوث فيها قليلاً أو للتوجه مباشرةً نحو المخلع.

عندما تُترك النعال للدوس على الحُصُرِ، يقومُ خادم بسكب المياه شديدة البرودة على القدمين.

يذهبُ المُستحَمُّ إلى مكانهِ فيأتي مرزِّم آخر مُكلَّفٌ بتنشيفه حاملاً ملاءتين، يُلفُّ الصغيرةَ على الخصر مستبدلاً "الفوطة" والكبيرةَ على الجسد بأكمله، مُغطياً أيضاً الرأس . يُنشِّف المرزِّم الشخصَ الذي، بعد لَفِّهِ بملاءةٍ أخرى جافة، يُترَك ليرتاح متمدداً على السجادِ . تمر هكذا نصف ساعة في حالة خمول شهواني، تُدخَّن خلالها السجائر أو المِد اع، وتُحتسى القهوة. وإنْ رَغِبَ المُستحم، يقومُ المرزِّم بتدليكه من جديد قبل أن يرتدي الشخص ثيابه.

أخيراً، متى ما أراد واستحبَّ، يرتدي كلُّ واحد ثيابَه، ويكون بذلك الاستحمام قد انتهى؛ وهو يدوم عادةً ما بين الساعة والساعة والنصف.

الحمامُ الشرقي، عدا عن تنظيفِ الشخص أحسنَ تنظيفٍ، يُولّد إحساساً وشعوراً بنشاط وحيوية، ويُحمِّر البشرة، ويُسَرِّع الدورة الدمويَّة، ويُسهّل عملية تنفّس الجلد مما يجنِّب الأمراض الكثيرة، وأخيراً يُوَلّدُ ذلكَ الإحساس بالارتياح والبهجة اللذين يَصعُبُ وصفهما، وكأنك أصبحتَ ذا ليونة وخفة خارقتين، وكما لو أُزيحَ عن كاهلِك حملٌ كبيرٌ،فيُخيَّلُ إليك وكأنَّك ولِدْتَ من جديد، وكأنَّ الروح والقلب قد تطهرا أيضاً كبقية أعضاء الجسد

في العادة، يذهب معظم العرب إلى الحمام مرتين على الأقل في الأسبوع.

وكلفة الحمام رخيصةٌ جدّاً. فالفقراء الذين يغتسلون بأنفسهم، يدفعون من "قِرش" واحد إلى ثلاث "زلاطات". أما الأشخاص الموسرون فيدفعون للمعلم مقابلَ حمامٍ كامل من الفرنك إلى الفرنك والنصف بالإضافة إلى البخشيش (للمرزِّمين).

شخصياً كنت أذهب من خمس إلى ست مرات في الشهر الواحد، وكنت دائماً راضياً عن الخدمة.

تحت كل غرفة في الحمام، نجد أفراناً مشتعلة دائماً، وقودها الخشبُ أو الفحم النباتي أو الروث الحيواني للاقتصاد . وبضبطِ درجة اشتعال النار فيها نحصل في الغرف العُليا على الحرارة المطلوبة.

تقع أغلبية الحمامات في صنعاء بالقرب من المساجد.

كنتُ قد تطرقتُ في الفصول السابقة إلى الشكل الخارجي للبيوت، فسألخص الحديث عنها ببضع كلمات لأنَّ القارئَ يستطيع أن يكون فكرةً واضحة عنها من خلال الرسومات الجميلة الموضحة في صوري الفوتوغرافيَّة.

إنَّ للمنازل الكبيرةِ المبنية من الحجارة المقطعة والآجر الكبيرة، شكلٌ أنيق يساهم في ذلك نوافذُها الغنية ذات الزجاج

الملون. يتميز الطِراز المعماري للهندسة الصن عانية بالبساطة والأناقة، فالأقواس الدائرية والبيضاوية المزخرفة بدون مغالاة والمستعملة بالحد المناسب تعكسُ الذوقَ العربي الرفيع.

وإنَّ أبيض الجص الذي يُقصَرُ به إطارات النوافذ والأبواب وبعض حواف الحوائط يُزيل تلك الرتابة التي يعطيها اللون الرمادي للحجارة والأحمر القاتم للآجر.

سوف أتكلَّم إذن بإفاضةٍ عن البيوت الصنعانية، ولمزيدٍ من التوضيح والدقَّة سأصفُ البيت الذي كنت أسكنه؛ وبما أنَّ البيوت تشبه كثيراً بعضها البعض من الداخل، فأعتقد أنَّ بوصف بيتي سأكون قد استوفيت وصف (البيوت) الأخرى كذلك.

شكل (1)

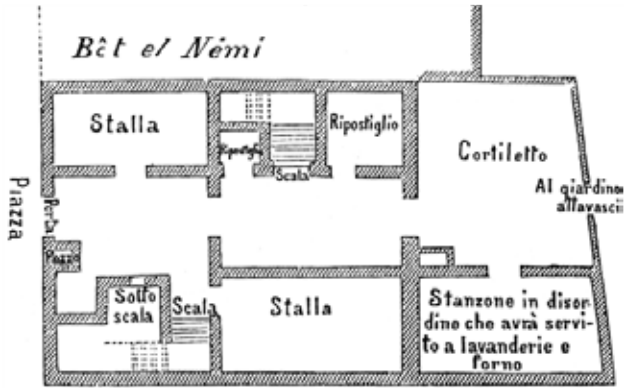

الدور الأرضي لبيتي في صنعاء

الأبوابُ ("البيبان" جمع "باب") عاليةٌ و عريضة وتنتهي بأقواس [عقود] بيضاوية. متى فُتِحَ الباب، ندخل إلى نوع من المدخل "القاع" حيثُ نجدُ فيه البئر ومداخل الإسطبلات . الأرضيةُ مرصوصة بألواح من الغرانيت، والجدران كلها مطلية. (أنظر الصورة رقم1).

للبئر "بَكَرَةٌ" و"حَبلٌ"يتراوح طوله من **25** إلى **30** متراً، إذ (أن) ذلك هو عمق آبار صنعاء؛ وهناك (الغَرْب)، أي زيرٌ من الجلد، يعمل كَدَلو.

تكون الإسطبلات [الحَرّ] واسعة دائماً لكنها مظلمة، وأرضيتها من الحصى. المعلَفُ حائطٌ بارزٌ، يرتفع **75** سنتيمتراً عن الأرض، بعرض مترٍ تقريباً، حيثُ يوضع عليه العَلَف . هناك حَلَقاتٌ كبيرة من الحديد مُثبَّتةٌ في الجدران، تستخدم لوصل الحبل المربوط بالحيوان. لا يوجد أيُّ فاصل بين بهيمة وأخرى، وذلك بفضل طيبة الركائب العربية.

والأعلاف عبارة عن : (العلف)، و(العشب)، و(الشعير)، و(التحام)، و(القضب). ويُعطى للحيوانات أيضاً أوراقُ اللِفت والفجل والملفوف . ويُقدَّمُ الجَزَر إلى الخيول، لكن في بعض المناسبات فقط، كنوع من الهديَّة، كما هي الحال عندنا.

بعد أن نجتاز المدخل الأول، ندخل إلى الثاني، الذي يحتوي على العديد من المخازن وعلى "الدرجان" [الدرج]؛ وله منفذٌ يؤدي إلى فناء داخلي صغير أو حديقة . تُسمّى هذه المداخل "الدهليز".

غالباً ما يكون الدرج عريضاً وجيّدَ الصنع، وهو مبني بالحجر، لكنه معتمٌ عادةً، وفي بعض الأحيان مظلمٌ تماماً.

يحوي الطابق الأول (أنظر الصورة رقم **2**) بغرفه ذات السقوف المنخفضة، على (المطحن) وعلى غرفة تموين الإسطبل التي يتم فيها تخزين معدات الحيوانات.

وتحتوي "غرفة المطحن " على سلال "الزمبيل" تحتوي على "طحين" أو "سميد" أو قمح "البُرّ"؛ وعلى معدات تحضير العجين اللازم لتحضير الخُبز الذي يُطهى في المطبخ، كما سنرى لاحقاً.

شكل (2)

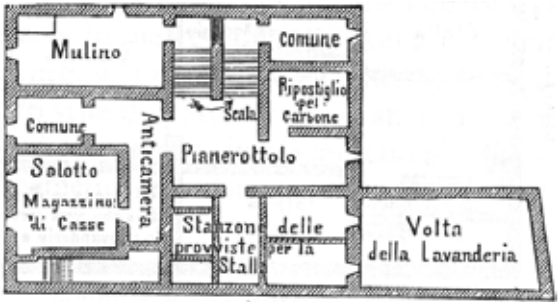

الدور الأول لبيتي في صنعاء.

تتألف "المطحن" من صخرتين مستديرتين "حجر المطحن" من الغرانيت الصلب جدًّا، الواحدة فوق الأخرى. تبقى الصخرة السُّفليَّة ثابتة في الوقت الذي تتحرَّك فيه العليا . ترتكز هذه المطحن على منصةٍ جدارية تتراوح ارتفاعها من 50 إلى 60 سنتمتر. ويبلغ قطر كل من الصخرتين 48 سم تقريباً وذو سماكة تتراوح من 20 إلى 25 سم . للصخرة العليا ثقبٌ في الوسط ("النقب" أو "الثقبة" أو "المذة")، ذو عرض كاف كي يمرَّ من خلاله المحور (القطب) ("المسمار") الذي ينغرس في وسط الصخرة المُثبَّتة. وهناك قطعةٌ من الخشب ("اليد") مثبتةٌ على طرف الصخرة المتحركة عَمَلُها تدويرُ الصخرة نفسها . في الأسفل حول الصخرتين توجد حَجرةٌ أخرى ("الغِفة")، محفورةٌ على شكل طاسة واسعة ومائلة، وهي مفتوحة أمام "الطُحان" أو "الطُحانة"، وغرضها جمعُ الطحين.

في صنعاء، المرأةُ هي التي تقوم عادةً بطحن الحبوب وتحضير الخبز كما أنها تهتمُّ بتحضير جميع أنواع الأطعمة.وهذا شائع أيضاً في باقي اليمن، إذ أنَّ الرجال يطهون الطعام ويحضرون الخبز فقط عندما يسافرون، لأنه لا يوجد برفقتهم أية نسوة.

تأخذ المرأة في يدها اليُسرى القمح الموجود في "الهنج" الموضوع خصيصاً على الحائط حيث توجد المطحن، ثم ترميه في "المُذة"، أي الثقب الأوسط، جاعلةً المطحن في الوقت نفسه تدور باتجاه اليسار، مستعملةً لذلك اليد اليُمنى التي تمسك بـ"اليد".

يَسقط الطحين، بفعل قوة الدوران، في"الغِفة"؛ وعندما تصبح الكمية كافية، تقوم المرأة بجمعه بواسطة "مكنسة" صغيرة وإدخاله في "التورة"، وهي سلّة مُخَصَّصة لحِفظ الطحين غير المغربل

(المنخل) الغربال العربي، هو مُنخُلٌ يشبه مناخلنا، مصنوعٌ من شعر الحصان "السبيب". يتم تقدَيم النُخالة للدجاج والدواب . يُولّد "المطحن" بحركته الكثيرَ من الضجيج، ومع غناء الطّحانات المُملّ المتواصل، يصبح ذلك الصوت مزعجاً جدّاً على السَمَع

إن غرفة التموين"المونة" أو (الحقب)، وهي واحدة من أوسع غرف هذا الدور "الطبقة"، يقسَّمها يميناً وشمالاً جدرانٌ متوازية ترتفع عن الأرض بمقدار متر تقريباً (وفي وسطها نوعٌ من الممر).وفي تلك التقسيمات، يُوضع القمح والشوفان والدُرة والفاصولياء وباختصار كل أنواع الحبوب التي يحتاج إليها البيت والإسطبلات.

شكل (3)

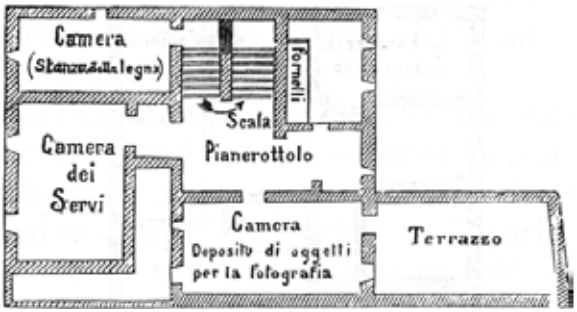

الدور الثاني لبيتي في صنعاء.

ويُوضع على الجدران الفاصلة "السَّرْج" أو (الوطاف) و"الركاَب" و"السِريمة" و"اللِجام".

أما الدور الثاني (أنظر الصورة **3**) فهو مُخصَّصٌ عادة للنساء، وهناك توجد غرفهنَّ والمطبخ. وسوف نتحدث عن هذا عندما نَتَطَرَّق إلى مسألة "الحَريم".

لنلق الآن نظرة خاطفة على المطبخ (الديمة). عادةً ما تكون غرفةُ المطبخ صغيرةً وقليلة التهوية ودون مدخنة . وبما أنَّ الدخان لا يخرج إلا صعوداً باتجاه السقف فإنه ينفذ عبر منافذَ صغيرةٍ جداً مُطِلَّةً على الأحواش أو الطرق أو الحدائق، ولذلك تكون الجدران دائمة السواد.

يوجد في المطبخ منصةٌ جدارية شبهُ مليئة ترتفع عن الأرض بمقدار متر واحد و عرضها عرض باقي الجدران ترتكز عليها المواقد المصنوعة بقطع من الطوب فوق بعضها البعض، ويوضع أيضاً على المواقد جميعُ أدوات المطبخ . ويحتوي هذا الجدار أيضاً على "الفرن" أو "الكوشة"، وهو ذو شكلٍ أسطواني له فتحةٌ ضيقة في الأسفل وأخرى كبيرةٌ في الأعلى.

عند إشعال الفرن لطهي الخبز، تقوم المرأة بتحضير الأرغفة الرقيقة من العجين، ثم تلصقها بحركةٍ سريعة وخاطفة داخلَ الفرن حيث تبقى لبضع ثوانٍ حتى يُصبح ذلك الخبز الشبه الشفاف ناضجاً تماماً. ما أن يخرج "الخبز " من الفرن حتى يُبلّل بالزُبدة السائلة ويوضع في سِلالٍ "الزمبيل " خاصة تُسمّى بـ "الغدّو ".

تتعدد أدوات المطبخ إلى الكثير من (الأواني) المصنوعة من الفخّار المسخن (مثل "الجفنة" و"القصيص" و"القدر " و"الماعون" و"البُرمة" و"المِعجَنة"، وذلك بحسب كبر حجمها)،

ومن الحجارة "المقلى "، "الطنجرة")، ومن الحديد ("الطست"، "الطاجن "). كما هنالك العد يد من الملاعق المصنوعة من الخشب.

والدور الثالث (أنظر الصورة 4) هو مسكنُ الرجال، وفي بيتي هو أفضل طوابق الدار ذلك لأنه الطابق الأخير . كنت قد تَطرَّقت إلى وصفه سابقاً.

شكل (4)

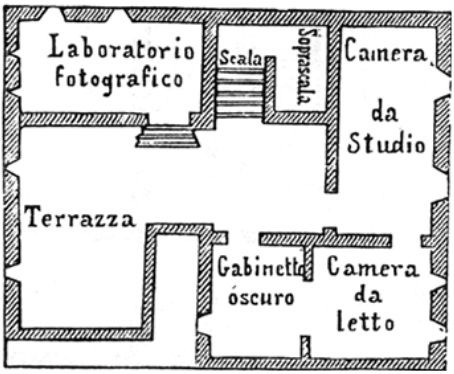

الدور الثالث لبيتي في صنعاء.

تحتوي جميع غرف المنازل على أبواب ذات مصراعين، وشبابيك ذات أحجام عادية "الطاقة "، والصغيرة "الشباك "، تكون معظمها على مستوى الأرضية. وفوق كل واحدة من هذه الشبابيك، التي لا يغلقها الزجاجُ بل ألواحٌ خشبية (باستثناء شبابيك بيوت الأتراك)، نجد نوافذ أخرى تسمى "القمرية"، وهي محكمةُ الإغلاق بزجاجٍ ملون ومرسوم ، وهيكلها مصنوعٌ من الجص. يوجد ما بين "الطاقة" و"القمرية"، على ارتفاع متر ونصف عن الأرض، منضدةٌ ضيِّقةٌ تَخرج من الحائط ويضع عليها العربُ جميعَ أغراضهم إذ لا يستعملون الطاولات على أنواعها.

تأتي تسمية الغرف بحسب الترف الذي يُغنيهاف"الديوان" أو "المنظر " مخصصٌ للاستقبال اليومي؛ في "المِفرج " تُستقبل الشخصياتُ الهامَّة، و(الكُمَّة) المفروشة بترفٍ كبير تُشكل متحف العائلة. بلاط الأرضية ("القاع" أو "البلاط") مصنوعٌ من الجص والحجر الرمليّ يُوضع على طول الجدران، فوق البساط والسجاد بعضُ الفوُش الضيقة "المرتبة"، أو كميَّةٌ كبيرة من "الوسادات" و"المخدات" كمسندٍ للجالس. نجد في وسط الغرفة طبقاً (معشرة) معدنياً كبيراً مستديرَ الشكل ، موضوعاً على قواعد صغيرة (الأرجل)، ويحمل أيضاً الشمعدان ، والمدايع ، والعديدَ من الأغراض الأخرى المستعملة يومياً أو أغراضٍأخرى للأبهة.

وتكون فخامة الغرف بقدر ثراء صاحب المنزل، لذلك نرى في صنعاء السجاد الفارسي الرائع، والغليون العربي (المداعة) المذهب أو الفضّي المُطعَّم بالزخارف، وأطباقاً كبيرةً من الذهب والفضة مُزركشة بالكتابات الحِميرية والكوفية والعربية، وآوانيَ من جميع الأشكال والمَعادن حتى إني رأيتُ منها نفائسَ صينية ويابانية قديمة.

إنَّ أهم بيوت صنعاء وأقدمها، تلك التي كان يقطنها الأئمَّة سابقاً، هي الآن في حالة خراب كامل تقريباً، وأنقاضها ليست سوى خليطٌ من التراب والحصى والآجر. فالحجارة وكل ما كان مفيداً وصالحاً تم استعماله لبناء وتجميل البيوت الجديدة.

أذكر من بين تلك الدور، "دار الطواشي" (أ) التي كانت مشهورة بعدد غرفها الهائل (360) بزخارفها وكتابتها، وبضخامة درجاتها، وبوسع أحواشها، وبكبر حدائقها وأحواضها . دُمِّر هذا القصر منذ خمسين عاماً على يد الصنعانيين أنفسِهم الذين ثاروا ضدَّ الإمام الطاغية " (الهادي) بن المهدي العباس". كما كانت بيوتٌ للائمةِ في صنعاء، "دارَ المحدادة "، و"دارَ نعمان" (ج).

الثكنة الكبيرة؛ أي "دار صبرة" (المشار إليها في الخارطة عند "ب") بناها، على الطراز العربي الغني والأصيل ، محمد باشا، أحد آخر حكام اليمن في فترة الغزو التركي الأول، والتي كانت ما تزال قائمة في فترة إقامتي الأولى في صنعا ء، وقد دُمِّرت في السنة التالية(1878) بأمر الحاكم العام مصطفى عاصم باشا.

كانت تلك العمارة مؤلفة من تسعة طوابق تحتوي على العديد من الشرفات، لأحدها في الدور الرابع بوابةٌ والكثيرمن الكتابات العربية. وكان الطابق التاسع يتألف من غرفة واحدة فقط، تحتوي على رسومات وآواني للزهور بطراز روماني . كانت درجاته عريضة وجيدة البناء، إلى حدّ أني لما زُرت الطابق السادس وجدتُ إسطبلاً فيه حصان أبيض كان يأكل، وهو مركوب حاكم الثكنة.

قيل لي بأن الزخارف كانت من صنع "بنياني" و"فرسيس" (وهما من الفُرس) اللذين كانا آنذاك يقطنان في صنعاء، وقد استدُعيا خصيصاً من قبل محمد باشا.

وأهم البيوت التي بقيت قائمة حتى مارس عام **1880** هي:

"دار الذهب" (د) وهو بيت كبيرٌ وعالٍ جداً، يحتوي على بئرٍ اصطناعي كبير الارتفاع لدرجة أن حوضه موجودٌ في الطابق الأخير، ومنه ينحدر مساره إلى الحديقة تمشي عليه الجمال والثيران التي تستقي الماء. كان يسكن هذه الدار في عام **1877** عجوزان عازبتان، فارقتْ الأولى الحياة في مارس**1878**، والثانية في يناير **1879**، ولعدم وجود أي وريث لهما، أصبح البيت ملكَ الحكومة العثمانية.

"دار الجديد " (ي) التي يقطنها حالياً "سيدي غالب " من عائلة الأئمة.

"بيت خضير "، يسكنه إسماعيل حقّي باشا.

"بيت الحكومة" (بيت الميدان قديماً)، وعلى مسافة قريبة منه يوجد مكتب البريد والتلغراف المُسمّى "بيت البوسطة " أو "بيت السِلك".

"بيت الحاج فتح "، الذي أصبح الآن يسمى بالتركية "المجلس العسكري".

"إملانة البكيليَّة "، وهي المدرسة التركية والمُقسمة إلى قسمي الابتدائي والتقني، وكان يلتحق بها أيضاً الصبيةُ الصنعانيون الذين أدرك أهاليهم أهمية وضرورة التعليم.

"سمسرة الميزان"، وهي مركز الجمارك.

بيت معالي إسماعيل حقي باشا.

يشكل "السوق" الحي المركزي للمدينة . وهو على شكل أزقَّة ضيِّقة ومتعرجة، تتشابك بعضها ببعض . ينقسم العرب العاملون إلى عدة (جماعات) حسب أعمالهم، ولكل حرفةٍ جماعة يرأسها شيخٌ، ونجد حرفيّي الاختصاص ذاته أو تجارَ البضاعة نفسها مجتمعين في نفس الأزقة . فهناك النجارون، والحدادون، وصُنّاع السيوف والسكاكين، وبائعو المدايع والمصابيح والأواني المعدنية، والعطّارون (أي بائعو القهوة والبخّور والعطور والتوابل)، وبائعو الفحم ، وتجار الأقمشة، وصانعو الحِبال، ومُنظّفو قصب المدايع،...الخ. وتكون محلات ودكاكين كل فئةٍ متلاصقةً ببعضها البعض، وواقعةً في الشارع نفسه . ففي الساحة المركزية، نجد سوقَ القمح؛ وفي ساحةٍ أخرى بالقرب من باب اليمن، نجد سوقاً لأدوات المائدة المصنوعة من الفخّار ؛ وعلى مقربة منه في ساحة "مخازن الربالي" سوقَ الخضار والفاكهة؛ وباتجاه صرحة "الطواشي"، نجد سوقَ الخبز والأعشاب الخضراء الخاصة بالإسطبلات . ونجد المسلخَ الوحيد الموجود في صنعاء المدينة على جهة اليمين بعد دخولنا من باب اليمن.

كثيرةٌ هي البساتين وحقولُ الخضروات، وأفضلُها "بستان الطاووس" المتميز بكبره و سعته ، والغنيّ بالورود ، وأشجار الفاكهة ، والخضار على أنواعها . فهو مزروعٌ بعناية ، ويمثل مكان النقاء للسادة الأتراك، الذين يقصدون المكان حاملين معهم زجاجات "العَرق" وأكوابه، فيجلسون تحت ظلال الأشجار ، يحتسون ذلك الشراب، ويأكلون الفاكهة والخضار، فتكون بمثابة وجبة مُقبلات قبل الغ داء، أو بمثابة فاتح للشهية على الطريقة التركية.

كثيراً ما كنت أذهب أنا أيضاً إلى"بستان الطاووس" وأشرب العرق، إذ أنه فاتٌح جيدٌ للشهية وبتهيئته المعدة لاستقبال الطعام

فأنه يُسهِّل عملية الهَضم. كما أنه كان من الممتع جدّاً التواجد بين أولئك السادة والتحادث معهم حول المسائل السياسية والدينية

منتجاتُ البساتين الصنعانية هي الآتية : جميع أنواع الخضار : "الفول"، و"اللوبية"، و"الحِلبان"، و"شوك الحمير "، و"الخَرشوف "، واللهانة) و"القنبيط "، و"الفُلفُل الأخضر والأحمر "، و"الطماطم "، و"البطاطا " الحلوة وتلك العادية ، و"الجزر"، أو "الزرودية"، و"البصل"، و"الثوم"، و"البامية"، و"الباذنجان"، واللفت، والفجل، والهندباء، والخسّ، والكرنب، و"البقدونس"، و"الكرفس"، و"الرشاد"، و"السبانخ"، و"القَرع"، و"البطيخ"، و"اليقطين"، و"الخيار"، و"الحبحب"، و"الشذاب"، و"الشمار"، و"الملوخية"، و"الكِكنجر".

ومن بين ألأزهار نجد (الياسمين)، و(شقائق النعمان)، و(المردقوش)، و(الحبق)، و"النرجس "، و"شجرة الراف "، و"الورد "، و"المسك الرومي "، و"البنفسج "، و"القرنفل "، و"البابونج "، و"الخزامى "، و"النعنع "، و"نعنع الفلفل "، و"الزعتر".

وفي الأماكن غير المزروعة التي تكون على جوانب أقنية الري تنبت حشائش متنوعة منها : (التبشع)، و"البنج أو العباب "، و"الحشيش المر "، و"اللص ف"، و"الشقر "، و"البوكل"، و"الرجان"، والقراف"، و"الجشوع" والحُميض"، و"ضرعة الكلبة "، و"الجدمال "، و"الهندباء"، و"السيس "، و"الكاذي"، و"الأذخر"، الخ.

ومن بين أشجار الفاكهة يوجد بكثرة "الرمّان"، و"التفاح"، و"السفرجل "، و"الأنجاص "، و"المشمش "، و"البرقوق "، و"الفرسك "، و"القراسية "، و"حبوب الملوك "، و"اللوز "، و"الجوز"، و"التين"، و"العنب" التي تحمل الكثير من "عنب" لذيذٍ جداً (المسمى "العنب المسكي") الذي يؤكل حالما ينضج أو

يُجَفّف ليصبح "زبيب".

تنضُجُ الفاكهة في شهريْ مايو ويونيو وتعطي الخضارُ ثمارهَا مرتين في السنة إذ أنها تُزرع على فصلين، الربيع والخريف.

باستثناء بعض البساتين التي تمتلكها الحكومةُ مثلَ بستاني "الطاووس" و"المتوكل"، والبعض الآخر التي هي ملكٌ لمالك واحد، فإنَّ معظمَ بساتين صنعاء يشاركُ في ملكها العديدُ من الأشخاص في نفس الوقت، فيمتلك كلٌّ شخص قطعةً صغيرةً من الأرض يزرعُها ويحقُّ له ريّها من مياه البئر المشترك عدةَ مرّات شهرياً. فغالباً لا يكون مالك البئر هو نفسه مالك البستان بل إنَّ بعض الآبار تُستخدم لري أكثرَ من بستانٍ واحد.

تختلف طريقة الزراعة لديهم اختلافاً بسيطاً عن الطريقة المُتَّبعة في بساتيننا، الفرق الوحيدُ هو أننا نقوم بالأمور بشكلٍ أفضل ونقوم باستغلال مساحة أكبر من الأرض بين البستان والآخر.

الأدواتُ التي يستعملها العرب هي: قطعةٌ حديدٍ كبيرةٌ وحادّة لحراثة الأرض؛ ومِعولٌ مُسمّى بـ"المِفرِس"؛ وفأسٌ عريضٌ جدّاً مُسمّى بـ"المِلِفَـّ"؛ ومِنجَل مُسنَّن مسمّى بـ"المِنشار". ولديهم آلة أخرى تُسمى "مِسّب الحديد" وغرضُها بسطُ أرضَ البستان بعد حراثتها.

وكلٌّ بستانٍ منحدرٌ قليلاً، ويكون البئر في القسم الأعلى منه

والآبار عميقةٌ جدّاً، كما أنّها ترتفع فوق سطح الأرض خمسة أمتارٍ على الأقل؛ وهي عريضة جدّاً لأن قطرها يتراوح من ثلاثة إلى أربعة أمتار .كما وصفتُ سابقاً، تُستخرج المياه وتُترك لتركدَ في الحوضِ الكبير عند الحائط الموجود تحت فوهة البئر. يبلغ عمق الحوض أربعة أمتار ويتراوح عرضه

من خمسةٍ إلى عشرة أمتارٍ للجهة الواحدة، وذلك حسب حجم البستان المراد ريَّهُ. في بعض الأحيان تكون المياه غيرَ كافيةٍ، وذلك عندما تُستخدم المياه المستخرجة من البئر والموجودة في الحوض لريّ بستانٍ كبير جدّاً أو عدةِ بساتين، فتقوم الحمير أو الجمال أو البغال بنزع المياه من البئر طول النهار؛ وعادةً يتم ري جميع أرجاء البستان مرةً واحدةً كل أربعة أيام. وبناءً على هذا كانت العقود تنصُّ على الحق في الحصول على المياه ست عشرة مرة في الشهر الواحد.

أنا أيضاً امتلكت قطعة أرضٍ في بستان "الطواشي"، وكنت أدفعُ ريالاً واحداً شهرياً لاستئجار المياه، وريالَيْن مقابلَ الأرض، وريالاً ونصف كأجرٍ للمرأة "تقوى بنت العراسي" وابنتِها اللتين كانتا تعملان في تلك القطعة من البستان . أما أنا فبعد استقطاع ما كان يلزم لداري من الخضار، كنت أبيعُ ما يتبقىّ، جانياً بذلك ربحاً صافياً يتراوح من ريالَيْن إلى ثلاثة ريالات شهرياً. فأصبح بستاني هذا موردَ رزقٍ يكفي لدفع كاملَ إيجار البيت تقريباً، والذي كان يكلّفني أربعة ريالات.

المتوكِّل

كان هذا قصر الأئمة القدامى، وهو مُحصَّن تحصيناً جيِّداً بجدرانٍ محيطة به ما زالت قائمة. لهُ مدخلان "باب الشقاديف" شمالاً، و "باب الانتباه " جنوباً (الذي يتصل بمدينة صنعاء بواسطة "باب السبح"، وبـبير العزب بواسطة "باب شرارة".

وهو مشيّدٌ في وسط صنعاء المدينة، وكان يشكل تحصينَها الأول والمنيع . قبل سنين قليلة، انقسم الصنعانيون إلى عدة أحزاب أعداء فيما بينها، وغالباً ما تقاتلتْ ممّا سمح للقبيليين بمهاجمة المدينة بسهولة. فوقعت حروب عديدة، وخلال واحدة منها، قام حزبٌ في صنعاء بالتحالف مع القبيليين وتم تدمير

المتوكل الذي كان قصر الإمام المُنتمي إلى الحزب الآخر، فبات هذا القصر ركاماً من الدَّمار.

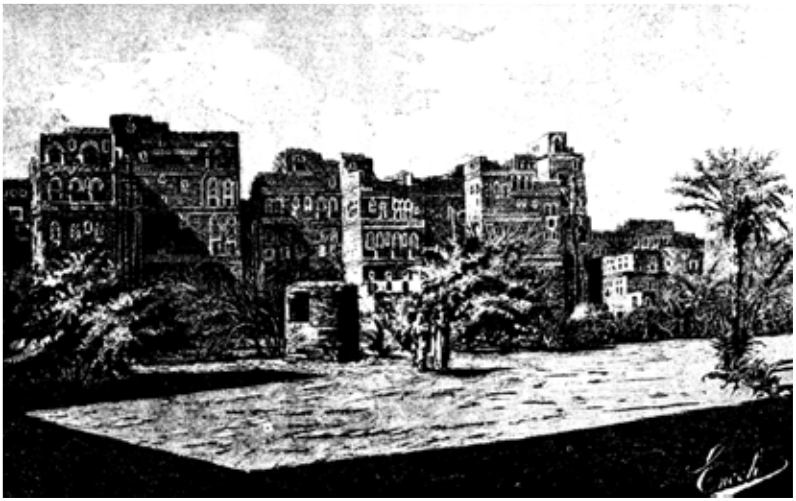

بساتين وبيوتٌ صنعانية

عندما احتل الأتراك اليمن عام 1870، بنوا بدلاً منه المستشفى العسكري الحالي (الخسته خانة)، وحديقتُه المرتبة بشكل فائق غنيةٌ بالخضار وبأشجار الفاكهة.

للحديقة ثلاثةُ أحواض كبيرة، يغذّيها جدول صغير (الغيل الأسود)، المنحدر من "جبل حدين" عند حزيْز؛ ويسقيه أيضاً، من وراء العرضي (أي المُعسكر)، جدولُ "غيل البرمكي" النابع من جبال "حدّة" في منطقة "بيت الحضرمي". والأحواض لها ارتفاعاتٌ مختلفة، فجعلتُ يُوضع دواماتٌ أفقية عند مصب الماء لتُستغلَّ في تشغيل الطواحين.

ما زال يوجد من "المتوكل القديم" الحمامُ (ل)، والجامع الذي يحمل الاسم عينه (49).

وفيما يتعلق بالمستشفى، وإن كان بناءً تركياً محضاً، سوف أذكر باختصار بعضاً من مميزاته. فهو مبنى رائعٌ وضخمٌ، مُصمَّم على الطريقة الأوروبية، يتألَّف من طابقين، له أروقةٌ عريضةٌ جدّاً وعشرين صالة واسعة للمرضى، مقسمةٌ بحسب الأمراض، لذلك نجد صالة للمصابين بداء الزهري، وصالة الجراحة، وصالة للمصابين بالحمى، وصالة للأمراض المُعدية، وصالة للأمراض البصريَّة،...الخ.

كما وهنالك درجان واسعان على جانب المبنى الرئيسي . وللنوافذ العالية والعريضة، زجاجٌ على الطراز الأوروبي وستائر ملونة للتخفيف من حِدَّة الضوء . ونجد أيضاً صيدليةً غنيَّة ومختبراً كيميائياً مُ رتَّباً ومُزَوَّداً بشكل جيد وغرفةً للأموات.

ويحتوي على **370** سريراً مصنوعة من الحديد، وكل سرير له فرشان ووسادتان وغطاءان من الصوف وملاءتان؛ وبجانب كل سريرٍ توجد طاولةٌ عليها كأسٌ وصحنٌ أبيض معدني؛ وعلى رأس السرير توجد لوحةٌ سوداء معلقة على الحائط يُكتب عليها بالجص اسم المريض ومرضه بالفرنسية.

يقوم بالواجب الطبّي ستةُ أ طبّاء، كلهم مسيحيون، على رأسهم طبيبٌ تركيّ برتبة عقيد . وهنالك ثمانيةٌ جرّاحين ، وعشرةُ صيدليين ، وخمسةُ عشر مُمرِّض اً، وكثيرٌ من الخدم العرب والأتراك. هناك أيضاً رجلُ دين، وهو قاضٍ تركيّ يلبس عمامةً خضراء . ويوجد مطبخٌ كبير يقوم عليه ثمانية طُهاة، يجهزون الطعام للمرضى حسب طلب الطبيب لأنَّه بإمكانه أنْ يطلب لهم أية وجبة. ولذلك هناك دائماً عملٌ كثير في المطبخ.

تُدوَّنُ كلُّ الملفات والحسابات باللغة الفرنسية من قبل الأتراك الذين يعرفونها أو من قبل اليونانيين.

الخدمات هناك كاملة وممتازة. يقوم الأطباءُ بالزيا رات في

الصباح، ثم يجتمعون في صالتهم؛ وبعد ذلك وحسب الدور، يبقى واحدٌ منهم للمناوبة في المستشفى على مدى **24** ساعة، ولا يمكنه أنْ يتركه ولو للحظةٍ واحدة.

لجميع المرضى زيٌّ خاص يتألّف منخُفَّيْن، وسروالٍ واسع من القماش الأبيض، وقميص أبيض، ورداءٍ زهري اللّون، وقبعة بيضاء.

للمستشفى أيضاً مَغسلةٌ خاصة به . ويَحرُسُ باب المدخل عريفٌ معه حربةٌ.

ومع أنَّ هذا المستشفى عسكريٌّ في أساسهِ، ولكون مدينة صنعاء تفتقر لمستشفى مدنيّ، فإنَّ المدنيين الأتراك والمسيحيين والعرب يستطيعون مراجعتَه بعد تقديم طلبٍ إلى الرئيس باشا. الأغنياءُ يدفعون أمّا الفقراء فيتم استقبالهم مجّاناً.

بير العزب وقاع اليهود

إن المنطقة الواقعة في الطرف الغربي من مدينة صنعاء والمحاطة بأسوارٍ، والتي تبدو وكأنها مدينةٌ أخرى تتكون من : "بير العزب"، ومن "صُلبي قاع اليهود" ومن "قاع اليهود". هذه المناطق كانت مقسمةً سابقاً فيما بينها بأسوار داخلية أصبحت الآن شبه مهدمة بالكامل.

يصل طول الأسوار الخارجية، التي ما زالت في حالةٍ ممتازة، إلى **6496** متراً، ولها ثمانيةُ أبواب:

"باب شرارة " شرقاً، والذي يصل الأسوار بـصنعاء والمتوكل.

"باب خُزيمة" و"باب النزيلي "، و"باب البلقة " جنوباً، والتي تؤدي إلى سهل "النُميس" الغني وإلى جبال "حدّة" التي يوجد عندها طاحونتان تركيتان وغاباتٌ شاسعة من الجوز والمشمش.

"باب قاع اليهود " غرباً، الذي يقود إلى طريق سوق الخميس ومفحق ومناخة والحديدة.

باب عبيلة "، و"باب الروم " شمالاً، الذي يوصّل إلى الحقول و "الوادي "، وهي قرية ظريفةٌ على بعد خمسة كيلومترات من صنعاء، غنيَّة بالبساتين وأشجار الفاكهة، مشهورةٌ بعنبها وليمونها وبرتقالها وأرْزها.

"باب شهارة " شمالاً أيضاً، الذي يوصّل إلى طريق عسير ومكة.

"بير العزب" ببساتينه التي لا نه اية لها، يُشكل مقرَّ إقامة الأتراك الأثرياء الذين بنوا منذ بضع سنين بيوتاً جميلةً ومريحةً محلَّ "دار الصافي" و"دار البهمة " اللذين كانا قصرين للائمة القدامى. لذلك يُشكل "بير العزب" المنطقة الأكثر رفاهيةً وجمالاً من كل أنحاء صنعاء. نجد هناك مسجد "حنظل" الكبير ذا منارة عالية جدّاً؛ ومسجد "الصُفرة" (51) الصغير، وحمامٌ بنفس الاسم مخصَّص للسيدات معظم الوقت.

"صُلبي قاع اليهود " هي طريقٌ طويلٌ جدّاً يشُقُّ عمودياً الطريق الذي يمتدُّ من "باب القاع " إلى "باب شرارة "؛ ويوجد بمحاذاته في بعض الأماكن بيوتٌ ومنازل متواضعة مسكونة أغلبها من القبليين.

يُشكّل "قاع اليهود" المكان الوحيد لسكن اليهود؛ وهو نفس حي الـ "ملاح" الشهير في المغرب. إنّه حيّ اليهود الحقيقي، فنجد سوقَهم ومعبدهم ومنازلهم وورْشاتَهم . شكلُ البيوت الخارجيُ فقيرٌ جداً. فهي مكسيةٌ كليّاً بالطين وروثِ الحيوانات، وقليلةُ الارتفاع، وتتألّف من طابق واحدٍ مع نوافذ صغيرة جدّاً وتفتقر لأية زخرفة أو تزيين، لدرجة أنها تشبه أكثرَ أكواخ كبيرة منها البيوت الحقيقية، فهي شبيهةٌ بمساكن فقراء "الحوطة". يأتي ذلك نظراً لوضع اليهودي في البلاد الإسلامية الذي يُعتبر فرداً وضيعاً وحقيراً. فهو لا يُمنع فقط من الركوب

علناً، إنما عليه أنْ يُظهرَ أنَّه أدنى قيمةً من العربيّ المُسلم، بمكوثه في بيوت قبيحة وبارتدائه ثيابًاردیئةٍ إن لم تكن مُمزَّقة.

لكنَّ البيوت في داخلها جميلةٌ جدّاً . لديهم أحواشٌ تُذكِّر بالفناء المرصوف الإسباني والمغربي، مَكسُوَّةٌ بألواحٍ كبيرة من الحجارة. الغرفُ الداخلية واسعة، مُضاءةٌ جيّداً بفضل أبواب ونوافذ داخلية عريضة وعالية، والمكان بأكمله مُبيَّض . تسود نظافة تامَّة في جميع أرجاء المنزل؛ ويهود اليمن جديرون حقاً بالاحترام، وذلك من نواحي مختلفة سواءً جسدية أو أخلاقية.

كم هو شاسعٌ الفرقُ بين يهود المغرب ويهود اليمن، ومثالٌ على ذلك سأذكر شيئاً يُرينا إلى أيِّ مدى تصل قذارة هؤلاء: كان هناك امرأة تدعى سوليكة في مدينة مازاكان، ابنة يهودي ثريّ، محميّ من الإيطاليين، متزوجةٌ منيهودي ثري آخر، يَتَمَتَّع هو الآخر بحمايتهم؛ فكانت ستَتعمِل لطهي السمك أو اللحم أو غيره، آنيةً من النحاس تُستعمَ ل بعد ذلك كمرحاض ليلي . هذا يكفي لتخيُّلَ حالة ذلك المنزل؛ فكانوا يعيشون وسط القمامة، وكانوا يرتدون أثواباً مَخمِلية غنيَّة ذات لون أخضر أو أزرق داكنٍ ومطرّزة بالذهَّب تغطي تنانير وقمصان وسخة بشكل لا يوصف.

حَضَرتُ مرةً في صنعاء حفلَ غداءٍ أقامه يهوديٌّ ثري يُدعى يحيى بن داوود، صديقُ موسى خواجة، وهو تاجرٌ يهودي ثري من عدن . فزُرْتُ المطبخ وباقي المنزل، ودُهِشتُ من النظافة والاستقبال اللائق.

يتميَّز العربي الصنعاني بلطفه، فهو ليس مُتعصِّباً أبداً ، ولا يحملُ أية ضغينةٍ، ولا يحب مضايقة اليهود كما يفعل المغاربة . ففي صنعاء، تُحسن المعاملةُ مع اليهود عندما يتواضعون أمام العرب، ولا يمتطون الخيل ويحتشمون بتصرفاتهم . كما أن أرستقراطية العربي لا تسمح له بالتصادم مع اليهودي، إذ أنه لا يكترث لوجودهم، والغضب مع اليهودي يعني إعطاءه أهميةً لا يمتلكها في نظره . اليهودي في المغرب، كما هو حال جميع

الضعفاء، ينتقم باللسان، وكلما أُهين أكثر، كلَّما سبَّ من يتكبر عليه أكثر. أمّا عربيٌّ صنعاء المُتَّسم بعزة نفسٍ أكبر ، فلا يمكن أنْ يقبل أية إهانة من اليهودي، ولأنه أكثر عقلانيّةً من المغربي، فإنه لا يعطي سبباً لذلك.

ويهود صنعاء عادة قبيحون جدّاً، وذلك لأنهم نحيلون، ويبدو عليهم الهزال والشحوب . وحتى نساؤهم بشكل عام قبيحاتٌ للغاية. لقد رأيتُ بعضَ الحسناوات منهن، إنما يهوديات صنعاء لا يمكن مقارنتهن بتاتاً بروعة اليهوديات المغربيات ذوات العيون الكبيرة والنظرة الشهوانية.

اعتقدُ بأن سبب قبحهم هذا يعودُ إلى الزواج المتكرر بين أفراد عائلات قريبة جداً فيما بينها؛ وأيضاً لكونهم منكسري النفس أمام المسلمين فيستذلّون بعضَهم البعض بانقسامهم فيما بينهم إلى طبقات، من الأكثر ثراءً وأبهةً إلى طبقة المنبوذين، علماً بأن لكل طبقة أرستقراطيتها الخاصة بها، إ ذ لا يُسمح بزواج أحد أبنائها أو بناتها من طبقة أخرى.

واليهود الصنعانيون صانعو جواهر وصاغة مهرةٌ، كما يجيدون تقطير الكحول . وكل الزخارف الجصية في البيوت العربية والنوافذ الملونة هي من صنعهم. وهم أيضاً صرافون... فلنسمِّهم هكذا.. وهذه خطيئتهم الأولى حتى في المشرق!

ماذا أقولُ عن سكان صنعاء؟ فهذه مسألة صعبةُ الحل في بلدٍ يفتقر للسجلّات، والإحصائيات السكانية وغيرها . فمن عدد المنازل وعدد الأسواق، يبدو أن عدد سكان مدينة صنعا ء يمكن أن يتراوح بين **18** و**20** ألف عربيّ، و **3000** تركي و **1700** يهودي.

خارج المدينة، نجد حقولاً مزروعة وغاباتٍ باتجاه الشمال والشمال الغربي، تمتد حتى الوادي و(الروضة). وتَكتظُّ الغابات

بـ"الأرانب" البرية"، و"الحِجال" و"الفرخة".

وإلى الجنوب نجد (العرضي) أو المخيَّم التركي مع ثكنات المُشاة، والخيالة والمدفعيَّة. خارج باب (خزيمة) نجد "المقبرة" العربية.

ويقصد الناس (الروضة)، وجبل حدة وجبل (نقم) للتنزّه.

لمحةٌ عن تاريخ اليمن - نبيٌّ دجال - الخلفاء - عليّ والعلويون - استيلاء إبراهيم بن موسى على اليمن - البرتغاليون- الزيدية- الأتراك- الأتراك مُرغمون على ترك اليمن- الإمامة في صنعاء- الوهابيون- الحروب المصريّة - عودة الأتراك إلى اليمن- الحالة الراهنة لبلاد اليمن السعيد.

خلال حياته، كان النبي محمد قد أرسلَ صهرَه علي وآخرين إلى اليمن لدعوة تلك الشعوب إلى ديانته الجديدة ولضمّ هذه المنطقة تحت جناح حِكمهِ.

كان المبعوثون المسلمون من مكة قد جعلوا لهم أتباعاً، عندما قام رجل يُدعى الأسود العنسي، بإدعاء النبوة، مغتراً بمثال النبي محمد وبحظوظه، فكدَّ وجهد حتى اعتنقت صنعاء واليمن بأكمله تقريباً ديانتَه، وطُرد كل المسلمين.

حَكَمَ الأسود اليمنَ لسنين عديدة ودام حكمُ ه حتى بعد وفاة نبي مَكَّة، إلى أن استطاع بعض المسلمين المرسلين من قبل أبي بكر - أول "خليفة" (هو الاسم الذي اتخذه من خَلَفَ محمداً)- التسللَ ليلاً داخل قصر الأسود في مدينة صنعاء والقضاء عليه.

في الصباح التالي من أعالي المساجد، صَرَخَ (المؤذن): "الله أكبر، لا اله إلا الله، ومحمدٌ هو رسول الله".

وما إن وَصَلَ خبرُ وفاة الأسود إلى الصنعانيين حتى اعتنقوا الديانة الإسلامية، مُعتبرين موت هذا الأخير كآية لا شكَّ من عند الله، وكبرهانٍ بينٍ لعجز النبي الكذاب.

حذا اليمن حذو صنعاء، وهكذا أصبحت البلاد مقاطعة

ضمن ا لإمبراطورية الإسلامية الكبيرة، المُمتَدَّة من الهند إلى إسبانيا، واتخذت المدينة كعاصمةٍ لها ثم دمشق وأخيراً بغداد.

تُوفّيَ محمد من دون أن يُعيّـن خليفةً له . فكانت تلك غلطةً فادحةً، إذ كان من الممكن أن يختل أو تتم الإطاحة الكاملةً بالكيان الاجتماعي الذي عَمِلَ النبي بجدٍّ واجتهادٍ على تأسيسه.

كان المُهتدون الجُدُد بحاجة طبعاً لقائدٍ، يكون بمثابة حَبَرٍ أعظمٍ ومُشرِّع في آنٍ واحدٍ، يَعِظُ الشعب ويقوده بوجه العدو.

فكان الهمُّ الأول لأصحاب النبي الانتخاب فيما بينهم لمن يقوم على أمور المسلمين، أي خليفةٌ محمد على الأ رض. وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، تفاقمت الغيرة بين الأعراق والشعوب والرجال، فكان بإمكان تلك الغيرة أن تفرّقَ بين المؤمنين أو حتى تحيي الديانات القديمة أو تبعث بأنبياء دجالين.

انخفَضَ أخيراً عدد المتنافسين إلى ثلاثة فقط أبو بكر، وعُمَر، وعلي صهر النبي محمد؛ وكلهم من "المهاجرين" أي من قبائل مكة

خَضَعَ عُمر وحزبُه بسرعةٍ ونيةٍ طيبة لأبي بكر؛ وأُجبر عليٌ على الخضوع، فبويع أبو بكرٍ "خليفة".

بعد وفاة أبي بكرٍ، تم تعيين عمرُ بن الخطاب خليفةً، بالرغم من استمرار علي في معارضة ذلك وحفاظه على حزبه.

وبعد وفاة عمر، بويع عثمان بن عفّان "خليفة". وأخيراً بعد موت هذا الأخير، انتُخِبَ علي، وكان يناصره أهل بلاد فارس والعراق بأكملهم.

لكن الإمبراطورية الإسلامية كانت أصلاً قد انقسمت إلى حزبين سياسيين، كل واحد منافس للآخر. قُتِل علي وأبناؤه من قبل الفريق الحاكم في دمشق، وسبَّب موتُ علي انقساماً أكبر ما بين أتباع محمد، فانقسم المسلمون إلى طائفتين دينيتين تتحاربان

باستمرار على مرِّ السنين . كانت تلك الحروب كارثيةً بالنسبة لأتباع علي أو العُلويين، وذهبت لصالح مسلمي دمشق. واعتبر هؤلاء أن "الخلفاء " الأربعة الأوائل هم الخلفاء الحقيقيون والشرعيون لمحمد، فسمّوا أنفسَهم أنصار الخلفاء الأربعة، وسمّوا خصومهم العلويّين "شيعةً" أو حزبيين؛ من جهة أخرى قاموا هم، تذكرةً بحقوق علي المقدسة "أسَدُ الله الغالب"، بتسمية أنفسَهم "العَدْليّة" أو حُماة العدل والحزب الطيب؛ وأطلقوا على أعدائهم اسم "سُنَّة" أو أنصار التقاليد مُتعمِّدين فضحَ كل الذين كانوا يرضون دون تمييز بجميع الأمراء والطغاة المفسدين في الأرض.

لا يُثير تاريخ اليمن وديانتُه تحت حكم "الخلفاء" اهتماماً يُذكَر، فقد كان اليمن نفسُه أحدَ المقاطعات الإسلامية، المحكومة من صديقٍ أو قريب للخليفة الحاكم (وهو سُنّي دائماً) وتقوم بدفع ما عليها من ضرائب بانتظام.

ثارت بغداد آخر عاصمة السنيين إبان خلافة المأمون وتحيَّزت للعلويين. لكن في العام 815م. وبعد عشرين شهراً من الانتفاضة، خضعت بغداد من جديد لحكم الخليفة السُنّي.

لاذ رؤساء المُتمردين بالفرار: بعضهم عاد إلى بلاد ه (بلاد فار س)، والبعض الآخر انتشر في مقاطعات الإمبراطورية وحرَّضوها على الثورة، وكان من بين هذه الفئة شخصٌ يُدعى إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد، الذي بعد استحواذه على مكَّة توجَّه إلى اليمن (في العام 200هـ./818م.) الذي كان آنذاك يحكمه إسحاق بن موسى، وهو من أقرباء الخليفة المأمون . مع اقتراب جيش إبراهيم، رأى إسحاق خيراً له أنْ يهجُرَ مدينة صنعاء والتوجه إلى مكّة، تاركاً لهذا الثائر أغنى مقاطعة في البلاد العربية

إبراهيمُ الذي نُصِبَ سلطاناًعلى اليمن، حَكَمَ على كل أقرباء

ومناصري العباسيين، أي على الحكام السُنّيين آنذاك، بالموت أو السجن أو النفي، وأعلن الانشقاق "الشيعي". ذاكرين المعجزات التي قام بها عليٌ في بلادهم الاضطهادات التي تعرَّض لها صهرُ النبي على يد المسلمين الآخرين(السنَّة)، وشاهدين على قوة وقدرة وطيبة سلطانهم الجديد إبراهيم نحوَهم، الذي جعلهم مستقلّين عن بغداد، قام الصنعانيون واليمنيون باعتناق هذا الانشقاق الديني وأصبح اليمن منذ ذلك الحين"شيعياً" ودولةً مُستقلّة.

حكَمَ اليمنَ بعد عائلة إبراهيم، عائلةُ بني غسّان؛ وابتداءً من عام 1454م. (859ه-.) بدأ حُكْمُ بني طاهر.

خلال السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، ولسوء حظ العرب، كان البرتغاليون بقيادة فاسكو دي غاما، الذي دَارَ حول رأس الرجاء الصالح، أولَ من دخل إلى المحيط الهندي؛ وبمساعدة بحّارٍ عربي يدعى أحمد بن ماجد، نزلوا على سواحل مَلابار في الهند.

قامَ ملك غوجرات (مقاطعة وشبه جزيرة شمال بومباي) إثر رعبه من ظهور "الإفرنج" في مناطقه، بطلب المساعدة من سلطان مصر (الذي لم يكن آنذاك تركياً، بل شركسياً) والذي كان ابنَ مِلّتهِ المذهبية. فقام سلطانُ اليمن عامرٌ من بني طاهر بمثل ذلك عندما رأى بلادَه مهدَّدة من قبل البرتغاليين الذين كانوا قد نزلوا عند المخا.

لكن حُسين أميرُ أمراء القوات المصرية والمُكلَّف من قبل سلطان مصر بحرب وطرد الإفرنج، ثار ضد عامر، البخيل المعروف، الذي كان قد رفضَ إمدادَه بالمؤن . عند أول معركة بينهم في سهول باجل (قرب الحديدة)، تَمَلَّكَ الرعبُ نفوسَ اليمنيين، الذين لم يكونوا قد عرفوا بعد الأسلحة النارية، فلاذوا بفرار مُعيبٍ إلى زبيد، حاملين معهم بعضاً من قُلل المدفعية التي

أودت بخسائر جمَّة في صفوفهم.

ثم سقطت زبيد (1517) في يد حسين، الذي لمدة سبعة وعشرين يوماً لم يقم إلا بجمع ضرائبَ نقداً، كان قد فرضها بالقوة والتعسف على سكان اليمن.

في هذه الأثناء، كانت قوة الشركس تضعف في مصر. فكان سليم، سلطان الأتراك ، قد هزم قنصوه الغوري سلطان مصر . مُنتصراً بعدها علىطومان باي، قام من خَلَفَ قنصوه بضمّ وادي النيل للإمبراطورية العثمانية. وحريصاً على تقديم الإجلال لفاتح أرض الفراعنة، أرسلَ سعيدٌ شريفُ مكَّة ابنَه أبو نُمي إلى سليم مُحَمَّلاً بالهدايا. فَرح سليم بذلك الخضوع الفوري لشريف مكَّة، إذ كانت تلك الخطوة مهمَّةً جداً، حيث بعد زوال الخلافة، أصبح شريفُ مكَّة القائد الروحي لكل الشعوب الإسلامية. فلعترف عندها سليمٌ لسعيدٍ بجميع حقوق السيادة على أراضي مكة المقدسَة. وما زال أشراف مكة يَتَمَتَّعون حتى الآن بتلك الحقوق.

أُعتُقِل حسينٌ وحُكِمَ عليه بالإعدا م. قام أحدُ قائمي مقامه الذي أراد الانتقام له، بالاستيلاء على صنعاء، لكن حُكْمَه دام قليلاً إذ قُتِلَ وهو يُحارب العرب . عيّن سليم حسيناً آخر والياً على جدّة، وكان هذا الأخير أميراً قد خدم معه خلال غزو مصر.

عندما وصلَ حُسين إلى جدّة، وجد خزانة أسلحة المدينة مليئةً بقذائفٍ وذخيرةٍ تركها المصريون، ولما كان على علم أن اليمن من دون قيادة، عزم على غزوه وشرع بالتنفيذ، لكن موت سليم جعله يعدل هنيهةً عن مشروعه الجريء.

في العام 1523، استولى إسكندر بيك الكرماني على زبيد ، على رأس جيشٍ من المُتَحزبين له . فورَ علمِه بذلك، شرع الحسين بتنفيذ مشروعه القديم، وهجم على اليمن ملحقاً هزيمةً بالإسكندر الذي لقي حتفه خلال المعارك.

توفي حُسين بعده بقليل أيضاً، فتوجَّبَ على خليفته الانجرار في صراعاتٍ رهيبة ومستمرة ضد سليمان الرئيس، وهو مغامرٌ مصري كان قد هرب من مصر وشَكَّلَ حزباً قوياً من عرب اليمن

بعد أن حَكَمَ بعدالة ومهارة، استطاع بن سعود نقلَ الحُكم إلى ابنه، لكن خلال ولاية هذا الأخير، استولى منْ كان يُدعى بشرف الدين، رئيس طائفة "الزيدية" (وهم شيعة أو علوية كانوا قد اغتصبوا لقب الخليفة والشريف والإمام) على القسم الجَبَلي من اليمن، في الوقت الذي اكتفى فيه أبناء بن سعود بأن يحكموا بالسلم السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية.

بعد ذلك أصبح سلطانَ الأتراك ومصر العثمانيُ سليمانُ الثاني "الغازي"، الذي أراد طرد البرتغاليين من بلاد الهند.

توجه أسطوله، بقيادة الخادم، من السويس إلى عدن (1536)، لكنه عاد أدراجه إلى المخا، فاعترفت على الفور هذه المدينة وكل المدن الواقعة على شواطئ البحر الأحمر: الحديدة، (القنفذة)، جدّة، ينبع،...الخ بسلطة سلطان القسطنطينية . وشيئاً فشيئاً أصبحت شبه الجزيرة العربية بأكملها تابعَةً للإمبراطورية العثمانية، وحكم اليمنَ اثنان من البشوات.

بعد أن كانوا قد طُردوا من اليمن، قام الزيدية بعد موت سليمان الثاني(1566) بالاستيلاء على اليمن مرة ثانيةٍ في أواخر عام 1567، أُرسِل سنان باشا لمواجهتهم فلم يستطع التغلُّب على أولئك المُتشيعين المقاديم إلاّ بعد حوالي أربعة أعوام من الحروب. وهكذا، استتبَّ السلم قليلاً في اليمن، وأوفد سلطان القسطنطينية لحُكمِ اليمن مَنْ عُرف باسم (بهرام باشا) (1571-1575).

كان (بهرام باشا) حاكماً عادلاً وماهراً جداً، فأمر بشقِّ طرقات كبيرةٍ في جميع أرجاء اليمن، وببناء جسورٍ فوق الأنهر الرئيسية وسدودٍ لتطويق السيول المنهمرة. وأراح الشعب العربي من الكثير من الضرائب الثقيلة؛ وعلى سبيل المثال أراد أن يتم في

مقاطعة زبيد إحصاءً دقيقاً لعدد أشجار النخيل الأنثى الموجودة هناك، كي لا يُرغم على دفع الضريبة المفروضة إلاَّ ن كانت لديه تلك الأشجار التي في حالة جيدة والحاملة كمية كبيرة من الثمار

لكن في ا لخامس والعشرين من شهر يناير 1575، أقال السلطان مراد الثالث (بهرام) من منصبه، وأرسَلَ مُراد باشا والياً على اليمن.

بقدوم هذا الحاكم الجديد، عاد التعسف والظلم الذي كان (بهرام باشا) قد قضى عليه؛ فانتشر قطّاعُ الطرق في الدروب - كما كان الحالُ أثناءَ صراعات الماضي - الذين يعتدون على القوافل وعلى الحجاج في طريقهم إلى مكّة. ومع مرور الوقت، تمكَّن ه ؤلاء البدو الجريئين من اكتساب قوةٍ في البلاد، تدعمها قواتٌ ضخمة، إلى حدٍّ أنه في أواخر القرن السادس عشر، قام أحمد الثاني سلطان القسطنطينية بالتفاوض معهم كما لو كانوا قوةً أجنبية، بدلاً من قهرهم بالسلاح.

أمّا خليفته مصطفى فقد أمر حاكمَ طرابلس الغرب، بالتوجه ضدَّ اليمن، ولكن حتى هذا لم يُفلح في شيء . وهكذا اضطرت سلطنة الأتراك المتضعضعةإلى صراع مستمرٍ إما ضد رؤساء أحزابٍ أو ضدّ شيوخ أو ضد قبائلَ بأكملها، إلى أن طُردَوا نهائياً عام 1630، وليس من اليمن فقط، حيث كانت حكومتهم مكروهةً دائما، بل حتى من مدن وبلاد سواحل البحر الأحمر، وهي بلادٌ ومدنٌ كان قد سيطر عليها الأتراك لأكثر من قرنٍ منالزمن.

في العام نفسه(1630)، قام الشريف قاسم المهدي، الذي كان زعيماً مشهوراً للزيدية ويدَّعي بأنه ينحدرمن نبي مكة، بتأسيس أسرةٍ مالكة في صنعاء مُتَّخِذاً لنفسه ولخلفائه لقب"إمام".

وها هي البنود الأساسية للقانون المدني التي أقرَّه ا أول إمام لصنعاء:

أُعلِن بأنْ يكون العرش في اليمن وراثياً (رغمَ أنه في بعض الأحيان تم انتهاك هذا المبدأ).

كانت سلطة الإمام تحت سيطرة محكمةٍ عُليا، لكن كان هو نفسه رئيسَها. وعلاوةً على ذلك، كان باستطاعة الإمام متى ما أراد أن يقيلَ أعضاءَ هذه المحكمة المعيَّنين أصلاً من قِبلِهِ. لذلك يبدو واضحاً أنَّ هذا الضمان الذي أعطاه الإمام لولا يّته كان وهماً في أغلب المرات.

لم يكن جائزاً لرئيس الوزراء إلا أن يحملَ لقب "الفقيه".

تم تقسيم اليمن إلى أقسام؛ وعلى رأس كلٍّ منها "والٍ" ليقود الجيش وينظِّم الشرطة ويُحصِّل الضرائب.

كان على الولاة أن يدلوا بشكل دقيق عن أدائهم الإداري . في كل مدينة يقيم فيها والٍ، كان هناك أيضاً "قاضٍ" يحق له أن يحكم فقط في الأمور الدينية والمدنية والجنائية.

كان الشيوخ يتولون إدارة القُرى.

كان كلُّ فعلٍ في الحياة يخضع لمحكمة الإمام، الذي كان يستطيع هو ومُكلَّفوه أن يهبوا المسامحات. كانت الأملاك مكفولة من الحكومة، إزاء مبلغ مدفوع من المال.

كانت العائداتُ الضرائبية محصورةً بأرباح الجمارك المفروضة على طرقات القوافل.

في حالةِ الحرب ضد محاولة احتلال البلاد، كان كلُ مواطن يصبح جندياً ويتوجَّب عليه إمداد نفسَه بالمؤن و السلاح؛ وكان نقل معدات الجيش يتم بالاستيلاء على الجمال والبغال والأحصنة.

أما إذا أراد الإمامُ إقامة حرب غزو وفتح ،فكان مُجبراً

عندئذٍ على شراء الجنود والدفع لهم من ماله الخاص، ولم يكن باستطاعته ساعتها تجنيد السكان قسراً.

في السنين الأولى من الإمامة في صنع اء، وهو عصرٌ ذهبيٌ بالنسبة لليمن، حصل بيت المال على ما يعادل ثلاثين مليون ليرة إيطاليةٍ سنوياً.

كان كل جندي في الخدمة يحصل على راتب عشرين ليرة شهرياً، تكفي لإعالته؛ والضباط الأقل رتبة على مئة ليرة شهرياً. أما الضباطُ ذوو الرتب العالية، والمأمورون المدنيون، ورجال الأوقاف فكان لهم حصصٌ من الجمارك وأرباحٌ خصيصة، بالتناسب مع وظائفهم ومهامِهم.

كان يُقال حينها إنَّ للإمام ستين ألف جندي بين فرس ان ومشاة، يؤلفون القوة المسلَّحَة دائمة الج اهزيَّة لحربٍ دفاعيَّة؛ لكن كان هناك افتقادٌ تام للانضباط وللتكتيك العسكري.

كانت التحصينات في صنعاء تتألَّف من أسوار عالية جدّاً، تحميها "مدافع" ذات عيارات مختلفة، موضوعة فوق تدعيمات "التخشيبة" مصنوعةٍ من خشب سيئ النوعية ومغطاةٍ بأقمشة سميكة. وكان العرب يثقون كثيراً بفرسانهم لحماية بلدهم.

مع مرور الوقت، فَقَدَت الإمامة في صنعاء نفوذ ها وقوتها وهيبتها في كل أرجاء اليمن: إذ إن الوظائف الأهم في الحكومة كانت تُعطى حسب المصلحة الخاصة، حتى إلى عبيدٍ تم تحريرهم على يدِ إمامٍ أو خلفٍ له. وكان هؤلاء الحكام يستبدون الناسَ غير محاسَبين، ويم تصون منهم الأموال وكأنها دماء . فصارت بعضُ القبائل تتمرد شيئاً فشيئاً على سلطة صنعاء، فتبعها بالمثل قبائلٌ أخرى؛ حتى في نهاية المطاف، قسَّمَ ألفُ سلطانٍ وأميرٍ ووالٍ وشيخٍ البلدَ إلى ألف وألف دويلةٍ تحارب بعضها البعض أو تتحالف فقط لمواجهة صنعاء.

وهكذا، في عام 1850، كانت سلطة إمام اليمن تقتصر على مدينة صنعاء، لأنها كانت محاطةً بأسوار منيعة. وحتى سنوات قليلة مضت، لم يستطع الصنعانيون الخروج من أسوار مدينتهم، إذ كان القبائل يُحيطون بها ويشنّون عليها هجمات متواصلة

في القرن الماضي، قام شخصٌ يُدعى محمدٌ ابن عبدالوهاب ، في "نجدٍ" وسط الجزيزة العربية، على غرار مارتن لوثر، بتنصيب نفسه كمُصلحٍ للمسلمين . كان إصلاحه مبنيّاً على (تفسيرٍ حرفي) للقرآن، فأبطل كل مظاهر التعسُّف والثراء و التَرَف والحُكم المُطلق التي توغلت مع مرور الوقت بين أمة المؤمنين . وقام أتباعُه المُسمّون "وهّابيين"، يعزّزهم العددُ وإقدامُهم البدوي، بإشعال الحروب في الجزيرة العربية مُجبرين الشعوب المهزومة على اعتناق الإصلاح الجديد.

اندفع الوهابيون نحو الحجاز حيث دمَّروا الأماكن والمدن المقدسة. واحتلوا عُمان وحضرموت وعسير. ذلك التقدّمُ السريع والعنيف لهؤلاء الأصوليين أقلق بشدة سلطانَ القسطنطينية، الذي أمر حاكمَ مصر محمد علي عام 1819 بشن الحرب عليهم. فأوسل هذا إلى نجدٍ ابنَه إبراهيم الذي أنجز مهمتَه بامتياز ومثابرة، حاصداً نتائج ممتازة.

ولكن ما إن رحل هذا الأخير، حتى عاد الوهابيون إلى سابق عهدهم . فأرسلت مصر بعثاتٍ عسكرية جديدة ضدهم، لكنها فشلت كلها إمّا بسبب القيادة السيئة أو التجهيزات الرد يئة. ولقيت نفسَ المصير بعثةٌ ضد عسير (عام 1835) بقيادة إبراهيم باشا آخر، ابن أخ لمحمد علي (أي ابن أحمد باشا). في هذه الأثناء، كانت مصر قد استولت على كل الساحل العربي للبحر الأحمر، وكانت تريد أيضاً الاستيلاء على بقية البلاد العربية، فاستمرت البعثات المصرية باجتياح أراضي العرب، أحياناً بنجاح وأخرى بفشل.

فبعد أن كانت أولَ من دفع بمصر إلى هذه الغزوات الجديدة للبلاد العربية، بدأت حكومةُ القسطنطينية تخاف من هذه المحاولات المتكررة لمحمد علي وأتباعه . ولمنعهم من تحقيق مشروعهم في بناء إمبراطورية عربية - مصرية، أعلن سلطان القسطنطينية خضوع كل الساحل العربي للبحر الأحمر تحت سلطته المباشرة، ذلك الساحل الذي رجع تحت لواء الباب العالي بفضل عزم وقدرة خديوييه في مصر؛ وكمقابلٍ لهذه التضحيات الراميةِ إضافة مقاطعاتٍ جديدة للإمبراطورية العثمانية، تنازل الباب العالي للمصريين عن الساحل الإفريقي من السويس حتى رأس غواردافوي. ولكي تُبعد أكثر المصريين عن فكرة تكوين إمبراطورية مصرية - عربية، حرّضت تركيا خديويها على احتلال السودان حيث كانت ستترك لهم حرية التصرف فيه.

ولم تتوان تركيا عن استخدام كلِّ فنٍ وكيدٍ لمنع مصر من ترك ما احتلَّتْهُ، بعد أن دفعتها على ذلك . ومن جهة أخرى، فقد قبلتْ مصرُ بالمقترحات التركية كأمرٍ «واقع » فيما يتعلق شأنها (السواحل الإفريقية للبحر الأحمر)، وكأمر «لم يُحْسَمْ بعد » فيما يتعلق بالسيطرة العثمانية على السواحل العربية من ذلك البحر

ولذلك فإنَّ الباب العالي عام 1867- كان مقتنعاً أنَّ لإسماعيل باشا رغبةً قويةً بمتابعة سياسة أسلافه في البلاد العربية، وأنه يتجهز خفية لغزو مسلحٍ جديد لليمن وعسير - قام ذلك الذي كان «صاحب» الحديدة باستغلال عداوته لسعيد دو.

هذا السلطان الصغير في منطقة جبل حراز ، وهي مقاطعة جبليَّة غنية بزراعة البن وعاصمتها مناخة، متشجعاً بمؤازرة اليمنيين له، ولكن قوته كانت غير كافية ليتصدي للأتراك وحدَه، كان قد تحالف مع مصر، وأمر بنهب جميع القوافل التجارية التركية المارة ببلاده والذاهبة من الحديدة إلى صنعاء . وبعدما غمر مقاطعات الحديدة واللُّحَيَّة بغاراتٍ مستمرة، نجح بتوليد قلق

كبير في نفس العقيد التركي حاكم الحديدة.

ودون تضييع للوقت، قامت تركيا عام 1869، وهي تتظاهر بعدم معرفتها لنوايا مصر وتحالفها مع سعيد دو، بإرسال بعثةٍ عسكرية قوية ضد سلطانحراز، بقيادة أحمد مختار باشاالشهير.

أُلقِي القبضُ على سعيد دو، وأُرسلَ سجيناً إلى القسطنطينية؛ وحدَّد مختار باشا، بعد استيلائه علىحراز، مقرَّ قيادته في مناخة

وأرسل بعد ذلك بموسى باشا ضد زبيد وتعز، وبأحمد أيوب باشا ضد عسير.

حصدت بعثتا هذين الباشاوين نتائجَ باهرة، وبالتالي خَضَعَ كلُّ اليمن تقريباً وعسير للحكم العثماني.

أعلن الصنعانيون المفتقرون لقوات خاصة بهم، وبعد أن رأوا أنَّ القلعة أعداءَهم قد سبقوهم في إعلان ولاءهم الكامل للأتراك، عن استعدادهم لاستقبال أحمد مختار باشا حتى قبل شروعه بغزوهم. فأوسلوا إذاً إلى اللواء التركي ثمانية عشر من أعْيَـانِ ووجهاء وكبار شيوخ مواطنيهم لتمليكه المدينة وإمامة اليمن.

وأرى أنه من الجدير ذكرَ أسماء هؤلاء ''السفراء'' من صنعاء، لأنَّ علي أن أتكلم كثيراً عنهم. وهم:

السيد محمد عشيش
السيد زيد الكبسي
السيد حسين بن علي الكبسي
السيد أحمد بن محمد الكبسي
السيد حسن الشامي
السيد علي الجديري

السيد محمد المطاع
القاضي حسين جغمان
الفقيه أحمد الملصي.
الفقيه حامد بن عبده
الحاج علي الدشيلة صاحب المحرضة
السيد محمد الحوثي
الحاج إسماعيل الثور
الحاج سعيد اليازلي
السيد محمد بن يحيى حميد الدين
السيد أحمد عبيد
السيد علي عبيد
الفقيه محمد زاهر

ما كان ه ناك حاجةٌ لتَوَسُّلِ أحمد مختار باشا طويلاً، فتوجه فوراً مع قواته إلى صنعاء، التي دخلها باستقبال ظافر من قبل الصنعانيين في أولى أيام 1870.

ومنذ ذلك التاريخ رجع كل اليمن وعسير مرة ثانية تحت الهيمنة العثمانية.

وعيَّن الباب العالي أحمد مختار باشا حاكماً عاماً "والياً" على اليمن وعسير.

وبقي في منصبه حوالي سنتين ونصف، وكانت إدارته حكيمةً وإنسانيةً: فشيّد المستشفى العسكري في صنعاء، وثكنات المدفعية والجنود في (العرضي) والحديدة وتعز وزبيد ومناخة وإب وذمار وأبها وكوكبان وصعدة. وربط صنعاء بالحديدة عن طريق خط البرقية، الذي مدّه منها بعد ذلك جنوباً إلى زبيد، وحيس، وإب، وتعز، وشمالاً إلى أبها عاصمة عسير.

وقسّم البلاد إلى أربع ألوية كبيرةٍ، ووضع على رأس كل منها باشا يحمل لقبَ "متصرف"، ومسئولاً مباشرةً أمامه عن إدارته.

وقسّم المحافظات إلى عدة مقاطعات [قضوات] على رأسها قائمقام، وبدورها كلَّ مقاطعةٍ إلى مديريات [نواحي] يقوم عليها مدراءٌ [عُمَّال؛ مفرده عامِل]، وما زالت الألوية الأربعة إلى حدّ الآن هي:

لواء صنعاء، عاصمةُ الدولة [الولاية] ومركزُ المقاطعة ذاتها، التي فيها مديريات الروضة، جلال، خولان، حاز، ومتنة، وفي المحافظة المقاطعاتُ التالية أيضاً:

كوكبان، مركزها الطويلة، وهناك مديريات همدان، عروس (شبام)؛

جبل حراز، مركزها مناخة، وهناك مديريات صعفان، مفحق، عز، العُرّ، وسوق الخميس؛

عمران، مركزها مدينة عمران، وهناك مديرية بيت إمقادم؛

بلاد آنس، مركزها مدينة آنس، وهناك مديريات جهران، وعتمة؛

بلاد ضوران، مركزها مدينة ضوران، هناك مديريات ضراف، وعلان، زراجة، سيان، معبر، وجهران؛

ذمار، مركزها مدينة ذمار، وهناك مديريات منشية، عروس ورداع؛

يريم، مركزها مدينة يريم، وهناك مديرية عمار.

لواء الحديدة، مركز المحافظة والمقاطعة ذاتها، التي فيها مديريات عبس، ملحان، حفاش، برع، وبيت الفقيه، وفي اللّواء المقاطعاتُ التالية أيضاً:

أبو عريش، مركزها مدينة أبو عريش، وهناك مديرية جيزان؛

زبيد، مركزها مدينة زبيد، وهناك مديريات حيس، وصابين؛

اللُّحيَّة، مركزها مدينة اللّحيَّة، وهناك مديرية الزهرة؛

الزيدية، مركزها مدينة الزيدية، ولا مديريات فيها؛

جبل ريمة ، مركزها مدينة الجبي ، وهناك مديريا ت الجعفرية، كسمة، والسلفية؛

باجل، مركزها مدينة باجل، وهناك مديريات برع، وملحان.

لواء تعز، مركز المحافظة والمقاطعة ذاتها، التي فيها مديريات ذي سفال، الحجرية، وماوية، وفي اللّواء المقاطعات التالية أيضاً:

المخا، ومركزها مدينة المخا، وهناك مديرية خور الشيخ سعيد؛

العدين، ومركزها مدينة العدين، ولا مديريات فيها؛

مدينتين، مركزها مدينة إب، وهناك مديرية المخادر؛

قعطبة، مركزها مدينة قعطبة، وهناك مديريات أزاب، مريس، عود، سوبة.

لواء عسير، مدينةُ أبها مركزُ اللّواء والمقاطعة، وفي اللّواء المقاطعاتُ التالية أيضاً:

مناظر، مركزها مدينة مناظر، وهناك مديريات حلي، (جيزان)، رفيدة اليمن؛

(صبيا)، مركزها مدينة (صبيا)، وهناك مديريات درب الشقيق وأم الخشب؛

بلاد رجال ألمع، مركزها مدينة بتيلة، ولا مديريات فيها؛

بلاد غامد، وزهران، مركزها مدينة رغدان، ولا مديريات فيها.

بحلول نهاية سنة 1872، تم تعيين أحمد أيوب باشا خليفةً لأحمد مختار باشا، فكان خيرَ رجلٍ حذا حذو سابقِه في الانجازات الطيبة، وبعد مرور سنة، أي بنهاية 1873، استُدعيَ إلى القسطنطينية، فخلفه في حكم اليمن أحمد حسن باشا، رجلٌ محترمٌ جداً كذلك، لكنه استُدعيَ هو الآخر للقسطنطينية، فأُرسِل لليمن مصطفى عاصم باشا الذي تعرفت عليه في صنعاء.

استطاع مصطفى عاصم باشا خلال أولى سنواتِ حكمه أن يكتسبَ الاحترامَ والمحبة من قبل الجميع. وظهر للكلِّ بأنه حاكمٌ ممتاز، وكان بالفعل يمتلك الخصال لأن يكون كذلك.

كان له مظهرٌ بشوشٌ وقوامُ الرجل القوي، وله لحية طويلة وجميلة؛ وكان له سلوكُ الارستقراطيين لكنه في نفس الوقت رحبٌ ولطيفٌ .وهذه فضائل كبيرةٌ أمام الشعوب الإسلامية والعربية التي تكاد المظاهرُ تكون كلَّ شيءٍ عندهم.

ولم تنقص الحنكة السياسية والإدارية لدى مصطفى باشا، استطاع بعزيمة خلال سنتين من الزمن أن يعطيَ استقراراً جيداً لكل اليمن وعسير؛ وكان أوَّلَ حاكم تركي لتلك البلاد العربية استطاع أن يُرسل مبالغَ طائلةً من المال إلى الحكومة المركزية دون أن يستبدَّ الرعية، بينما لم يكفّ أسلافه عن مطالبة المساعدات منها.

ونستطيع القول إنَّ في عام 1877، كان مصطفى عاصم باشا يُعتبَر والياً تركياً قوياً ومحترماً ومحبوباً في البلد الذي يحكمه، وإنه كان يتمتع بالثقة الكاملة للحكومة المركزية في القسطنطينية.

لكن لسوء حظه وسوء حظ اليمن أيضاً، كان بين خصاله الممتازة عيبان خطيران: ضعفُ الشخصية، وكبرياءٌ مفرط. ولم يكن ذلك النوع من الكبرياء الذي يحمِّس على القيام بأعمالٍ كبيرة ونبيلة، بل كان كبرياءَ مَنْ يعشق ويبحث عن تملُّق غيره له.

فكان مصطفى عاصم باشا حتى منتصف عام 1878 محاطاً بأشخاصٍ كفؤين بقدر ما كانوا نزيهين، مثالُ عزت باشا وإسماعيل حقي باشا وموسى باشا، وأعيانٌ آخرون يهتمون بالإدارة والشؤون القضائية والعسكرية في اليمن، الذين كانوا يساعدونه ويدعمونه وينصحونه؛ فحكم هكذا بطريقةٍ جعلت شعوب اليمن متحمسةً له كثيراً، من غير نسيانها لمن سبقه. فكان الجناةُ يعاقبون بصرامة، والأبرياء محْميّون بشكل فعال.

وكان المتصرفون والقائمو مقام والمدراء أشخاص أ منتقين وعادلين وجديرين بالمناصب التي كُلّفوا بها.

لكن في صيف 1877، عندما تحرك مصطفى عاصم باشا مع قوات تركية ضد الشيخ محسن (الشهاري) سلطان بلاد (شهارة) (يجب عدم التباسه مع ذلك في قعطبة) الذي كان مستقلاً ويناوئُ الهيمنة التركية على اليمن ويدّعي الإمامة لنفسه، صَفَّ عربُ اليمن والصنعانيون- ذاكرين تعسف وطغيان أخيري الأئمة- إلى جانب الوالي التركي الحكيم في كسر شوكة ذلك المطالب بالعرش.

وقبل أيام قليلة من دخولي صنعاء، كان مصطفى باشا قد رجع من حملته تلك، التي كان لها تداعيات تع يسة، بما أنه لم يستطع أن ينالَ من الشيخ محسن فحسب، بل تعرض فيلقه لتطويقٍ من قبل قبائل الجوف وبني أخم وبني حسن، ومن بلاد ذهبان وخولان ونهم، ومن بدو جوف؛ كلهم متحالفون مع سلطان بلاد شهارة جارهم وكلهم أتباعُ المذهب "الوهابي". ولولا إسماعيل حقي باشا لاحتلَّ ه ؤلاء القبيليون صنعاء، حيث كانوا قد تقدموا حتى أسوارها، فخرج ليلاً إسماعيل حقي، الذي كان يرأس قواتَ الاحتياط في المدينة، وبمهارة مطلقة وتكتيكٍ بارع وحركات سريعة استطاع أن يفاجئ العدو ويغلبه، راجعاً إلى صنعاء ومعه خمسةُ مدافع كان القبائل قد استولوا عليها من فيلق مصطفى عاصم باشا.

حررت هزيمة القبائل القواتِ تحت قيادة مصطفى باشا، حيث تراجع القبيليون إلى بلادهم لأنه لم يعد عندهم لا قوة ولا عزيمة لكي يهجموا مجدداً على الأتراك.

ومن العواقب الوخيمة لتلك الحملة المشئومة، كان هناك أيضاً إصابة قوات مصطفى باشا بداء التنينات، فتوفي منها العديد من الجنود والضباط، وتشوه وبقي معاقاً الكثيرون والكثيرون منهم.

فتحطمت معنويات مصطفى عاصم باشا من هذه الهزيمة الاستثنائية وغير المتوقعة؛ وهو الذي كان يظنُّ نفسَه لا يُقهر! أما إسماعيل حقي باشا فتجلَّى اسمه وصيته بين الأتراك والعرب، نظراً للحذاقة والمهارة التي أبداها. فبدأ مصطفى عاصم بكره، يحرقه الحسد وتعذبه الغيرة، ومجروح في عزة نفسه. لكنه استطاع إخفاء تلك المشاعر في قرارته حتى الشهور الأولى من عام 1878، لأنه كان مُديناً لإسماعيل حقي باشا بحياته وخلاص القوات التركية تحت قيادته، وبعدم جرِّ لواء العثمانيين في الوحل وعدم فقدان تركيا اليمنَ إلى الأبد. فكان يستحيل عليه مهاجمة إسماعيل باشا علناً بعد كل ما أنجزه هذا الأخير.

بل على عكس ذلك، أحتفلمصطفى عاصم باشا في تلك الأيام احتفالاً كبيراً بإسماعيل حقي وكنت أنا شاهداً على التبجيل الذي لقيه من قبل الأتراك والعرب، وساهمت أيضاً في تحضير الاحتفال له بإنارة بيته بالمغنيسيوم الصاعق، وبنشر علَمَيْن إيطاليين على شبابيك داري أحضرتهما معي، وعلماً تركياً صنعته بنفسي مستخدماً أقمشة مختلفة رقعتها حتى أخرجتُ علماً تركيا.

وسنروي في وقته ما حدث في صنعاء واليمن، مما أدّى إلى إقالة مصطفى عاصم باشا، الذي لو استمع إلى النصائح الجيدة المقدمة له من أشخاص مستقيمين، لظل حتى الآن حاكماً لليمن محبوباً ومحترماً.

لا يجدر بي الآن أن أتكلم كثيراً عن إسماعيل حقي باشا. فهو كان وما برح صديقاً لي عزيزاً وطيباً. فسأقصُّ عنه كثيراً خلال سردي.

ونفسُ الأمر سيكون بالنسبة لموسى باشا، الذي تعرفت عليه في صنعاء ومن ثَمَّ لقيته "متصرفاً" في تعز (يونيو 1878).

وسأشير الآن قليلاً إلى كبير القضاة التركي في اليمن، رضا بيك.

فلم أعرفْ رجلَ دينٍ لأي ديانة كانت، أكثر حريةً وأقل تعصباً وأكثر مرحاً وشرباً من هذا القاضي المسلم. رأيته مرةً، خلال إحدى الولائم الكثيرة التي كان مصطفى عاصم يدعوني إليها مع السلطات، يشرب قنِّينَتيْن من الجعة العادية وقنينتين من الجعة الألمانية وكؤوساً عديدة من النبيذ، ثمَّ بعض الكونياك وأخيراً الشمبانيا. وبعد الغذاء (حوالي الساعة الثالثة والنصف عصراً) نهض القاضي وكأنه لم يكن قد شرب شيئاً وذهب ليتوضأ، ثم أمَّ صلاةَ العصر بالباشا والأعيان المدعوين، وكلُّهُ خشوعٌ واستجماع؛ بينما أنا وطبيبٌ عسكري بلغاري ننتظر مرتاحين في غرفةٍ مجاورة ندخِّن ونقرأ مجلات أوروبية كان إسماعيل حقي مشتركاً فيها.

بعد الصلاة، ذهبنا جميعاً إلى "السلام لك" أو صالة الاستقبال المسمية أيضاً "مفرج" التي فيها بركة ماء ونافورة، فجلس القاضي رضا بيك إلى جانبي وقال لي بالعربية إنه لا يجب عليّ أن أستغرب أو أتعجب إن كان هو رجلُ دينٍ مسلمٍ يشرب كل هذا النبيذ والجعة والكحول. فَرَوى لي أنَّه قبل ستين عاماً لم يتجرأ أحدٌ في تركيا على خرق فريضة القرآن، وما حدث هو أنَّ قاضياً مسناً في القسطنطينية حضَّر نبيذاً من عنب بستانه، وشرب الكحولَ المحصَّل من كرومه؛ فلُخبر بذلك السلطان الذي استدعى القاضي الآثم ووبَّخه توبيخاً شديداً.

"أفندي مس" جاوبه القاضي، "لقد أخذت بعض العنب وعصرتها ثم استخرجت منها الماء فقط، الذي رشحته وتركته، وهو ماءٌ حلوٌ ومذاقه مستحسنٌ، أما إذا أراد الله سبحانه أن يتحول هذا الماء إلى خمر فهذا ما لا أعرفه، وهو وحده العالم؛ فأنا لم أشربْ ولا أشربُ سوى ماءَ عنبٍ".

"ومنذ ذلك الوقت" .. قال لي رضا بيك، "بدأ في تركيا الشُرْبُ من ماءِ العنب هذا".

"والأمواه الأخرى..؟" .. قلت أنا ضاحكاً، قاصداً الكحول.

"نعم كذلك هي الأخرى، مع أنها مركزةٌ أكثر قليلاً"..!

وفي نفس سيرة النبيذ والكحول سأقول إنه كان في صنعاء- وأعتقد ما زال هناك- موظفٌ في الإدارة المدنية يعرفه الجميع باسم "أبو أحمر"، بسبب خشمه الكبير والأحمر جداً، علامةٌ لحبه الغامر للكحول والنبيذ.

هيئة الأركان التركية في اليمن

(صف1) مصطفى عاصم باشاالحاكم العام لليمن.
(صف2،من اليسار) إسماعيل حقي باشا حاكم صنعاء. دفتردارأفندي. علي رضا(فقيه مسلم).
(صف3،من اليسار) علي بيك. رفعت بيك. مصطفى بيك،عقيد. موسى باشا. رشيد بيك، ابن المشير. أحمد خلوصي أغا. توفيق بيك.عشير بيك. مصطفى بيك.سابت بيك.
(صف4،من اليسار) حسن بيك.حسين بيك. سنان بيك.إسلام أفندي. أمين بيك.عرفان بيك،ابن المشير. إحسان بيك،ابن المشير.
(صف أخير، من اليسار) رئيس الشرطة. أمان أفندي. محمد أفندي.

XI

عرقا الأتراك والعرب - العرب - القاضي، الفقيه، الإمام، (الناظر)، المؤذن - الملاكون - أصحاب الدكاكين والتجار - الحرفيون - المزارعون - المحكمة - القضاة، الكُتّاب ، الشهود - الفِقه الإسلامي : البلوغ؛ حقوق الأب؛ الوصي؛ الديون والإفلاس؛ تجريد الأهلية؛ القروض على رهان؛ الهبات - العادات العربية - العائلة - الاستعباد - الرجال - العرب؛ روحهم للسخرية - الملابس - النظافة - توظيف الوقت ومشاغلهم - النوم وطريقته - أقوال التعجب - الخدم - النساء - لباسهنَّ - الحَريم - الحياة داخل الحريم - الزيارات - اهتمامات النساء - الزيجات والحِيَل.

بالرغم من أن مؤسس الإسلام لم يكن قد وضع مميزات اجتماعية بين المسلمين، وبالرغم من عدم وجود طبقات صاحبة امتيازات داخل الإمبراطورية العثمانية، فإنه يوجد في اليمن عرقان عادا م ن جديد حاضرين معا، ولم يكن قد اختلطا ببعضهما أبداً في السابق، بالرغم من ديانتهم الواحدة.

وكما في المرة السابقة، يملك العرق الأول السلطة، ويفتخر بانتصاراته ويحصد منها المنافع وهي الطبقة التركية.

أما الطبقة الثانية فمحكومٌ عليها بالتَّبَعيَّـة، وتعيشُ عارَ ذلك، وتتحمّل أعباءها، وهي الطبقة العربية.

لنترك التركية ولننتقل لدراسة الطبقة العربية.

يمكن تقسيم هذه الأخيرة إلى عدَّة طبقات.

الأولى هي طبقة"القضاة والفقهاء" أو رجال القانون والدين.إن أهمية ونُبُل أعمالهم، والمعارف التي يجب أن يتحلّوا بها كي يستطيعوا أداءها جيداً، تجعلهم يلقون اعتباراً كبيراً من قبل الجميع

علماً بأنه يمكن لكل مسلم أن ينتمي إلى هذه الطبقة، عادةً ما تكون مناصبهم متوارثة، ولذلك يبدو أنه حتى ما بين المسلمين تنشأ طبقة متميِّزة، طبقة أرستقراطية.

يرأس كل مسجد فقيهٌ، ويقوم على كل مسجدٍ قاضٍ يُ سمّى بـ(الناظر) (أي الذي يراقب)، فيهتم بإدارة الأموال المرتبطة به، ويُسمي الأعوان والخدم دونهم.

عادةً هناك إمامان لخدمة المسجد، وهما مُجبران بالتناوب على إلقاء العِظة (الخطبة) (وإمامة) الصلوات الخمس المفروضة بصوتٍ عالٍ وفي الساعات المُحدَّدَة . بعد الإمامين يأتي "المؤذّن " المُكَلَّف بإعلان ساعة الصلاة من أعالي (الصومعة). يُطلق على خَدَم المسجد اسم "خادم المسجد".

الطابع الذي يَتَحلَّى به متخصصو الطقوس الإسلامية لا يحمل صفة الديمومة كما هو الحال عند الكهنة الكاثوليكيين.

متى أُقيلوا من قبل "الفقيه" أو "الناظر"، فإنهم يفقدون مع وظيفتهم لقبَ الإمام. وهم يتخذون لأنفسهم زوجات كالمسلمين الآخرين، وبما أنّ راتبهم (يتراوح من **40** إلى **50** فلساً في اليوم) ضئيلٌ جدّاً، فهم يعملون على إعالة أنفسهم وعائلاتهم من خلال ممارسة حرفةٍ أو حتى، في بعض الأحيان، مهنةٍ ما. فهناك منهم من يعمل كمدرس والبعض يذهب لقراءة القرآن في البيوت مقابل المال، وهناك أيضاً من يعمل عطّاراً أو بائعاً للتوابل.

ينتمي للطبقة الثانية الملاّكون والتُّجّار وأصحاب الدكاكين . فأعدادهم كبيرة جدّاً في المدن، وشبه معدومة في القرى

الطبقة الثالثة هي طبقة الحرفيين، التي لها كل المظاهر والصفات لطبقة خاصة . وكما قلنا سابقا، فإن كل المهن وكل

صناعة صغيرة تتقسم إلى عدَّة جماعات خاصَّة، حسب فنٍّ كل واحدٍ، ولها دساتيرها وعاداتها ورؤساؤها، الذين يتبعون رئيساً واحداً وهو "الشيخ في السوق". تنتمي إلى تلك الجماعات أيضاً طبقة الخدم العامين والخاصين.

الطبقة الرابعة مؤلّفة من المزارعين (القبيليين والبدو)، وهي الأكثر عدداً وتشمل معظم سكان اليمن.

العدالة تصدر عن رئيس ا لدولة : وبما أن سلطان القسطنطينية هو حالياً رئيس اليمن، فتصدر إذن العدالة باسمه . فهو يُرسل كلَّ عامين قاضياً كبيراً إلى البلاد تمتد سلطته على كل اليمن وعسير، ويُعين القضاة والمُفتين ونوّابَهم.

القاضي محمد الصديق ابن حسن، سيدي علي ابن محسن، القاضي أحمد الصديق ابن حسن (شقيق الأول من اليسار)، أحمد ابن قاسم، سيدي حسن ابن قاسم، أولاد أخ سيدي إسماعيل ابن محسن(شقيق الثاني من اليسار). قضاة وأئمة وأعيان صنعانيون كبار.

كلٌّ من يُعيَّن قاضياً، لا يستطيع رفضَ منصبَه.

تحمل المحكمة اسم "المجلس" وفيها دائماً "كاتب" أو اثنان، ويهتم بكتابة المرافعات. لا وجود للمحامين المختصين إذ يدافع كل واحد عن قضيته أو يوكلها إلى مَن يعتبره أكثر الماماً منه بقضايا القانون.

عادةً، تشكل شهادة شخصين في كل قضيَّة إثباتاً كاملاً . الزنى فقط يحتاج إلى وجود أربعة شهودٍ وأن تكون شهادتهم كلها متطابقة. لا تُقبل على الإطلاق شهادة شخص واحدٍ فقط . ولا تستطيع النساء الشهادة إلا في القضايا المدنيَّة فقط.

تكون الأحكام الصادرة عن القاضي نهائية، فلا وجود بالتالي للاستئناف . ولكن مَن يُفترَض منهم تنفيذ هذه الأح كام يُوقِفون أو يغيرون فعاليتها.

يُحَدِّد القانون (أي الشريعة الإسلامية) سنَّ الرشد للرجال عند عمر الثانية عشرة، وللنساء عند التاسعة إن أقسموا بأنهم بالغون. وإذا لم يكن بإمكانهم فعلُ ذلك يتم إعلانهم بالغين عند سن الخامسة عشرة.

يمكن للأب أن يُزوِّجَ أبناءَه القاصرين على هواه، دون أن يستطيعوا الاحتجاج على ذلك العمل المُستبد . لا يستطيع الأبناء الراشدون، كما رأينا سابقاً، أن يُزَوَّجوا إلا بموافقتهم.

يتصرف الوالد بأملاك الأبناء القاصرين دون تحمل مسؤولية لأي حادثٍ كان، وبإمكانه أيضاً رهن الأملاك إن كان مديوناً أو بحاجة ماسَّةٍ لذلك.

للوصي الحقوق نفسها على الموصى عليه مثل الوالد تماماً، ما عدا حق إدارة أملاك القاصرين.

يكون أقربُ الأقرباء لوالد اليتيم الوصيَ الشرعي له . إن لم يكن لليتيم أيةُ أقرباء، يكون قاضي المنطقة وصيَّه الطبيعي.

يُشرِّع القانون السَجنَ للمديونين إلى حين يُعلن عن عجزهم للوفاء بالدين.

ومَن يُعلن إفلاسه يُجرَّد من الأهلية ويصبح بحاجةٍ لتصريح من القاضي للقيام بأيِّ عمل مدني أو أية عملية تخصُّ أملاكه . وتجريد الأهلية يخص أيضاً القاصرين والمسنين الخرفين وناقصي العقل والعبيد والمبذرين.

مَن أقرضَ المال لمن يرهن دينه بعقارات أو غير ذلك، يكون عليه تكاليف المحافظة عليها وصيانتها اللازمة. وفي حال موت أو إفلاس المديون، فإن مستحقات المقرض لها أولية السداد.

ووفق قانون الملكيات، فإنه يمكن لأيٍّ كان إعطاء غيرَه كلَّ ما طاب له، لكن يمكنه أيضاً اسلتغ الهبة بالكامل أو جزءٍ منها

إن العادات الشرقية وبالأخص عادات العرب لم تتغيَّر أبداً . فاحترام التقاليد والثبوت التام للمبادئ الفكرية والدينية، يشكل دائماً ذلك الطابع المميَّز للحضارة الإسلامية المختلفة كلِّ الاختلاف عن حضارتنا النشطة، المُتَغَيِّرة، ال غير خاضعة لاستبداد القوانين والعادات القديمة والتي، مواكبةً تعاليم مدرسة التقدُّم الحديث، لا تؤمن إلا بالحاضر والمستقبل.

فالأسرة بالأخص، هي قلب حفاظ اليمن على نظام المجتمع الأبوي. فالوالد هو رئيسها الأعظم. ويُطبِّق سُلطتُهُ المُطلقة على زوجته (أو زوجاته) وعلى أبنائه، ويولي ه ؤلاء كلَّ الطاعة لأوامره كما ويبجلّونه أكبر تبجيل . وهذا يحصل في أكثر العائلات ثراءً كما في أكثرها فقراً.

في العلاقات مع عريسها تُظهر المرأة احتراماً كبيراً، فليست لها معه تلك الألفة وسهولة التعامل التي تدلُّ عندنا على التساوي المعنوي بين الجنسين. ففي أغلب الأحيان، تبقى المرأة واقفة أمام زوجها كما وتناديه دائماً باسم "سيدي". فهي تخُصُّهُ دائماً بتلك العنايات الصغيرة التي في أوروبا يختص بها الخدم فقط، فلا بال يُشغلها إلا إرضاؤه

يَحصل رب العائلة على القدر نفسه من الإجلال والاحترام العميق من أبنائه، فيُقبِّلون يديه تعبيراً عن خضوعهم التّام ولا يجلسون في حضوره إلا بإذنه ولا يجرؤون على التكلُّم إلا بعد استنطاقهم، ولا يدخنونَ ولا يشربون القهوة في حضوره.

رأينا سابقاً أنَّ البدوي والقبيلي يَتَّخذ كل واحد إجمالاً زوجةً واحدةً له. والشيء نفسه يحصل عند طبقات العامة وبين تجّار صنعاء؛ وفقط عند الطبقات العالية وما بين الأغنياء يحدث أن يكون للرجل أربع زوجات والعديد من الجاريات.

يولي الأبناء احتراماً كبيراً ومَحَبَّةً جمَّةً لوالداتهم، خصوصاً في تلك المنازل حيثُ الزوج لم يأخذ سوى زوجةً واحدة، فتكون أُمَّ كل أبنائه.

ما بين الأخوة، يجب على الأصغر منهم تقديمَ الاحترام والطاعة للأكبر سنًّا. يشغلُ الابن البكر المكانة الثانية في العائلة ويُصبح رَبَّها بعد موت الوالد.

لِصلات القرابة أهميةٌ مقدسةٌ لدرجة أنَّ اليَمين الأعظم الذي يقوم به العربي هو ذلك باسم أقربائه الأموات أو الأحياء منهم.

في بلدٍ يُكَرِّس احتراماً كبيراً للعائلة، يكون من الطبيعي جداً وجودُ هذا الوقار المقدَّم إلى المُسنّين والأشخاص المهمين . فللمُسنّين مَنزلةٌ رفيعةٌ واعتبارٌ كبيرٌ في قلوب اليافعين يقارب ذلك المُقدَّم لآبائهم . ويُلاحظ انقياد طبقات العامة من خلال شكليات ومجاملات خاصة لمن يَتفوَّقُ عليهم.

فهكذا كلما مرَّ شخصٌ مميّز، توقف الرجال من عامة الشعب عن التدخين والعمل لِيَقفوا باحترام، منتظرين تحيّته.

إنما لا يحمل هذا الانقياد ذلك الطابع الذليل الموجود في بلادنا «المُتحضِّرة والحرّة» حيث من المعتاد أن يصف الواحدُ نفسَه، كتابةً أو قولاً، بـ «الخدّام الوضيع جداً» أمام الأعيان. بل

إنّ عند العرب، لا يُشكّل المجتمع إلا عائلةً واحدةً كبيرةً؛ والقرابة المشتركة بين أفرادها تجمعهم تحت سقف النظام القبلي الأبوي. فما بينهم يُشكّل الاحترام شيئاً واحداً مع المحبّة.

عند «الطبقات الاجتماعية المرموقة»، لا يأكل الرجال مع نسائهم وأولادهم، أما عند الطبقات الأخرى فيأكل الكلُّ سوياً. لا وجود للعبوديةعند عرب اليمن. وإن وَجَدتُ عبيداً في صنعاء أو في مدنٍ أخرى من اليمن، فكانوا مُلكاً للأتراك فقطعند بعض قبائل الساحل، وخصوصاً بجوار عدن، نجد في الحقيقة بعض العبيد، لكن ليسوا فقط مُعاملين جيداً من قبل السلاطين الذين يملكونهم، بل باستطاعتهم أيضاً أن يُصبحوا مالكين لمنازل وأراضي

يأخذ سكان المدينة اسم "عرب" بامتياز، مقارنةً بتسمية "قبيلي " و"بدوي "، التي تُطلق على عرب القرى وسكان الصحراء.

وبما أن في المدينة تتواجد معظم وسائل الراحة لحياة الإنسان، وأكبر الثروات، والمدارس القليلة الوحيدة حيث بإمكان الأطفال تعلّم شيء ما، فإن "العرب" وإن تشابهوا مع القبيليين من حيث الخصال المعنوية والدينية، هم أكثرُ ثقافةً وذكاءً منهم، وأقل عِفّةً وأكثر رحمةً . إنَّ حياة المدينة الهانئة وعدم التعرُّض باستمرار لأشعة الشمس أو الطقس السيئ يجعلُ "العرب" ذوي بشرة أفتح وبنيةٍ جسدية أكثر سمنةً وتَرَهُّلاً من بُنيةِ القبيليين

يُظهر "العرب" والقبيليون في الحالات العادية حذراً كبيراً، فقد يبدون شبهَ خائفين من المخاطر، لكن متى ما أصبحوا في خضمها، تستيقظ بشدة شجاعتُهم وطاقتُهم الكبيرتان يكون استسلامهم وقت الشدائد والصعوبات كبيراً جداً، فهم يخضعون بالكامل لكل كبيرة أو صغيرة، لأنها في نظرهم صادرة عن إرادة إلهيَّة، فيتكبَّدون المشقات مُعزين أنفسهم بالقول:الله داري، الله عالم، يا لطيف!

يتمتَّع العرب بطبيعة ساخرة وغالباً ما يكونون خفيفي الدم . تتقبل لغتهم العديد من المعاني المترادفة، وكثيراً ما يستعملونها في طريقة تحدثهم الخليعة دائماً، بل نجدهم في أغلب الأحيان يُعبِّرون عن الأفكار الماجنة بكلماتٍ واضحة، وحتى بالنسبة للنساء الفاضلات نادرةٌ هي المرّات التي تَسيطر الحشمة على أحاديثهنَّ.

فإن لم يقُم العرب أبداً بسبّ الربّ ، إذ من المستحيل أن يجرؤ المسلم على ذلك (فالدُعاء ضدَّ الإلوهية أو ضدِّ النَّبي يُحدث فيهم بغضاً ومقتاً شديداً)، فلديهم بالمقابل معجمٌ من الشتائم غنيٌّ جدّاً، ينعتون بها الغير.

هل يجب أن أتحدّث عن عيوبِ بعض "عرب" صنعاء؟ لا أجد ذلك مُناسباً، ذلك لأن َّهُ إنْ كان اليوم القليل من "العرب" فاسدين، فمردّ ذلك إلى أثر الحكومة التركيَّة في اليمن . من تعرَّف على المسلم التركي، عَلِمَ مدى الضررَ الذي يمكن أن يلحقه في البلاد التي غزاها . فلذلك ألتزمُ بالصمت، ليس فقط احتراماً للقارئ، بل أيضاً احتراماً لأكثريَّة الصنعانيين. حيثُ لا وجودَ للأتراك، يتسم العرب والقبيليين والبدو بطهارة التقاليد.

يتألف لباس"العرب"، أو عرب المدينة من قميصٍ ذي أكمامٍ واسعةٍ، فضفاضٍ، طويلٍ حتى الركبة ("السنْسية"). تستعمل طبقة العامَّة لهذا اللباس قماشاً من القطن ذا لون أزرق غامق، أما الأغنياء فمن التيل الأبيض الرقيق جداً.

الوركين وفوقهما، وتلك التي للعامَّة تكون من القماش القطني العادي،أما تلك التي للأغنياء فمصنوعة من الصوف أو الحرير الملون.

الخدم العاملون عندي
أحمد بن يحيى الهمداني، عبدالله الزقاق ابن سعد، حسن ابن عبد قلفاع، صالح الزقاق ابن سعد، محمد ابن محمد اليماني.

ويضع عامَّة الشعب فوطةً فوق القميص وحول الخصر تشبه تلك التي يلبسها القبيليون والبدو، أماَ فوطة الأغنياء، فتكون من الحرير ومتعددة الألوان . وتُشد الفوطة بـ"حزام"عريض طوله حوالي ستة أو سبعة أمتار يتم لفها حول

يوضع فوق هذا الحزام، "حزامٌ" آخر من الجلد للخنجر أو "الجنبية". يلبس الأغنياء أيضاً "صدريَّة" غالباً ما تكون من القماش اللامع المُتعدد الألوان . ويرتدون أيضا فوق كلٍّ ذلك "قفطاناً"، وهو معطف غني ذو أكمام طويلة وواسعة جدّاً.

ويُغطون الرأس بواسطة "الطربوش" أو "الطاقيَّة" المؤلفة من العديد من طبقات القطن الملوّن، ويصل عددها إلى ثمانية، موضوعة الواحدة داخل الأخرى، يُلفُّ من حولها حزامٌ طويلٌ جدّاً، مطوي بشكل يُشبه ربطة العنق، ويتشابك بشكل حلزوني على الجبين ويُشكل كلّ ذلك ما يُسمى بـ"العمامة". تكون عمائم القضاة والأئمة والشرفاء من قماش موصليّ خفيف أبيض مهدب بالذهب؛ أما حزام التجار الأغنياء فتكون من الحرير المُلوَّن وعمامة الشعب من القماش القطني العادي يمكن خلع تلك العمامة عن الرأس ووضعها من جديد من دون تخريبها أو فكّ رباطها

يكون رأس العربي محلوقاً بالكامل.

ولا يلبسون "السراويل"، ويرتدي بعضهم "لباساً" أبيض، في الشتاء فقط. ولا يستعملون الجوارب ولديهم الصنادل نفسها التي يستعملها القبيليون والبدو، وقد تكون أقلّ أو أكثر ثراءً بحسب الطبقة الاجتماعيَّة.

يستخدم بعض العرب العاملين في خدمة الأتراك الجوا رب والجزمات، ورأيتُ البعض الآخر بالجزمات العالية، إنما كل تلك الأشياء ما هي إلا استحداثات مأخوذة عن الأتراك ولا تؤثر على طريقة لبس أغلبية السكان.

وكان خادمي حسن يلبس على الطريقة الأوروبيَّة مُرتدياً ثيابي، لكن هذا لا يعني أنَّ كل الصنعانيين الآخرين يريدون تبنّي اللباس الأوروبي.

لقد رأينا سلفاً كيف أنَّ نبي مكَّة، آخذاً بعين الاعتبار طبيعة المناخ، وتلك العادة التي كان يَتَّبعها العرب آنذاك بعدم الاغتسال، كان قد رفعَ عمليَّة تطهير الجسد إلى واجب دينيّ.

فالعرب اذاً نظيفون جدّاً، حيث بالإضافة إلى التطهيرات الخمس الإلزامية التي تسبق الصلوات، يرتادون كثيراً "الحمام".

ويحلق جميعهم القسم السفلي من اللحية، تحت الذقن والعنق وكل الشعيرات الغير منتظمة على الخدين . ولا يتعدّى طول لحيتهم الأربع أصابع . ويقصون شعر شوارب الشفة العُليا . ويُحلقون بعناية كل أجزاء الجسم التيعليها شعرٌ، عدا الحواجب والرموش، سواء الرجال أو النساء، بواسطة الجير المبلل بمحلول خاص. لا يبصِقُ العربُ بتاتاً في البيوت أو المساجد، وإذا كانوا في الطريق يتحدَّثون مع غيرهم، أو بحضور أشخاص، نراهم يُلبّون تلك الحاجة مع كثيرٍ من الحذر، موجهين الصوب إلى الجدران . لكن يسمحون لأنفسهم بالتجشؤ عندما يأكلون أو يتكلَّمون، ويبدو أنهم يستمتعون بالقيام بذلكإذ يُعبِّرون بعدها عن رضاهم هاتفين "الله، الله!" شاكرين الله لكونه أزاح عن معدتهم حملاً ثقيلاً.

ولأن العرب يغسلون فمهم مرّات عديدة يوميّاً، فلهم أسنان جميلة جّداً وذات بياضٍ كامل، ويستعملون "المسواك" كفرشاة أسنان.

وعندهم عادة أنَّهم كلما جلسوا متربع ين، أخذوا بمداعبة باطن الرجل، وهذا انشغال ممتع بالنسبة لهم.

يستيقظ عرب المدينة أيضاً في الصباح الباكر، كسائر المسلمين، وذلك لأداء صلاة "الفجر".

متى قاموا بالصلاة، عادةً في منازلهم، يتناولون الفطور بالخبز والقهوة والزبدة، ثمَّ يذهبُ كلٌّ واحدٍ إلى عملِهِ.

عند الظهر، تُقام الصلاة جُماعة في المسجد، بعدها يعودُ كلُّ واحدٍ إلى منزله لتناول الطعام.

متى انتهى الغداء، يقومون بـ"الكيف" (المقيل).

فالبقاء مستلقين على الفُرُش، في حالة سكون جسدي وفكري تام، في وضعيَّة مسترخيَة وممتعة، في حالة شبه السبات، هذا هو ما يكون عليه"الكيف" أو فترة القيلولة عند اليمنيين.

يدومُ "الكيف" بضع ساعات، يدخِّنُ بعدها العرب المدايع، يشربون القهوة حتى ساعة صلاة العصر (عند الثالثة والنصف). وتقام عادة هذه الصلاة أيضاً جماعةً في المسجد.

عندها يعود كل واحد إلى أعماله.

تُقام صلاة المساء وجوباً في المسجد . يعودُ الجميع بعد أدائها إلى المنزل للعشاء.

قليلون هم الذين يخرجون بعد العشاء والتجار فقط يذهبون إلى دكاكينهم في السوق. يأوي الجميع للنوم عادةً بين الساعة الثامنة والتاسعة. لا يستعمل العربُ الأسِرَّة. يفرشون أو يُكدسون العديد من الفرُُش فوق سجّادةٍ أو حصيرة في غرفهم، فينامون عليها ، عامَّةُ الشعبِ ، مرتدين ثيابهم بالكامل ، ولا يخلعُ الأغنياء إلا القفطان.

وهم يقولون إن تلك الأسِرَّة المُرتجلة كلّ ليلة أكثرُ راحةً، إذ تُحافظ على المستوى الأفقي في كل أجزائها؛ بالإضافة إلى ذلك، فإنهم لا يستعملون حُجَراً خصيصة للنوم، ويسترخون ليلاً في أفضل غرف المنزل، ثم في الصباح يقومون بتوضيب الفُرُش ليضعوها في مخازن خاصَّة، فتصبح في النهار تلك الغرفة التي قضوا فيها الليلة صالحةً لكلِّ الاستعمالات التي يقررها صاحبها.

يبدو أن العرب يتحكَّمون بالنوم كيفما شاءوا. فما يلبثون أن يستلقوا على الفُرُش واضعين رؤوسهم على الوسائد حتى يغرقون سريعاً في نوم عميق.

العرب كسائر المسلمين مليئون بالأفكار الدينية، فيستعملون باستمرار في حديثهم أقوال تعجُّب عائدة إلى الله ونبيه.

فأي شيء يشرعون به، نراهم يقولون :"باسم الله" وعندما ينتهون منه يُرددّون "الحمد لله".

وبما أن شاعرية لغتهم تدفعهم إلى ت رخيم كلامهم، فإن عبارات مثل "والله"، بدين الله " أو "بدين الله ورأس النبي "، و"الله"، "بالله"، تالله" لا تخلو أبداً من أحاديثهم، وكذلك أيضاً عبارات "ربّ البيت" و"ربّ الكعبة".

في القرآن، لا نجد فيه «لا تذكر اسم الله سُدىً!».

بطبيعتهم الجَبريَّة، لا يقر العربُ، وخصوصاً عامة الشعب، إلا بإرادة الله في كلِّ شيءٍ لذلك "إن شاء الله"، و "ما شاء الله "، هما العبارتان الأكثر ترداداً عند المسلمين.

العربي لا يقول أبداً «لديَّ رغبة في الأكل، إني جائع» بل يقول: «إن شاء الله أشتهي الأكل، إن شاء الله أجوع» أو أفضل من ذلك سيقول «إن شاء الله سوف آكل كثيراً ». وعلى نفس الحال، لن يقول أبداً بأنه عطشان، أو بأنه غنيّ، أو نَعسانٌ، لكنه سيقول: «إن شاء الله لسوف أشرب وإن شاء الكثير من الماء؛ ولسوف أحصل على المال والكثير منه؛ ولسوف أنام بسلام وطويلاً».

"أنا مسكين " ربما هي العبارة الوحيدة التي لا يقرنها العربي بـ"إن شاء الله؛" لكن فيما يتعلق ببسائر التعاسات البشريَّة الأخرى والكلام عنها فإنهم يُرفقونها بـ"ما شاء الله (ذلك)".

لقد قلنا فيما سبق إنّ قاموس العرب لل شتائم غني جداً، فسأذكر أكثرها شعبية تاركاً لفطنة القارئ ما تشير إليه النقاط التي سأستعملها لما لا يمكن إفصاحه كتابةً.

أبسط الشتائم هي "يا خنزيز"، "يا كلب"، "يا يهود ي"، "يا ثور"، "يا حمار". ثم هناك المركبة لهذه البسيطة مثل "يا خنزير ابن الخنزير"، يا حمار ابن الحمار"، "يا كلب ابن الكلب"..الخ، وقد نرى الأب نفسَه يستعملها مع أبنائه والأم كذلك.

وإذا كان الأب غاضباً جداً فيمكن أن يقول"يا ابن القواد"، "يا ابن القحبة"، "يا ابن الشرموطة"، "يا ابن المفتضخ"، وما شابه ذلك

لكن لا أحد يهتم لأنها أصبحت أمراً اعتيادياً!

وهناك شتائم أخرى مثل "عين أمك "، و"شعرة أمك "، و"كعلة أمك "، و"طيز أمك "، و"جحر أمك "، و"كس أمك "، وأخرى لسنا بحاجة لذكرها لأنها لا تخدم مَن أراد السفر في البلاد العربية، فيكفيه أن يلفظ العبارات المذكورة صحيحة وبقوة حتى يحسبه العربُ واحداً يتقن لغتَهم وبالتاليليس قابلاً للغش أو التلاعب معه.

للعرب عددٌ هائلٌ من الخدم، ويعاملونهم معاملةً حسنةً جداً . على الخدم واجبات قليلة ليؤدوها، وهم عديدون جدّاً في المنزل الواحد، حتى أنه باستطاعة أسوأ خادم من خدمنا ومن دون أي مجهود، أداء العمل اليومي عن أربعة أو خمسة خدم عرب.

لا يستطيع الرجال اقتناء الخادمات ولا النساء الخدم الرجال . ولا وجود للخصيان في اليمن . اليهود لا يستطيعون اقتناء الخدم المسلمين، أما المسيحيون فيبدو أنه مسموحٌ لهم، إذ كان لي دائماً خدم. ولولاهم ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟

ساكنات المدن نساءٌ جميلات جداً، وبشرتهنَّ أكثر بياضاً من بشرة القبيليات أو البدويات، وهنّ أكثر أُنساً وخدامةً من أولئك.

تمتاز زوجات كبار القوم والأغنياء بثراء وتنوُّع أثوابهنَّ، لكن هذا فقط في منازلهنَّ أو في "الحريم" التي يـزرْنَه. القميصُ

مصنوعٌ من التيل الناعم جداً؛ لونه أبيض، أو زهري، أو أزرق، أو أصفر فاتح؛ وهو مُطرَّز بالحرير والذهب، ومكسوٌّ من الأمام بزخارف لماعة . هذا القميص، الواسع جدا وذو الأكمام المُريحة، يغطي البدن من الأكتاف حتى الركب تقريباً، كما ويخبئ تحته الجهة العليا لسروالٍ من التيل الرقيق . يكون هذا "السروال" الخالي من الثغرات، مشدوداً على الخصر ويضيق نزولاً نحو القدم، حيثُ يُربط عندها بالأزرار، وتكون حاقَّته غنية التطريز. وهناك "ثوبٌ" كبيرٌ يُشدُّ عند الوركين، ينساب حتى الأرض تقريباً. وهو مصنوعٌ بحيث يستند على الأكتاف وكونه مفتوحاً من الأمام يترك المجال لرؤية القميص المُطرَّز . أكمام ذلك "الثوب" ضيِّقة جدّاً عند الأكتاف لكنها تتَّسع كثيراً عند اليدين، وتنزل حتى تكاد تلمس القدمين تقريباً . قماشُ هذا "الثوب" من "الكشمير" أو حتى من الحرير ذي ألوان زاهية جداً. وتكون أطرافه محبوكة بالزخرفات الذهبيَّة والفضيَّة . أما "الحِزام" فيكون عريضاً وبطولٍ يتراوح من خمسة إلى ستَّة أمتار، مصنوعاً من الصوفِ أو الحرير المتعدِّد الألوان، ويلفُّ الثوب عند الوركين، إنما من دون الضغط كثيراً على الجسد.

إن شعرَهن طويل جدّاً، وذا لون أسود في أغلب الأحيان (رغم أنه صادف أن رأيتُ منه اللون الكستنائي أو الأشقر)، ويوضع باستمرار خلف الرأس ما عدا ذلك المنسدل على الجبين، الذي يتم تقصيره قليلاً ويُترك لينساب إلى الأمام.

الشعر الخلفي يُترَك حراً أو يُسرَح على ضفائر فردية العدد دائماً، لأنهن يعتقدْنَ أن ذلك يجلب للحظّ السعيد. تُجدَل بين الشعر أحبالٌ صغيرةٌ من الحرير والبهرجان . ثمَّ تُضَمُّ الضفيرتان الكبيرتان عند نهايتهما بواسطة شريطٍ معدني، تُعلَّقُ به حلل متعددة الأشكال. يُغطَّى الرأس بشالٍ من الحرير ذات الألوان الرائعة، ولا يوضع أبداً كالعمامة، لكن مثل غطاء رأسالإسبانيّات.

لأجنحة الأذن ثقوبٌ عديدة تُـمَرِّرُ النساء من خلالها حلقاً وأقراطاً من الفضَّة. تضع نساء العرب حول الرقبة عقوداً كبيرة فضيَّة تحتوي على أحجارٍ كريمة ولألئ من الزجاج، وتُعلِّقُ عليها العديدُ من الريالات. تلبس تلك النساءُ أساور فضِّيَة كبيرة على الذراعين والمعاصم وأصابع اليدين والقدمين وحول عنق الأرجل. تطغى الحلي المبهرجة على الأثواب؛ وتكون الأحجار الكريمة عند العرب موصولةً بالفضَّة دائماً وليس بالذهب . لا تلبس النساء العربيات الجوارب. وجلدة أقدامهنَّ، المغسولة دوماً بالمياه العطِرَة، تكون ناعمة الملمس كجلدة اليدين.

تكون أظافرهن مُقَلَّمةً وقصيرةً ومطليَّةً بـ (الحناء). ويستعملنَ للخروج من المنزل أخفافاً من الجلد الأحمر ذا ت أطرافٍ معقوفة نحو الأعلى، أما في البيت فيَبْقين دائماً عاريات القدمين. في الشارع، ترتدي النساء فوق أثوابهنَّ، على اختلاف وضعهن الاجتماعي، ملاءةً كبيرةً من القطن أو من التيل العادي، ذات لون داكن، تغطِّي كل أجسادهنَّ، من الرأس حتى القدمين . ويُغطّى الوجه كاملاً بواسطة منديلٍ من القماش الخفيف، من دون أن يكون له على مستوى العينين والأنف أيُّ ثقبٍ .

هذه الملاءة "الـحَبلوّة" تغطي الأثواب الغنيَّة لنساء الرجال الكبار، كما تغُطي أيضاً أثواب الفقيرات ذوات الحالة الاجتماعيَّة الدنيا. فلذلك في الطرقات، يكون من الصعب التكهُّن فيما إذا كانت هذه الملاءات البائسة، الداكنة اللون، تُخفي تحتها امرأة ثريَّة أو فقيرة؛ شابةً جميلة أو عجوز شمطاء.

بعد فترة من التعرف على هذا البلد، استطعت أن أفهم بعض الخبايا عن تلك النساء «الأشباح»، ولقد قلت سابقاً إنَّ النساء يتركن بعضاً من بشرة القدم مكشوفةً، وهذا يكفي لتخمين إن كانت المرأة فتاةً أم عجوز اً. وكنت أدرك ما إن كانت الفتاةُ ذاتَ طبع حيوي ومرح من حركاتها الأنيقة والرشيقة؛ أما إن

كانت جميلةً أيضاً فرؤية ذلك كان أمراً صعباً، مع أنه حدث أحيانا أن كشف بعضهن قليلاً عن وجوههن فحدقن فيَّ بعيونهن الرائعة، وذلك عند منعطف الطريق أو في الشوارع الخالية.

نساء الطبقة الوسطى ، وإن لم يرتدين ثياباً بذلك الثراء، فإنهن يستعملن أقمشة من التيل والحرير الناعم جداً.

قمرة بنت عمران

لنساء العامَّة زيٌّ بسيطٌ جدّاً مكونٌ من سروال من القطن الأزرق، وقميص من القطن الأبيض وجلباب من القطن الأزرق، شبيه قليلاً بذلك الذي تَرتديه البدويات والقبيليات.

في كل دار عربي، هناك شقَّةٌ مخصَّصة للنساء "الحريم"، مفصولة عن تلك التي يسكنها عادةً الرجال ويستقبلون فيها الزائرين

التَّسمية "حريم"، ويُعنى بها المنع، الشيء الممنوع، الشيء المُقدَّس، لا تنطبق على الشقَّة فقط، وإنما على ساكنتها أيضاً.

في أوروبا، يُعتقد بأن "الحريم" هو مكان تسلية، وحتى أسوأ من ذلك مكان مُخصَّص للفجور وإشباع الشهوا ت. وهذا الاعتقاد خاطئ على الإطلاق.

يَعُمُّ داخل"الحريم" انضباط شديد وحشمة صارمة . فهناك تسكن والدة وزوجة وبنات وشقيقات ربّ المنزل . ويمكنني طمأنة القارئ الطيِّب، بأن "الحريم" العربيّ يشبه أكثر مكانَ إقامة الراهبات عندنا، من مكانٍ للمَلَذَّات.

و"الحريم" هو المكان الذي يكتسبُ فيه الأولاد الاحترام لله والإنسان، والبنات الأخلاق الحميدة، ويتَعلَّم البنون حبّ الوالدة والزوجة والشقيقة.

ليس لـ "الحريم" تقسيم داخليّ مُميَّز . فالحال نفسه لشقق الرجال، حيث فيه "ديوان" أو "سلاملك" وهو صالة تجتمع فيها نساء الدار ويستقبلن زيارات الصديقات.

تكونُ نوافذ جميع غرف "الحريم" مغطّاةً من الخارج بشبابيك من الخشب المُخرَّم برسوم فائقة الجمال، ويَحجبُ هذا الحاجز الأنظار الفضوليَّة من أن تتَطفَّل من الخارج.

نجدُ في "حريم" سيّدٍ ثري، بالإضافة إلى زوجاته ووالدته وبناته وشقيقاته، العديد من الخادمات، اللاتي ليس بإمكان السيِّد أن يراهُنَّ، إن لم يكنَّ عَبيدات له . فالخادمات إذاً لسن مُخصَّصات لإرضاء شهوانية السيِّد، إنما تقوم كل واحد ة منهن بخَدَماتٍ خاصَّة لزوجاته . فهناك خادمةٌ تهتم بخزانة الثياب، وأخرى بتقديم الطعام، وواحدة بالقهوة، واحدة أو أكثر بالـ"مدائع"، وعدة منهن بالمطبخ وكثيرات بالغسيل والخياطة . فيكون اقتناء الخادمات فخراً كبيراً بالنسبة للمرأة الغنيَّة، وإن

كان لربِّ منزل ثري العديد من الزوجات، فإن لكلٍّ واحدةٍ منهنَّ حاشيتها والخادمات الخاصة.

يُعامِل العربي زوجتَه أو زوجاته بكلِّ إجلال. فيُكرسُ أجمل وأغنى ما لديه "للحريم"، لأنه يريد لأمِّ أبنائه السكنَ الفاخر، في الوقت الذي يكتفي هو فيه بأبسط الغرف، ولا يسمح لنفسه إلا ترف اقتناء الأسلحة والخيول والمدايع.

لا تعتبر نساء المدينة عزلتَهن على أنها تعاسة، فهن يولدن في "الحريم"، ويكبرْنَ فيه إلى أن يُصبحْنَ صبايا، ومن ثم يتزوجْنَ وينتقلْنَ إلى "حريم" آخر لا يختلف عن السابق، لذلك لا يستطعن أن يُدركْنَ إمكانية وجود أماكن وأنماط حياةأخرى لهن. وليس لديهن أدنى فكرة عن حياة النساء الأوروبيات . إن العادةَ لهي طبيعةٌ ثانيةٌ، فحياةُ "الحريم" هي حياة النساء المسلمات التركيات، المصريات، المغربيات، الفارسيات ونساء المدينة

تستطيع النساء المسلمات أن يريْنَ بعضهنَّ من دون أي عائق، وتمتدُّ زيارتهنَّ أحياناً لأكثر من يومٍ؛ وطالما هناك امرأة أخرى موجودةٌ في "الحريم"، فيحرص رب المنزل ألاَّ تطأ قدمه المكان طيلة فترة إقامة هذه الأخيرة عند نسوته.

وبالتأكيد فإن هذا النوع من الانعزال، وهذ ا التقليد في الخروج جميعهنَّ مُحَجَّبات ومُغطَّيات بالطريقة نفسها، وحقّ "الحريم" في أن يُحترم، حتى من قبل سيّد الدار، كل ذلك يعطي للنساء العربيات حريةً مُطلقَة تسمح بالقيام بما لدَّ وطاب لهنَّ في الوقت الذي تكون فيه حرية سيِّداتنا في الحياة العامة مصدرَ مشاكل كبيرة، ويصبحن إمَّا ضحيَّة أقاويل الآخرين أو لا يقدرْنَ على عمل ما يرغبْنَ به.

في البلاد الإسلامية لا يجوز لمس امرأة الآخر، ذلك أنَّهُ لا يعرفها ولا يتكلَّم عنها أحدٌ.

فكما تنجحُ النساء المُسلمات، عندما يخرجْنَ من منازلهنَّ مُقَنَّعات جميعهنَّ بالطريقة ذاتها، بتعريف أنفسهن متى ما أردْنَ ذلك، كذلك يُجِدنَ إخفاء هويتهن أمامَ أزواجهنَّ وأقرب المقرَّبين.

بإمكان تلك النساء الخروج والدخول إلى المنزل في أية ساعة كانت، سواء نهاراً أو ليلاً، من دون أن يَتَمَكَّن أحدٌ من التعرف عليهن. وإن كان رجلٌ ولو زوجٌ مُخان شبهَ متأكّدٍ من أنّ واحدة من تلك النسوة المُقَنَّعات هي زوجته، فلا يستطيع أبداً رفع حجابها، إذ يُشكّل ذلك جناية خطيرة. ثمَّ أنّه يكفي أن يُشاهَد وجهُ امرأةٍ من قبل رجلٍ آخرَ، وفي العَلَن، حتى يُصبحَ الطَّلاق حَتمياً بينها وبين زوجها.

نساء صنعاء نساءٌ وفيات وزوجات صالحات عموماً، لكن هنالك بينهن من لا تَخَاف من القيام بعلاقة محرَّمة، وبالتالي فإن الانعزال والتَحَجُّب يُؤمّنان لهن الإفلات من العقوبة.

فلا يُخاطر أبداً أي رجل بدخول "حريم" رجلٍ آخر، إلا إن كان طبيباً، أو في حالةِ حرب.

فالنساء هنَّ من يقمْنَ بزيارة الرجال الآخرين، ويمكثنَ عندهم لأيامٍ عديدة.

تُعاملُ النساء العربيات خلال الحرب بأقصى احترام، والجندي يكون محظوظا إن استطاع اللجوء إلى "الحريم" لأنه لا يمس بسوء.

كان هناك زوجةٌ شابة اسمها بدوة قد باشرت علاقة حميمة نسرياً مع شابٍ أعزب لم يكن عربياً ولا تركياً ولا إغريقياً. وكانت بدوة تبقى مع هذا الشاب لعدة أيام متواصلة، فكانت تطلب إذناً من زوجها لزيارة قريبة وصديقة لها، حليمة (وهي جارةٌ لي)، قائلةً له إنها كانت قد طلبتها للمكوث عندها بضعة أيام لأنها مريضة. وكان زوج بدوة مثل أي زوج آخر في مثل هذه الحالات لا يرفض أبداً منحها إذنَه.

وهكذا كانت بدوة تذهب إلى بيت حليمة وتخبرها بغرضها، ثم تغادر ليلاً، دون تفريط في الحيطة، لبيت الشاب الأعزب . وكانت حليمة تأخذ نفس القدر من الحيطة، فترسل في طلب صديقة أخرى لها حتى تقول لزوجها "حرام لك"، وتبقيها عندها إلى حين عودة بدوة.

وهكذا إن صادف أن يلتقي زوج بدوة بزو ج حليمة ويسأله إذا كان "حريمه" شا غراً، كان هذا الأخير يجاوبه أنه مشغول لأن صديقات زوجته جئن لزيارتها والبقاء معها . وهذه النساء وفيات لبعضهن إلى درجة أنه لم يحصل قط أن وشت إحداهن بغيرها.

قد قلت إن نساء صنعاء معظمهن صالحات، والرجال يعرفون عن هذه الحيل، لكن الظاهر أن هذا لا يشغل بالهم.

لا تحصل النساء العربيات على أي تعليم، فلا يجِدْنَ القراءة ولا الكتابة لا يُتقن سوى الطبخ والحياكة والتطريز ولا يهتمْنَ إلا بالمنزل، وخصوصاً بتحضير طعام العائلة.

لذلك، يمضينَ أوقاتهنَّ بتلو ين اليدين والرجلين بـ (الحنّاء)، والحاجبين والرُّموش بـ"الكُحل".

وما تبقّى من الوقت يستغرقنه في تزيين وتجميل أنفسهن رغبةً في إثارة إعجاب أزواجهن، وفي الوضوء المتعدَّد المفروض من الشريعة.

يجب على كلِّ زوجٍ أن يكرس عدداً مماثلاً من الليالي لكل واحدة من زوجاته، والنهار الذي يليها . وهو لا يستطيع خلال هذه الفترة المبيت عند زوجة أخرى، إنما ذلك لا يمنعه من أن يَكُونَ لكل واحدة من نسائه الحبَّ نفسه.

إن كان للرجل زوجة واقترن بفتاة عذراء، عليه أن يخصص سبع ليالٍ لها، وثلاث فقط إن لم تكن عذراء (أرملة أو مطلقة).

يجب على الزوج تأمين الأكل لجميع زوجاته مهما كانت شهيتهن. ويحقُّ للزوج منع زوجته من تناول الثوم أو من أكل وشرب أي شيء يمكن أن يترك رائحة فم كريهة.

بإمكان الزوج أن يرفض تزويد الزوجة بالحَطَب والملح والبهار والخلّ، أي بمُجمل الغذاء، وذلك إن رَفَضَت القيام بواجب الزوجية من دون أي سبب مُقنع.

في حالة الاعتراض، يقومُ القاضي بالُحكمِ على هذا النوع من القضايا!!!.

لا يتم الزواج في المُدُن كما في القرى، عند البدو والقبيليين، حيث تكون النساء أحراراً وغير مُحجَّبَات.

في المدن، حيث لا يمكن رؤية النساء، يُقام العقد بين العريس وأهلها من الرجال. فتكون والدة وشقيقات العريس هن اللواتي يعرِضْنَ عليه الزواج من فتاة يعرِفْنَها.

تَتبَع الاحتفالات بسرعة بعد الموافقة وإتمام العقد، وهي أكثر روعة وضجيجاً من تلك التي يحييها القبيليون . ينتظر الزوجة حفلٌ كبيرٌ في "حريم" العريس الذي هو لا يُشارك فيه، بل يذهب مع الأصحاب والأهل إلى المسجد.

عند عودة الزوج، وبعد المأدبة التي يقيمها على شرف المدعوين يدخل هذا الأخير إلى "الحريم"، وهنا يَرفعُ الحِجاب ويرى وجه زوجته للمرة الأولى.

وهذه لحظة حاسمة، لأنه يتقرر فيها إن كانت أحلام وأمنيات العريس، التي تخيلها عن جمالها، ستتحقق أم العكس تماماً.

لحسن الحظ فإنه من النادر أن لا يتم تثبيت عذراوية الفتيات العربيات لأنهن على الأغلب صالحات ومتحشمات. لكن قيل لي إن الأمهات يستعملن أحياناً، وإحساساً بالرحمة، حيلاً لكي تتبيّن

العلامة الكبرى حتى مع أولئك اللاتي بسبب عيب أو مرض أو حتى «خطأ» قد يمنعهن ذلك من تقديمها.

XII

الديوان- الآداب العربية- التحية- الخرافات: الجنّ، العين، التعاويذ، التنبُؤ بالمستقبل، السحر، تحضير الأرواح، التنجيم، أيام الحظ وأيام التعاسة، الكيمياء، الأولياء والدراويش - الأموات - حزن الأقارب - المأتم - المقابر والمدافن- الخِتان.

إنّ الديوان في المنازل العربية في صنعاء، أو صالة استقبال الرجال والنساء، لهو المكان الوحيد الذي يستحق الوصف.

الديوان غرفة واسعة، مُربَّعَة أو مستطيلة، فيها العديد من الأبواب والنوافذ.

تكون الأرضيَّة عند جانب الغرفة بمحاذاة الباب أكثرَ انخفاضاً من الجانب الآخر، بما يُساوي القدم تقريباً (30 سم). هذا الجانب المنخفض يُسمّى"الـدُركة"، وهنا تُترك الصنادل قبل الصعود إلى الديوان ، أو الجانب الأعلى، المُغطى بالكامل بالسجاد والمبسوطة بالفـُرُش والوسائد من هنا وهناك، حيثُ يُستقبلُ الزائرون.

في وسط الديوان، نجدُ عدد اً من "السُفرَيات" التي توضع عليها المداعات، وأواني العطور، والشمعد ان، وفناجين القهوة والعديد من التحف وأغراض الترف، بحسب ثراء صاحب المنزل. وتكون جدران الحائط مُبيَّضة بالجص، من دون أيَّة زخرفة، ولديها كوّات صغيرة توضع فيها تحف أخرى.

النوافذ صغيرةٌ ومنخفضةٌ، ولا تعلو عن الأرض أكثر من 45 سم؛ لديها مصراعان فيهما نوافذ صغيرة أخرى . فوق هذه النوافذ هناك أخرى مستديرة ومربَّعَة، مغلقة بإحكام بألواح من الألابستر الأبيض اللامع، أو بزخارف محفورة في الجص تكون ثقوبها مُغلقة بالزجاج المُلوَّن. هذه النوافذ الملوَّنة، كما قد ذكرتُ سابقاً، يصنعها اليهود.

بعد أن يأخذ اليهود مقاييسَ وشكلَ النافذة بالفرجار على الحائط، يرسمون حدودها على طاولة مستوية. ثم يصبّون عليها الجصَ السائل حتى يمتلئَ الشكل المرسرم على الطاولة بحيث يكون السمك من أربعة إلى خمسة سنتمرات ومستويَ السطح.

بعدما يبدأ الجص بالتيبس يقوم العمال اليهود برسم زخارف هندسية عليه بواسطة الفرجار، ومن ثم ينحتونه ويحفرونه بأدوات وسكاكين حديدية خصيصة. وتكون النحوت عميقةً قَدَرَ سمك هذا اللوح من الجص، متى ما أصبح الرسم منحوتاً بالكامل، يقوم العامل بسد الثقوب بقطعٍ من الزجاج المختلف الألوان مقطوعة خصيصاً بالماس أو بأحجار قاسية أخرى . طبعاً، يتبع الرسم الأولي وتوزيع قطع الزجاج لهذا «الهيكل» الجصي ذوقَ أو انعدام الذوق عند الفنان. يُلصق جصٌ طريٌ قطعَ الزجاج على اللوح المنحوت؛ وفي النهاية، بعد اكتمال هذا العمل، توضع النافذةُ في محلها داخلَ الحائط وتثبت بالجص أيضاً في العادة، لا يستعمل العرب الستائر.

الغرف الأخرى للمنزل العربي تُشبه الديوان، لكنها أصغرُ حجماً وأقلُ أناقةً.

لا يستعمل الصنعانيون خزانات الملابس . توضع ثيابهم ومِلابسهم الداخلية مطويةً إمّا داخل كوّات الغرف، أو في صناديق من خشب.

تكون خَزْنَة صاحب المنزل كوةً في الديوان، مُقفلةً ببابٍ صغير. يضع بداخلها ماله وأغراضَه الثمينة.

بعض البيوت وجدتُ فيها مرايا؛ وكل صنعاني ثريّ تقريباً يمتلك ساعة أمريكيَّة جدارية، يتراوح ثمنُها في صنعاء من **35** إلى **40** فرنك من الليرة الإيطالية.

تُضاء المنازل العربية بواسطة مصابيح الزيت . لكن الأغنياء الكبار عندهم مصابيح نفطيَّة حملها التجار اليونانيون إلى اليمن مع الساعات الأميركيَّة والمرايا وآلاف الأغراض الأخرى المصنوعة في أوروبا.

تُشكِّل الآداب، أو أصول الرسميّات عند الأمم، ما تُمثِّله الحركات وطريقة التصرُّف عند الفرد، فهي تقول لنا الكثير عن طبائع شعبٍ ما.

فعندما يلتقي شخصان عندنا، نرى دائماً كيف أنَّ الشخص الذي يظن في الآخر تفوقاً في الرتبة أو الموهبة أو الحظ، يحرص أشدَّ الحرص على إلقاء التحية أولاً. أما عند العرب، فيكون المُتفوق هو الذي يُحَيِّي أولاً: فيفعل هذا تكريماً للرجال الذين بحكم مولدهم أو حظهم أو مناصبهم أو وظيفتهم هم أقلُ مرتبةً وشأناً منه

فيكتفي عندها المتفوَق برفع يده اليُمنى إلى صدره، وينحني الأقل شأناً كثيراً، حتى تكاد يده تُلامس الأرض، ليرفعها بعد ذلك إلى جبينِه.

عندما يلتقي اثنان متساويا المنزلة، يرفع الواحد والآخر يده اليُمنى على مستوى الفم، وبعد تقبيلها، يرفعها إلى الجَبين. وإذا لم يكن التساوي تاماً ولكن في نفس الوقت ليس هناك فرق شاسع بين الاثنين، فإن الأعلى مرتبةً يسلّم على الثاني وكأنه مساوٍ له لطافةً منه، لكن الثاني يحرص على أنْ يرد باحترام أكبر ومنحني الرأس والجسم بشكل خفيف.

في حضور شخصية كبيرة، يقومُ الفرد الأقل شأناً بالانحناء بشدة، مادّاً يديه الاثنتين نحو الأرض، ثم يرفعهما إلى الصدر فالفم فالرأس.

في التحيَّة بين المتساويـيْن، يُتابع كل واحدٍ سيرَه؛ أما إن وُجِـدَ فرقٌ كبير بين الاثنين، فالأقل شأناً يتوقَّف أمام الشخص الآخر، الذي يجب أن يُحَيِّي أولاً.

تُرافق التحية العادية عبارة: "السلام عليكم"، المُجاب عليها بـ"عليكم السلام".

أما إذا التقى اثنان ذوا مرتبة متساوية ولم يُكملا طريقهما، بل توقفا للتحدُّث، تكون عادةً أول جملة ينطقون بها : "كيف حالك ؟"، أو "طيّبين ؟"، ويتصافحان في الوقت نفسه باليُمنى ويُقبِّل بعدها كل واحدٍ يده. لا يمكن التوجه بالسؤال لعربيّ عن عائلته، وأقلّ من ذلك عن "حريمه". وإن صادفَ أن التقى رجلٌ بنساء قد يعرفهنَّ، لا يمتنع فقط عن تحيتهن، بل لا يقوم حتى بأعمال يُفتوض منها بأنه قد تعرَّف عليهن . ولا يمكنه حتى القول بأنه التقى بهن، إذ يُشكل ذلك خرقاً للأعراف خطيراً جداً.

لا تُحيِّي النساء أبداً بعضهن عند الالتقاء.

الشعب القليلُ التنوير والمتشدد دينياً عادةً ما يؤمن بالخرافات: وذلك هو حال الشعب العربي.

واحدة من الخر افات الأكثر انتشاراً بين اليمنيين، هي الإيمان بـ"الجِنّ"، الذين كما قد ذكرنا، هم فصيلة وسطى بين الإنسان والملائكة، كانوا قد خُلِقوا قبل آدم، وولدوا من النار، وتدوم حياتهم منذ قرونٍ، ولهم سلطان على ظواهر الطبيعة، ويستطيعون اتخاذ كل الأشكال التي تعجبهم، وهم يطيعون أوامر سليمان، يستمعون إلى القرآن ويُشيدون به، كما يستمعون أيضاً لكلِّ ما يُقال في السماء.

يوجد الجِنّ الطَّيبون والأشرار، ويولي العرب احتراماً كبيراً للأولين ويهابون كثيراً الثانيين.

يتواجد الجن الطيبون في المنازل، في المساجد، في الآبار، في النوافير، في الحمامات؛ ويحمون المؤمنين من الجن الأشرار المُسمّين بـ"العفاريت" الذين يُقيمون على السطوح أو على أعالي النوافذ، مستمتعين بإسقاط الأحجار أو الياجور أو قطع من الحيطان على المارّة.

الرياح التي تحمل الرِّمال كالمهبّ يُطلقها عفريتٌ لاذٍ بالفرار. والشهاب هو سهمٌ يطلقهُ الله على جنّي شرير. في شهر رمضان (شهر الصوم)، يسجن الله جميع العفاريت كي لا يقوم أولئك بتجربة المؤمنين. لـ"الشيطان" عددٌ لا يُحصى من الجنّ الأشرار تحت خدمته . بحسب الأساطير التي ما زال العرب العصريّون يؤمنون بها، كثيرون هم الجنّ الذين يُشاركون البشر في الجسد والخلق. البعض الآخر مخفيون عن الأنظار تماماً، ويعيشون بين البشر . من بين الأماكن التي يقطنو نها، يُشير العرب إلى "جبال زراج والديلان"ما بين البصرة ومكّة، وبلاد "وبار"، بين اليمن وصحراء يبرين.

وتناقلت أساطير العرب غير المؤمنين إلى العرب المؤمنين بإلهٍ واحدٍ، إنما لا يعترف أولئك الآن بأن للجنّ الأشرار سلطةً على المسلمين، إذ لا يَسمح لهم الربّ بذلك، كون المُسلم هو المُختار عند الله.

حسب ما يرويه التراث، فإن أم ملكة سبأ كانت جنية، وسليمان نفسه كانت أمُه امرأة من هذا العالم وأبوه جنياً اسمه أبرهة.

يؤمن العرب إلى الآن بأن زيجات حقيقية أو علاقات عرضية حدثت بين الجن، سواءً ذكوراً أو إناثاً منهم، وبين البشر.

فالجنيّة التي بسبب شبقها إذا كانت تريد أن تجامع رجلاً من دون زواج، كانت تستسلم له كلية، لكنّه بعد ذلك يكون خاضعاً لتأثيرها الغامض والقوي، وعند اللقاء يسبب له هذا

التأثير الصرع فتستحوذ عليه تشنجاتٌ عنيفة وتخرج بغزارة رغوةٌ بيضاء من فمه.

وكان الجن الذكور يتصرفون بنفس الشكل مع بنات الإنس.

كانت هذه علاقات هوى رهيبة وخطيرة، خاضعة للقوة؛ ونهايتها المحتومة، الموت، تقترب بسرعة، بقدر ما كان يزيد الهيجان الجنسي لهذه المخلوقات القوية جداً .

لذلك ما برح العرب يعتقدون أنَّ قبائل الأولين مثل الشكيين ويأجوج ومأجوج والطولفان تتألف من وحوش عملاقة تأكل الثعابين والحيَّ ات والعقارب، ومولودة من جماع النبتات والحيوانات.

ما زال العرب يؤمنون بالعين ("نظر" أو "عين بطَّال")، فيخافونها ويأخذون جميع الاحتياطات اللازمة لتقليص تأثيرها. فهم يرون الحَسَدَ والع يَن في كلِ إعجاب يُعَبَّرُ عنه بحرارة لِما قد يملكونه . لذلك فإن العرب معتدلون جداً في صِيغ الإعجاب، وعندما يستعملونها يحرصونَ على إتِّباعها بـ"إن شاء الله" أو "ما شاء الله".

وإن أُطلِقَ استعجابٌ من غير إلحاقه بتلك العبارات، فإن مَنْ يتلقاها إن شكَّ بأن الآ خر قد أرادَ إصابته بالعين، يتوجُّه إليه على الفور قائلاً : "بارك الله والنّبي " حتى يجاوب الآخر : "مُبارك الله ونبيِّهِ"، فيُبطل عندها تأثير العين.

ويَتَّهمون أيضاً العين بكونها سببَ كل الكوارث الغير محسوبة التي تصيبهم، لذلك، يلجئون إلى التعاويذ والسحر لحَجبِها.

التعويذة الأكثر تقديراً هي نسخة عن آية من القرآن، مُغَلَّفة بقماشٍ حريري ومحبوكة في القميص على الكتف الأيسر أو

موضوعة في قوارير صغيرة من الفِضَّة أو الجلد، مربوطة على الذراع الأيسر . تلبس النساء إلى جانب قلا داتهن قطعةً معدنيَّةً على شكل يدٍ بأصابعها الخمسة . ويضعُ التُّجار كتابات دينية أمام متاجرهم، والعرب يضعونها على أبواب منازلهم وغرفهم. ويرون أنَّ في الأحلام تَنَبُّؤات عن المستقبل . وقد وجدتُ في صنعاء وذمار وزبيد وتعز منشورات ضخمة تتناول تفسيرَ الأحلام.

يؤمن العامة البسطاء من الشعب المُسلم، الذين لا يعرفون القراءة، بالسحر تحضير الأرواح. يكتفي العرّافون والعرّافات، المُنتمين أيضاً إلى الطبقة العامَّة الدونية، بتكهُّن الحظ السعيد أو التعيس. أما المُنتمون إلى الطبقات الميسورة والثَّرية، فلا يقبلون بوسطاء جاهلين، ويؤمنون فقط بـ"علم النجوم".

للعرب أيضاً أيام حظٍ وأيام يسودها سوءُ الطّالع. أيام الحظ هي : الاثنين ، المُكَرَّس للزواج؛ والخميس، اليوم "المُبارك "؛ والجمعة، وهو اليوم الأكثر حظاً إذ يذكّر ببداية الإسلام على الأرض، وذلك بهجرة النبي من مكَّة التي حصلت في يوم جمعة، ولذلك يُسمّى هذا النهار بالـ"فضيلة".

الأحد والأربعاء هي أيام غير معنيَّة.

أما الثلاثاء فهو يوم مشئوم، ويُسمّى بيوم الدمّ، إذ أنّ أغلبيَّة الشهداء المسلمين قد توفوا في هذا النهار. إنما يكون السبت أسوأ الأيام على الإطلاق، ربَّما لأنه يمثل يوم الاحتفال عند اليهود.

وحتى خلال العام هناك أيام خاصة للحظّ السعيد أو التعيس. أسوأها على الإطلاق هو آخر أربعاء من شهر "صفر" (الشهر الثاني من السنة القمريَّة الإسلاميَّة). في هذا الأربعاء، يخشى معظم العرب الخروجَ من منازلهم، إذ أنَّ في ذلك النهار عديدةٌ

هي الكوارث التي تقع على الب شرية، فيعتقد العرب أنَّ هذا النهار هو يوم الاحتفال عند "العفاريت".

في اليمن، كما في كلِّ أرجاء المنطقة العربية، توقَّف منذ زمنٍ البحثُ عن حجر الفلاسفة، الذي كان يضمُّ اختبارات قديمة وعديدة هدفها عديم المعنى، لكنها انتهت بخلق أحد أهم فروع العلم: "الكيمياء"، أو بالأحرى علم تجزئة الأشياء في عناصرها الأوليَّة، تلك التي سميناها نحن فيما بعد بالكيمياء.

لم ألتقِ في اليمن بكيميائيين: لم أجد بين البدو والقبيليين إلا سحرة وساحرات الأفاعي.

علماً بأن القرآن لم يشرِّع عبادة القديسين، لكن لليمنيين أيضاً أولياء أمواتٌ وأحياءٌ؛ وه ؤلاء لا يحصلون على تقديسٍ سوى ذلك الذي يمنحه اعتقاد الجمهور، وغالباً ما يتم العبثُ بهذه المعتقدات واستغلالُها بشكل فاضحٍ .

لكن، وهو فخرٌ لشعب اليمن، القديسون عندهم قليلون جدّاً، في حين أن عددهم مفرط في البلاد المسلمة الأخرى، كما في المغرب والجزائر...الخ.

يعتبر العربُ الأغبياءَ والحمقى والمعتوهين والمجانين غير المؤذين، كرجال فضَّلهم الله على غيرهم: إذ، كما يقول القرآن: "أرواحهم (أي ذكاؤهم) في السماء و لكن أجسادهم فقط التي تحتك بالناس".

كلّ شيء مُباحٌ لأولئك «القديسين» الغريبين، فهم يمثلون أمام الخلق عاريين تماماً، وبإمكانهم انتهاك جميع التشريعات الدينية، دون أن يعترضَ أحدٌ «فكيف يمكنهم منعَ أجسادهم من الرضوخ لأهواء الفطرة والرغبات المادية وأرواحهم كلها غارقة في تأمل

الله؟»، هذا ما قاله لي معلمي للغة ال عربية القاضي حسين القلاضي.

القاضي حسين القلاضي

الدراويشُ هم مسلمون إما أكثرُ تقو ىً وعبادة لدينهم من غيرهم، أو يتظاهرون بها. رأيتُ البعض منهم في اليمن، لكن كا نوا جميعهم أتراكاً أو فُرْساً . «يثبت » الدراويشُ قدسيتَهم «متظاهرين » أنهم يأكلون الحجارة أو الزجاج أو المعادن؛ ويدّعون أنهم يخرقون أجسادَهم دون الإحساس بالألم أو التَّسبُّب بأي جرح؛ ويربّون العقارب والأفاعي؛ ويضعون على أذرعهم جمراً مُشتعلاً دون أن يحترقوا. فهم باختصار دجّالون. يعتاشون على الصَّدَقَات، التي إما يطلبونها أو تُعطى لهم دون الحاجة إلى

طَلَبِها. عربُ اليمن يهابونهم كثيراً، إذ يعتبرونهم جالبين لشؤم رهيب . وبالتأكيد هذا هو السبب الذي حالَ دون أن التقي بالدراويش إلا نادراً في بلاد اليمن السعيد.

يولي العرب احتراماً كبيراً للأموات. تُعتبَرُ الجنازة عندهم طقوساً دينيّاً عظيماً . علماً بأنهم يخضعون بالكامل لمشيئة الله «المُطلقَة»، فلا يستطيعون التعبير ولا يشعرون بألم كبيرٍ عند خسارة قريب لهم . فإظهارُ أسفٍ أو مؤاساة كبيرةٍ يُشْعَرُ بهما إزاءَ عملٍ يخُصُّ الإرادةَ الإلهية خطيئةٌ عندهم . وبما أنهم مُقتنعون أنَّ المُسلم لا يمكن أن يكون ملعوناً، فإنهم ينظرون إلى موتِ عزيزٍ لهم وكأنها مغادرة لأرض المآسي هذه، للدخول بعدها في الجنَّة.

وهذا فعلاً صحيحٌ إلى درجة أنَّ المُحتضرين أنفسَهم عوضاً عن الإحساس بخوفٍ من الموت أو ألمٍ لمفارقة هذه الحياة، وبابتساماتهم الصادقة على شفاههم التي هي برهان عن حالة طمأنينة كاملة لأرواحهم، يبدون غيرَ آبهين إلا للحظة الحاسمة التي ستدخلهم حياة النعيم والأبدية . أما عندنا، فآلام ودموع أفراد العائلة تبدأ مع احتضار المريض؛ بالمقابل عند العرب، طالما كان الفرد يَتَنَفَّس يبقى الأهل هادئين ومتماسكين . ولو نبَّهَهم طبيبٌ بأنَّ الموتَ يقترب من مريضهم لكان ذلك عبثاً، لأنَّ هذا الخبر لن يحركَ تأثُّرَهم، إذ يعتقدون بأن الحياة والموت في يد الله فقط، وبأنه لا يُسْمَحُ لأيٍ كان أن يقول عن رجل ما زال يَتَنَفَّس: «سوف يموت بعد قليل». لكن ما أن يلفظ المريض نفسَه الأخير حتى تبدأ النساء بإطلاق صيحات حادة . أما الرجال فيحافظون دوماً على رباطة جأشهم، حتى في أوقات حزينة مثل هذه، فلا يتبين أساهم أبداً على ظاهرهم، إنما يتجنَّبون الاجتماع بأصدقائهم لبضعة أيامٍ، ماكثين وحيدين في منازلهم.

ما أن يُفارق أحدٌ الحياة، حتى يُرسل، حسب جنس الميت، بطلب أولئك الرجال أو النساء الذين يهتَّمون بتغسيل الميِّت. متى

غُسِلَ الجُثمان، يوضع فوق سرير ويحلقونه نازعين كلَّ الشعرات؛ ثم يسدّون كل الفرجات حتى لا يَتَلَوَّث الجثمان بإفرازات من الداخل، بعد تطهيره خارجياً بالمياه.

بعد ذلك يلُفَّهُ الغسّالون بملاءةٍ من القماش الجديد ثم يُمددونه على "سريرٍ" خصيص لنقل الأموات، وفوق الجُثمان يفرشون غطاءً خاصاً للجنازات ويحملونه هكذا إلى المقبرة، حريصين على إبقاء الرأس مُوَجَّهاً صوب الاتجاه الذي يسلكونه، وعلى المرور أمام المساجد.

يسبقُ بعض الشبان موكبَ الجنازة، مُرتِّلين بحزن ومهابة في نفس الوقت شهادة الإيمان الإسلامي: "لا اله إلاَّ الله، محمد رسول الله".

يسيرُ وراءَ هؤلاء خدّامو المتوفّي، ثم الرجال الأربعة الذين يحملون سرير الجنازة على الأكتاف، وأخيراً الأقارب، الأصدقاء، المعارف والمخلصين.

في حفرة المقبرة القليلة العمق كي لا يتعب الميت يوم القيامة، يوضع الجُثمان بطريقةٍ يكون فيها وجهه متجهاً نحو مكَّة (شمال- غرب اليمن).

لا يوجد قانون خاص عند العرب يحدد المهلة بين الموت والدفن؛ القرآن يوصّي فقط بإقامة الجنازة في أسرع وقتٍ ممكنٍ. لذلك من الشائع في اليمن دفنُ الجُثمان فور أن يُفارق الشخصُ الحياةَ ببضع ساعات، لكن يجب إتمام الجنازة خلال النهار فقط، فإذا تُوفِّيَ المريض خلال الليل، وجب انتظار شروق الشمس لِدفنه.

المقابرُ الصنعانيَّة، كما كل مقابر مُدُن وقُرى اليمن، تَقَعُ خارج الأحياء؛ فهي حقولٌ واسعة مهجورة، حيثُ نرى فيها بعض القبور النادرة من الجير والحجارة، والقليل القليل من الكتابات العربية الحديثة . لا يرتدي العرب أي علامة مميَّزة للحداد، إنما عندما يموت صاحب البيت، هناك عادة قلْب سجاد وبسُط ووسائد وفرُش ديوانه، لمدَّة ثلاثة أيام متتالية بعد موته.

لقد قلنا إنَّ القرآن لا يتطرق إلى الختان، وهي عملية شرّعَها إبراهيم، وأصبحت بالنسبة للأمَّة اليهوديَّة التزاماً دينياً . أعفى القديس بُولسْ المسيحيين من ذلك، لكن المُسلمين، الذين هم أوفياء لتقاليد أب اليهود، فرضوا على أنفسهم الختان . فجواباً على سؤالي، قال لي عرب اليمن إنَّ الختان له ثوابٌ كبير ويجب على الرجل أن يخضع له إن لم يكن هناك أسباباً مقبولة تمنع ذلك، ومع ذلك يمكن للرجل أن يكون مسلماً صالحاً حتى دون ختان

الروضة

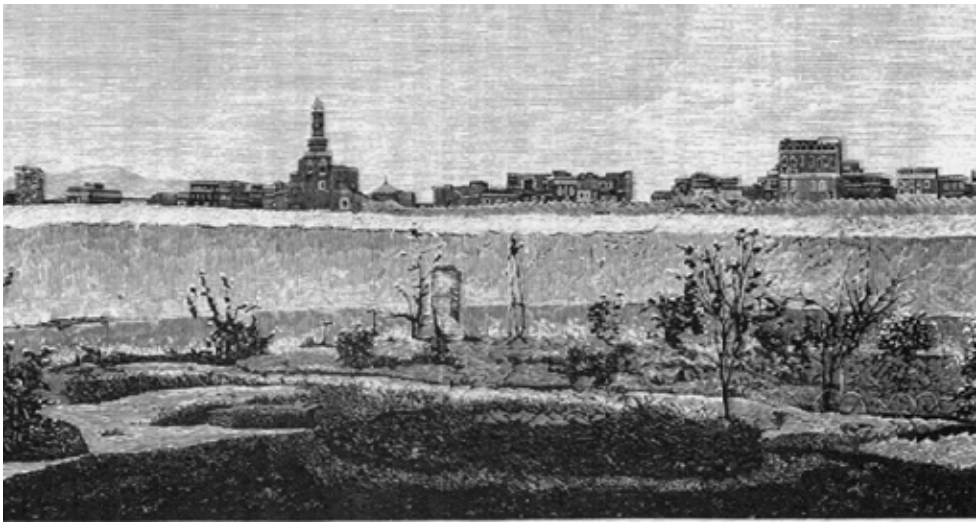

والعُمر الذي يجب أن يتم فيه هذه الطقوس ليس مُحدَّداً، فهو يَختلف من بلدٍ لآخر. على كل حال، يجب أن لا يتجاوز عمر الولد مرحلة البلوغ.

يُرفِق الأهل الموسرون مراسيمَ ختان أولادهم ببهاء كبيرٍ . فيوضع الصبي على حصانٍ أو حمارٍ أو جملٍ مزيَّنٍ تزييناً فاخراً، ويصطحبه حشدٌ من الأصدقاء والموسيقيين؛ وهو أيضاً

يكون لابساً أثرى الثياب، فتغطّي رأسَه عمامةٌ من الحرير الأحمر مطرز بالذهب.

يجب عليه أن يحمل بيده اليمنى محرمةً يضعها على فمه.

يخصص الأهل الأثرياء جداً ترفاً كبيراً في الموكب الذي يحمل ولدَهم إلى المسجد، فيرافقه أصدقاءُ المدرسة والعديدُ من صبيان جيله الذين يحرقون في أوانٍ خاصَّة البخّور وخشب الصبار ولُبان جاوا. وبعد أن يُمضي الموكب في المسجد وقتاً طويلاً نسبياً بعد الظهر، يقدِّم الأهل وليمةً فخمةً لكل المدعوين . وبعد الغذاء يتم الختان. يسوق الحلاّق الولدَ إلى غرفة مُنعزلة، ويقوم بالعملية بواسطة شفرة ثم يوقف النَّزيف بمساحيق قابضة. يحتفل المدعوون بالمختون الجديد بهتافات كبيرة، ويقدِّمون له الهدايا. بعد مرور ثمانية أيام، يُساق الولد إلى الحمام، مرافقاً من جديد ببهاء كبير.

XIII

المأكولات- القهوة على الطريقة التُّركيَّة- الحشيش.

يستهلك العرب العديد من المأكولات التي نأكلها نحن أيضاً. عادةً ما يأكلُ البدو والقبيليون لحمَ الخروف والماعز، ونجدُ لحمَ البقر المذبوح في المدن فقط. لم أجد أبداً في اليمن لحم الحصان أو لحم الحَمَل، لأنَّ تقليداً عربياً قديماً يوصي بعدم ذبح الحيوانات اليافعة كي لا يَضرَّ ذلك بتكاثر الفصائل . بما أنَّ العرب لا يميلون للصيد، فهم بذلك لا يتغذون منه، بل يستهلكون كميَّاتٍ كبيرةٍ من الدجاج والحمام الداجن ومن البيض، كما ويعجبهم كثيراً الحليب المخمَّر.

يستهلكون أيضاً كميَّاتٍ كبيرةٍ من البقوليات وخضروات من جميع الأنواع.

وكما الحال في جميع البلاد الشرقية، فحتى في اليمن النساء هن من يقمْنَ بالطبخ؛ ويستعملن الزِّبدة والشحم فقط، وأبداً الزيت.

تُستعمَل المُطيِّبات والتوابل بكميَّة كبيرة في الطبخ العربي . وفي جميع أنواع طعامهم تقريباً، بما فيه الحِساء، يعتاد العرب على عَصرِ الليمون الحامض عليها.

لَكن الخُبزَ يبقى أساسَ التغذية عند تلك الشعوب. في المدن يصنعون أرغفة أكبر وأسمك وأفضل طهواً من تلك التي يجهزها البدو والقبيليون.

في منازل الأثرياء يكونُ "المرق" مُحضراً عادةً من الدجاج والحمام، وعند العامَّة من الشعب من لحم الخروف. يُضافُ إلى

هذه المـرَقَة الأعشاب، والبَصَل، والجَزَر، واللفت، واللوبيا ، والكثير من الفلفل والتوابل، وفي النهاية الخُبز . يُشكِّلُ هذا الحِساء الطعامَ المعتاد في كل اليمن.

للأغنياء أيضاً المشاوي التي لا تُطهى على الأسياخ، بل في الفُرن.

في بعض الأحيان، يشوون خروفاً كاملاً، ويكون محشواً بالأرز والزَّبيب واللوز، ويطلقون عليه اسم (الحنيذ). لديهم أيضاً نفس الصنف مطبوخاً (الحنيذ المطبوخ). ونرى عرب في البازارات يبيعون (المشاوي)، أي قطع من اللحم أو الكبد مشوية على صفائح حديدية: وبما أن شحم الخنزير مُحرَّمٌ بشدَّة على العرب، لذا يستعمل الطباخون دهن الخروف.

يتم طبخ الدجاجات إمّا مشويةً في الفرن، أو في القد ور مع الزبدة أو مسلوقةً فقط.

"الكُبيبات "هي كرات من اللحم المُقطَّع جيِّداً الممزوج بالبصل الأخضر، الملح، الفلفل والتوابل. وللعرب أطباقٌ عديدة يكونُ فيها اللحم قطعاً كبيرة أو مفرومة، ير افقها الخضار والبقوليات والزبيب وعصير الزيتون الأخضر أو العنب غير الناضج.

قلّد الصنعانيون الأتراك، فيصنعون (الطُّلْمَة)، وهي فطيرة باللحم المفرومٌ الممزوج بالأرز، والمُغلَّف بورق الملفوف، و"البيلاو"، وهو نوعٌ من الأرز الأبيض المطهو مع الزبدة أو مرق اللحم.

العرب، كسائر الشرقيين، شرهون بالحلويات . عندهم "السَّبَايَة"، وهو نوعٌ من العجينةِ الطرية فيها الكثير من السُكَّر، و"بنت الصحن " وهو حلو لذيذ جداً، و "الكنافة" وهي عجينةٌ سائلة جداً، مصنوعة من الطحين وصفار البيض والسُكَّر والقليل

من الملح والزبدة. توضع العجينة في قمعٍ كثيرِ الثقوب، ويتم طبخها على قدر مسطح حامٍ يحتوي على الدهن، فيتم دوران ذلك القمع بحيث يجعل العجينة تأخذ شكلا لولبيا وهي تسقط على القدر، وطعم الكنافة شهي وطيب.

لديهم أيضاً حلو ى "السُّوسي"، وهي مصنوعة من عجينة الطحين وصفار البيض والسكَّر.

"الشعرية"هي من العجينة التي يصنع منها الخُبز، تُقَطَّعُ بالأصابع على شكل عيدانٍ صغيرة، ثمَّ تُتركُ لتجفَّ وتُطهى من بعدها مثل المعكرونة عندنا.

"المعصوب" هي قطعٌ من الخُبز يتم طهوها مع الزبدة والعسل.

"البالوزة" هي أوراق ورود مطحونة ومن ثمَّ معصورة : يُضيفُ العرب إلى هذا العصير طحينَ الحِنطة، السكَّر، القرفة والكثير من المياه حتى يتشكل مشروباً، لا يوضع بتاتاً على النار، ويجب أنْ اعترف أنَّ هذا المشروب أحدث فيِّ تحريك في المعدة قريب من التقيؤ.

و يستعمل العامة كثيراً "الحلبة "، وتتشكل من البذور الخضراء للحلبة التي تترك لنصف ساعة في الماء فتزداد كثيراً في الحجم، ثم تؤخذ (وتُرْهَك) فوق حجرٍ مع أنواع مختلفة من التوابل ، بعد ذلك تُقدم هذه العجينة مخضوضةً جيداً بالملح والفلفل في طاسة خاصة. ولا أستطيع أن أقول أنَّ هذه الأكلة العربية قد أعجبتني.

بمناسبة الأعياد التي تَتبع شهر رمضان، والمُسمّاة بـ"البَيْرام"، تكون "الشربة" الطبق الأهم . تُترك حبوب الحِنطة كل النهار في المياه إلى أن تنتفخ كثيراً، ثمَّ توضّع في جُرنٍ وتدق حتى تصبح عجينة، ويُضاف إليها الحليب والملح والبهار والفلفل، وتؤكل هكذا نيِّئةً.

يكون تسلسل الأكلات على المائدة العربية كالآتي:

تُقَدَّمُ الأطباق دائماً الواحد تلو الآخر . فقبل كلِّ شيء هناك الحِساء، ثمَّ المشاوي، ثمَّ اللحم مع الخضار، ثم الحلويات، يليها مرة أخرى اللحم مع الخضار وأخيراً الأرز.

لا يشرب العرب شيئاً سوى الماء . بعض الأثرياء الصنعانيين أو بعض التجّار، المُتَّبعين نَهج الأتراك، يسمحون لأنفسهم احتساءَ الكحول والنبيذ. لكن مَنْ ينتهك الشرع هم عددٌ ضئيلٌ جدّاً، ولا ينتمون حتى إلى طبقة الشعب.

وه ؤلاء القِلَّة لا يجيدون استعمال المشروبات الكحولية كمنشطات قادرة على إعطاء منافع جسدية وذهنية، إن لم يُفرط فيها؛ فهم كسائر بقية المسلمين لا يبحثون في هذه المشروبات إلاَّ عن وسيلةٍ للسكر، وكأنهم يقولون: طالما هناك خطيئة فأقلها أن نرتكبها بالكامل.

بالنسبة للعرب «الأوفياء»، تكون المياه والقهوة المشروبات الوحيدة التي يشربونها.

لن يكون سيئاً للقارئ الطّيب، أنْ أتطَرَّق إلى موضوع القهوة المشار إليها آنفاً وأتكلَّم عن الطريقة الحقيقيّة لصنع القهوة التُّركيَّة الممتازة جداً والمنشود بها كثيراً. فعندنا لا يجيدون تحضيرها وأقل ما يحدث هو أن يقدموا لك شراباً «طينياً».

قبل كلِّ شيء، تُحَمَّصُ حبوبُ القهوة قليلاً حتى تَكتَسِبَ لوناً بُنّياً ذهبياً، وليس أبداً ذلك اللون الأسود الذي نجده للأسف عندنا. ثمَّ تُطحنُ هذه الحبوب بحيث يكون المسحوق ناعماً جدّاً، مثل التَّنباك الإسباني، وعلى غراره يجب أن يكون بنياً ذهبياً لون القهوة.

لا يطحنُ الأتراك العديد من الحبوب في آنٍ واحدٍ، إذ يفقد المسحوق من جودةِ مذاقه مهما عُلِّبَ بإحكام . فهم إذن لا يطحنون سوى الكميَّة اللازمة للاستعمال اليومي.

تبقى النار في منازلهم مشتعلة دائماً، وعليها قدرٌ كبيرٌ مليءٌ بالماء . إنَّ المياهَ وهي تَغلي باستمرار تترك رواسباً، ولذلك تتنقى حسب اعتقادهم.

عندهم أيضاً العديد من الأباريق ، المصنوعة من التنك أو النحاس المقصدر، أسطوانية الشكل، ولها قبضةٌ طويلةٌ؛ وهي ذات سِعةٌ مختلفة، من فنجانٍ واحدٍ إلى اثنين فثلاثة، وهلم جراً ، حسب عدد فناجين القهوة التي يُراد تحضيرها.

إن طلبَ صاحب المنزل القهوة، أو تأكَّدَ أنَّ لديه زيارةً، فإن الخادم المسئول عن ذلك يأخذُ الإبريق الملائم ويملأ ه بالماء المغليَّ، ويُضيفُ إليه الكميَّة المطلوبة من السكر، الذي يذوبُ بسرعة، وعدداً من ملاعق القهوة الصغيرة حسب عدد الفناجين المنوي تحضيرها. ثم يُحركُ الكلّ بالملعقة نفسها.

بعد ذلك يضعُ الإبريق على النار، وأولَ ما يتحرَّك المزيج للغليان، يسحبهُ عنها، وبحركة خاصة يضرب خفيفاً قعر الإبريق عدة مرات على الأرض، ومتى انخفضَ المزيجُ يضعُ الإبريق على النار مرة أخرى ويُجدِّد العملية نفسها مرّتين أو ثلاثًلكن دون تحريك المزيج بالملعقة.

هكذا تُصبح القهوة جاهزةً ويُحمل الإبريق إلى صالة الزيارات، ثمَّ تُصب القهوة في فناجين بحضور الزائرين.

إنَّ تلك الضربات الخفيفة التي لها مفعو لها بالتأكيد، والثواني التي تمر لانتقال القهوة من مكان إلى آخر، وتلك الأخرى التي ينتظرها الواحد حتى لا تحترق شفتاه، تكون كافيةً لكي يترسب ما بقي عالقاً من بُنٍ مسحوقٍ على قاعدة الفنجان.

لأسبابٍ اقتصاديَّة، لا يستعملُ الأتراك السُكَّرَ دائماً في قهوتهم، إذ يشربون العديد والعديد من الفناجين يومياً، فلو كان عليهم تحليته كلَّ مرَّة لـخضعوا لتكاليف باهظة . فهم يشربون نحو ثلاثين فنجانِ قهوةٍ يومياً، و تلك عادةٌ ضروريَّة بالنسبة للأتراك.

البعض القليل من العرب، ومن بينهم بعض الشباب، الذين غلبهم الفساد التُّركي ويُطلقُ عليهم في العربية اسم "مخنوث"، يستعملون "الحشيش".

باقي عرب المدينة كما جميع البدو والقبيليون، يمتنعون كلياً عن ذلك. "الحشيش" في العربية يعني «العشب، النّبن »، لكن تُسمّى أوراق ألقنب الهندي كذلك مجازاً. بعدما تجفّ، يتم طحنُ هذه الأوراق لتصبح مسحوقاً ذا لونٍ أخضر - رمادي، فيُضاف عليه ماء مُحلّى بالسكر؛ ثم يُصنع من هذا المزيج حبوباً كبيرة من اللونِ نفسه ليس لها طعمٌ مميز.

يُمزجُ أيضاً مسحوق الحشيش بالعسل والسكر والفلفل وجوز ا لطّيب : ومن هذا المزيج تُحضَّر عجينة بإضافة الطحين، وبعد ذلك يتم طبخها.

متى طُهيتْ، تُقصُّ العجينة على حبات طويلة وتؤكل هكذا.

يكمن وضع بعض من تلك الحبوب في "بوري" المداعة مع التَّبغ، أو توضع ببساطة بِضْعُ أوراقٍ جافّة من "الحشيش "، وتُدخَّن هكذا.

وأنا أيضاً جربت أكل وتدخين هذه المادة ولم أشعر سوى أنَّ شهيتي قد ازدادت كثيراً جداً ! وهذا ربما لأنني لم أبالغ في الكمية المستهلكة . أما عن تأثيرها وما يُحكى عنه فإنني لا أستطيع قولَ أي شيء أبداً.

لكن حتى أكون راوياً أميناً يجب أن أنقل ما قاله لي أولائك القليلون الذ ين يستهلكون الكثير من "الحشيش". فيبدو أنَّ آثارَ هذا القنب الهندي هي إعطاءُ الخيالَ قوةً وحركةً استثنائيتين . فالعقل يصبح مكانَ ولادةِ أفكارٍ عجيبة وأحلامٍ ساحرة أو عاصفة. وحسب هؤلاء، فإنَّ "الحشيش" يعطي شعوراً بالرضى إلى حد يُجبر الشخص على الضحك بأغرب الطرق والأشكال.

يُسمّ ى مُستهلكو الحشيش بـ "الحشاشين ". وكان أولئكَ يُشكّلون في الماضي جماعةً أو نوعاً من طائفة خاصة.

واشتُقَّ من تلك الكلمة مصطلح «اسّاسين» (قاتل) الموجود في لغات أوروبا الجنوبية.

يُطلق على المدخن لقبُ "حشّاش"، وهذا اللفظ مسيء للغاية إلى حد اعتباره كالشتيمة،لذلك يُسمى المدخنون"حشاشين".

في اليمن، لا يُستعمل "الأفيون" إلاَّ كدواءٍ خارجي.

يأكل عرب المدينة أيضاً ثلاث وَجَبات يومياً: "الفُطور" في الصباح، الذي يَتَشكل من الخبز والقهوة أو الخبز والعسل . عند الظهر يتكون "الغداء" بالنسبة للفقراء من عصيدة الذرة مع الزبدة أو من الخبز مع الخضار المسلوقة، أما الأغنياء فلهم وجبة فخمة . عند المساء، بعد مغيب الشمس يَكون "عشاء" الفقراء إعادةً لفطور الصباح، وللأغنياء وجبة اليوم الأساسية.

عند الطبقات الاجتماعيّة الراقية، لا يعتادُ الرجال الأكلَ مع نسائهم أو أبنائهم، أما عند الطبقات الأخرى، فالجميع يأكل سوياً

خلال شهر رمضان، بما أنَّ المسلمين لا يستطيعون أكلَ شيءٍ خلال النهار، فأنهم يأكلون وجباتهم ليلاً، بطريقة معاكسة لباقي أيام السنة . فعند المساء، يُطلق "المؤذن " من أعالي الـ"صومعة" نداء "الله أكبر" وما يلحقه، فتكون تلك ساعة إفطار الصائمين بشرب القليل من الماء، ثم يتجهز جميع العرب لوليمةٍ كبيرة. عند منتصف الليل، يتناولون وجبةً شبيهة بغ داء الظهر، وقبل بزوغ الفجر يأكلون القليل من الطعام مثل فطور الصباح.

حافظ العرب، لخدمة المائدة، على تقاليد القبائل التي يَنحدرون منها، والتي كانت تتسم بالبساطةُ والمتانةُ فيما يتعلق بالأواني. تتكوَّن المائدة "السُفرة" من صينية كبيرة من الحديد أو النحاس أو حتىً الفضَّة، قطرُها مترٌ ونصف تقريباً. توضعُ هذه

الصينية على "كرسيّ " لا يتعدّى ارتفاعه القدم (30 سم). ويجلس المدعوون حول الصينية، إمّا على وسائد أو ببساطة على السجّاد؛ وتوضع أمامهم قطعةٌ من الخبز وملعقةٌ من الخشب فقط، حيث لا نرى أيَّة سكاكين أو شُوَكٍ أو طبقٍ آخر من الخزف، باستثناء ذلك الموضوع في وسط "السُفرة " والمستعمل من الجميع . أواني الشرب هي قدور من ال فخار المُجَفَّفَة في الشمس، والتي بسبب ارتشاح الماء المحتوى فيها تجعله بارداً جداً. ولعدم وجود الأكواب، تُشرَب المياه من فتحة في عنق هذه القدور.

صاحب المنزل هو أوَّل من يضعُ يدهُ اليُمنى في طبق الطعام، ويتبعه بعد ذلك الآخرون، ودائماً بيدهم اليمنى.

وحتى إن لم يرغبْ صاحب المنزل بتناول ن وع مُعيَّن من الطعام، فهو مُجبرٌ على الأقل أن يلمسه بيده اليُمنى كي يستطيع الآخرون تناوله.

تتسع "السفرة" عادةً لستة أو سبعة أشخاص من حولها. إنْ تعدّى عدد المدعوين ذلك، يتم تحضير العديد من "السُفَر " الأخرى في الغرفة نفسها.

ما تبقّى من الطعام يُتركُ للخدم، الذين على كل حال لديهم غذاؤهم الخاص جاهزٌ دائماً.

يتناول العربُ الطعام بصمتٍ وبسرعة؛ يبدؤون الوجبة بـ"بسم الله"، وينتهون منها بـ "الحمد لله" وبجُرعةٍ من التجشّؤات القوية! وبعد أن يغسلوا أيديهم جيِّداً ويشطفو ن أفواه هم، يستلقي العرب على الفرش، يدخنّون المداعة ويحتسون القهوة.
أما الأتراك فقد اعتادوا على المأدبة الأوروبية مع الأطباق، وأدوات المائدة، والأكواب، والقوارير الزجاجية، والمناديل.

لكني شاهدت تركيا، وكان عقيداً في الجيش، لا يحسن استخدام الشوكة حيث كان هناك مرةً مائدة معدَّة على الطريقة الأوروبية، فأخذ يمسك اللحم بيده اليمنى ويفتته باليد نفسها إلى قطعٍ صغيرة يُدخلها بعد ذلك في أسنان الشوكة التي يمسكها بيده اليسرى، وأخيراً يأكلها.

XIV

حياتي في صنعاء - مُعَلِّمُ اللغة العربية - مشروعُ رحلةٍ داخل شبه الجزيرة العربية - مشاريعٌ تجارية - الشركة التجارية مع البحر الأحمر - قصةُ الثمانية كيلوغرامات من الكينين - أقرِّرُ مغادرة صنعاء لبعض الوقت والعودة إلى عدن - مغادرةُ صنعاء - وعلان - سعيدة الجميلة - سقوطٌ عن البَغل متوَّجٌ بصفحة يد من فاطمة الجميلة - معبر - إبراهيم بيك - ذمار - يوسف أفندي - مصطفى بيك يدعوني للغ داء عنده - المُقبِّلات والغذاء التركي - ترفيه عربي - أغاني - راقصاتٌ عربيات - رقصةُ النحل - مغادرةُ ذمار - يريم - السَّدَّة - تجار صنعانيون - يبدأ مفعول طريقة الحكم الجديدة لمصطفى عاصم باشا - بلادٌ زراعيَّة وخصبة غير مزروعة بالكامل - قائمقام تركي - مشهدُ سحب جميل - أرنبٌ بري - أزاب - قعطبة - الجليلة - عُبيش يُقنع خدّامي بمرافقتي إلى عدن - ثلاثة صنعانيين يُرافقونني - عامر البيشي يأتي لملاقاتي - مدفعٌ - معسكرٌ عربي - أغادرُ وحيداً مع الخدم - دار شيبان - عميدٌ عدوّ - الرَّاحة - لحج - عدن.

عند هذه النقطة، وبعد أن تكلَّمتُ مُطوَّلاً عن الآخرين، فلْيَسمح لي القارئُ الطيِّب بأن أبدأ الآن بالتكلُّم عن نفسي، محاولاً قدر المستطاع أن لا أكون مملاً.

كيف كانت حياتي في صنعاء؟ إليكم إيّاها بكلماتٍ وجيزة: فبالإضافة إلى أشغالي التي كُلِّفت بها، مثلَ تقديم تقرير دقيق إلى صحيفة «الإسبلوراتوره (**Esploratore**) [المستكشف] في ميلانو، عن كل ما كنتُ أرى أو أسمع في هذه المدينة؛ وأخذِ بيانات عن الضَّغط الجوّي والحرارة؛ وإجراء حسابات الارتفاعات الشمسيَّة؛ والتقاط صور لمناظر وأشكال البلاد، ومنها مقتطفاتٌ في مذكَّراتي هذه، فقد انكببت على دراسة اللغة العربية؛ والتجوال في المدينة والأرياف المجاورة طولاً وعرضاً

لرسم خريطةٍ لصنعاء أنشرُها مع الصور الأخرى؛ والاندماج في حياة وتقاليد وعادات سكان هذه المدينة الرائعة.

اعتقد بكل صراحة أنني لم أُضيِّع وقتي في هذا. صحيحٌ أنه كان باستطاعتي أن أدرسَ أيضاً التجارة في اليمن، وخاصة تجارة صنعاء؛ وكان فعلاً برنامجي أن أدرسَ أولاً الشعب ولغتَه ومن ثم تجارته.

كان أستاذي للغة العربية القاضي حسين القلاضي، وهو «السادن المشْرِفُ»، إن أمكنني تسميته هكذا، على أمور مسجد "المتوكّل". القاضي حسين رجلٌ قديرٌ، غير مُتَعصِّب أبداً، بل على العكس كان فرحاً وراضياً كونه يُعلِّمني لغتَه ويفسر لي "القرآن"، ويخبرني أشياءً كثيرة تخصُّ حياةَ العرب.

وخلال ذلك الوقت، كنت قد تَعَرَّفتُ أيضاً على العديد من الشخصيات ذات النفوذ في صنعاء، الذين كان لديهم علاقات تجارية أو صداقة أو قرابة مع العديد من الشيوخ وأمراء الجوف والمشرق وجبل شهارة.

واستطعتُ عن طريق تلك الشخصيات مراسلة الشيوخ، بل قدرت أن ألتقي ببعضهم، الذين كانوا يترددون على صنعاء بين الحين و الآخر لأعمال شخصية لهم.

وكانوا قد أكَّدوا لي أنَّ السفر إلى بلادهم سيؤمِّنونَهُ هم، ولو كان لدي السبلُ لذلك لباشرت فيه فوراً . فكنت آملاً أنْ تأتيَني مساعدةٌ من ميلانو، ولكني خُذِلت كالعادة بعد الوعود العظيمة والمدائح الكثيرة بشأني، وبعد الرسائل فوق الرسائل التي كتبتها لمعرفة مدى إمكانيةُ الحصول على بعض النقود لشدِّ الرحال إلى داخل الجزيرة العربية ؛ أو إن كان هناك أحدٌ جادٌ يعزم على البدء فوراً بتجارةٍ بين إيطاليا واليمن، كما كان يُكْتَبُ لي من عاصمة الأخلاق في إيطاليا.

قررتُ إذاً العودة مؤقّتاً إلى عدن والتكلم مع قنصلنا البارع جيوسبي بيننفلد رولف، الذي كان على وشك السفر إلى إيطاليا،

وبالتالي إلىميلانو،لكي أرى وأدرسَ معهما يمكنني عمله.

لذلك نهار السبت الواقع في الثالث والعشرين من مارس **1878**، بعد أن تركت داري في صنعاء وأغراضي في عُهدةِ والد خادمي "حسن"، توجَّهتُ معه ومع الخادم الثاني "صالح الزقاق"، أظرف رجل ولد تحت سماءِ صنعاء، وبرفقة مُرشدٍ، إلى وعلان حيثُ وصلتُ مساءً.

ومُتذكِّراً خُبثَ صالح أبعّح (أباح، أبَّعَه)، لم أردْ النزول إلى سمسرته، فتوجَّهتُ إلى دار إسماعيل محسن، الذي استقبلني بحفاوة . فهو زوجُ امرأة «جميلةٍ» «طويلة» القامة اسمها سعيدة!

وجدنا في تلك الدار غرفة صغيرة مريحة جداً، مُبيَّضة بالكامل حديثاً وأرضيَّتها مغطية بحصائر جديدة للتو. فهذا هو البيت الذي يُبيتُ فيه عادةً كبار الضبّاط الأتراك، عندما ينتقلون من صنعاء إلى ذمار.

في صنعاء، ونظراً لعلاقاتي الوديَة مع كِبار شخصيات الدولة، كنتُ قد أصبحتُ بدوري شخصيةً ذات أهميَّةٍ ما . فاعتاد الجميع على تسميتي بالبيك الأفندي، وهي تسميةٌ تُعطى فقط للعقداء وللنبلاء ولأبناء الباشا.

فخلال المساء، وجبَ عليَّ بالتالي استقبال المدير، والقاضي، والكُتَّاب، وضابط تركيّ، الذين قدَّموا لي الاحترام والتهاني.

بعد العشاء، أرادت سعيدة الجميلة، المكوث بصحبتي وهكذا، وفي الوقت الذي كنتُ فيه وخادماي نحضِّر السجائر لليوم التالي، كانت هي تُخبرني العديدَ من الحكايات، وعندما سلّمتْ علينا، قالت لي إنَّها تستلطف المسيحيين، مما أرضى كثيراً خادمي الاثنين البارعَيْن النزيهيْن.

الأحد **24** مارس **1878**- عند الخامسة فجراً، كنّا قد امتطينا

بغالنا الأربعة، وعدونا متوجهين إلى معبر . كان خادماي الاثنان، حسن وصالح، لم يسبق لهما أبداً أن خرجا من صنعاء، وبالتالي لم يقوما أبداً بمسيرةٍ طويلةٍ ممتط يهِنْ البغال، فكانا يصرخان بين الحين والآخر أنه لم يَعُد بإمكانهما تحَمُّل العدْو . وحصل بعض الأحيان، أنّي رأيتهما يقعان عن الحصان، لكن ولحسن الحظ، من دون أن يصابا بأذى أبداً.

لكن مع اقترابنا من معبر، اسوَدَّ وجهي أنا الآخر . فقد كنا نعدو للوصول إلى تلك القرية، أنا في المُقدِّمَة، وخادماي الاثنان خلفي على مسافةِ ثلاثينَ قدماً على بعد مائتي مترٍ من معبر، كان هناك فتاةٌ شابة تجلسُ على الطريق، تُدير لنا كتفيْها، وتحرس قطيعها الذي كان يرعى في الحقول المُجاورة. فوصلت بقربها دون أن تشعر بذلك؛ لكن فجأةً، ربما من فزعها لاقتراب البغل منها، قفزت وكأنها تريد الهربَ إلى الحقول،فكان لتلك الحركة أن أفزعت حيواني لدرجة قيامه بجفلةٍ نحو الشمال، رامياً إيّاي- فارسٌ تعيسٌ- على الأرض ويديَّ إلى الأمام، وتقريباً عند رجليِّ الفتاة الجميلة، التي تأمَّلتني مدهوشةً في هذا الوضع الحِدِّي هَزَلي

وبالطبع، طارت أيضاً قبعة الفارس (الشبيهة بالخوذة)، إنما ما لبث أن استفاقت الفتاة الجميلة من دهشتها حتى ركضت لتأتيَ بالخوذة وتجلبها له بكل لطفٍ . في هذه الأثناء، كان الفارس المسكين قد قام عن الأرض، وهو مُتَّسِخٌ بالغبار، لكن من دون أن يتعرض للأذى.

لم يتجرأ خادماي عندما وصلا إلى مكان الحادث على الضحك لِما قد أصابَ سيّدَهم، لكن عندما رأيت المجهود الذي كانا يبذلانه لتَمَالُك أنفسهم من القهقهة، أردتُ أن أكون أولَ منْ يضحك بشدَّة، فانفَجَرَا بعدها مع تلك الفتاة الطيِّبة في ضحكاتٍ عالية ومتكرِّرة.

لكن ما لبثت أن اتَّخذت بسرعة هيئةً جديَّة ومُهيبة، فمددتُ

لها يدي وسألتها عمن كانت . فجاوبتني بأنها بنت أخ صاحب سمسرة معبر، وبأنها تُدعى فاطمة.

امتطيتُ بغلي، الذي كان قد توقَّفَ بهدوء في نفس المكان كما لو أنه ينتظرني وكأن شيئاً لم يحدث؛ ودخلتُ إلى معبر وسط جموع كانوا قد رأوا من بعيد بقايُري الجميل، فضحكوا من كلَّ قلوبهم، وكان لهم الحق في ذلك.

توجَّهنا نحو السمسرة القديم ة، طالبين هذه المرَّة الغرفة المميَّزة لي ولخادميّ، فجُهِّزَت لنا بسرعة. كنت قد وصلتُ إلى معبر عند الواحدة والربع، فقضيتُ بقيَّة النهار في المُعسكر التُّركي، وتناولتُ الغداء عند الصديق الطيِّب، إبراهيم بيك، الرائد في الأركان الحربية التركية.

قبل أسابيع قليلة مضت، كانت قبائل (زراجة) المتحالفة مع قبائل بلاد (آنس)، وهي بلادٌ مجاورة لمعبر، قد ثارت ضدَّ حكومة صنعاء، وقتلتْ مُديريْن. حاول الثُّوار بعد ذلك الاستيلاء على ذمار . عندها أرسلتْ الحكومة المركزية كتيبةً كبيرة من الجنود إلى ذمار، بقيادة العقيد مصطفى بيك، فكان في معبر وقتَ نزولي فيها المؤخرةُ المؤلَّفة من ثلاثمائة رجل تحت قيادة إبراهيم بيك هذا.

عند المساء، زارتني أيضاً بناتُ صاحب السمسرة وابنةُ عمّهنَّ فاطمة. ضحكنا كثيراً ذلك المساء على ما قد حصل لي خلال النهار.

الاثنين **25**- عند الثالثة والنصف فجراً، انطلقنا من معبر إلى ذمار، حيثُ وصلنا عندها الساعة العاشرة والعشرين دقيقة. فورَ أن وضعنا بغالنا في السمسرة، أتى السيد يوسف أفندي، الرائد الطبيب، لإلقاء التحية ودعوتي لتناول لفطور في منزله. بعد ذلك، ذهبنا إلى المعسكر التُّركي لزيارة العقيد مصطفى بيك، الذي استقبلنا بلطفٍ في خيمته الجميلة، مُحاطاً بضبّاطه

الذين وسطَ شغلهم الشاغل، بمن فيهم العقيد نفسه، كانوا قد وجدوا الوقتَ لشربِ الكونياكَ وبكثرةٍ، الذي لم يكُونوا يسكبونه في أكوابٍ، إنما في فناجين للقهوة. دعاني مصطفى بيك لتناول الغذاء وتمضيةِ السهرة في منزله، قائلاً إنَّهُ فَكَّرَ بتجهيز "فنطازيا" رائعة تكريماً لي.

متى غادرنا المعسكر مع يوسف أفندي، ذهبنا لزيارة المدينة و"قاع اليهود"، ثم دخلنا إلى "حمامٍ"، حيثُ مكثنا فيه ساعتين على الأقلِّ.

أود أن أُضيف إلى ما ذكرتُ عن ذمار، أنها فضلاً عن كونها مدينة صغيرة وجميلة، يقطنها من خمسة إلى ستة آلاف نسمة، بمنازلها الجميلة والعالية، فإنَّ فيها أيضاً مسجدٌ كبير، مشهورٌ بقدمه وبأنه لا يزال أهم «معهد فقهي» في اليمن. تتَّحدُ بذلك المسجد مكتبةٌ عربية غنيَّة جدّاً، استحال علينا رؤيتها لأن الوقت كان متأخراً. عند السادسة والنصف، دخلنا غرفة الاستقبال الأنيقة داخل منزل مصطفى بيك، حيثُ كان ينتظرنا سيِّدُ المنزل والقائمقام أحمد خلوصي أفندي والعديدُ من الضبّاط وعربُ ذمار المُهمّين، مستلقين أرضاً أو جالسين رجلاً فوق رجلٍ، وذلك للبدء بالمُقبِّلات، الذي اعتاد الأتراك على تقديمها قبل الغداء.

وبالفعل، ما لبثنا أن دخلنا وألقينا التحيَّة وأنْ جلست بجانب مصطفى بيك، حتى حمل الخدم كرسياً صغيراً وسُفرةً كبيرةً وضِعَتْ عليها كميَّةٌ كبيرة من الأطباق التي تحتوي على السلطة، والسردين، والزيتون، بالزيت، واللفت، والجبن، والكبد المَشوي. كان هناك لكلِّ ضيفٍ : قطعة خبز، شوكةٌ، كوبٌ صغير، ومحرمة لوضعها على الساقين.

في الأكواب كان يُسكبُ العَرَق، ومن حين لآخر يشرب كل واحدٍ على هواه. عندما يُرشف مُحتوى الكوب، من العادة أكلُ القليل مما في الأطباق الصغيرة الموضوعة على السُفرة الكبيرة

بقطعةٍ من الخُبز؛ وبين الكوب والآخر يدخِّن السجائر أو الغليون أو المداعة ونثرثر.

كما يجري في العادة، استمر تناول هذه المقبِّلات ساعتين على الأقل، وهكذا من كوبٍ إلى كوب، احتسى كلُّ واحد العديدَ من أكواب العرق الصغيرة. إنَّ نسبة الكحول القليلة (**13** درجة) التي يحتويها هذا الخمر، واحتساءَها بكميات قليلة بين المرَّة والأخرى، والتناول في الوقت نفسه شيئاً بسيطاً من الطعام، والبقاء جالسين بهدوء، كلُّها عوامل تجعلُ هذا العرق، بدلاً من أن يسبِّب السُكَّر، يحُضِّر المَعدَة لشهية استثنائية فعلاً.

عند التاسعة، أمر مصطفى بيك بإزاحة سُفرة العرق. حَمَلَ بعدها الخدم بسرعةٍ واحدةً أكبر . فكان في وسط هذه الأخيرة طبقٌ كبيرٌ من البيض المقلي بالأعشاب العطرة، وعلى أطرافها أوانٍ للهائدة وأكوابٌ وخبزٌ لكل مدعوّ.

بعد تناول هذا البيض اللذيذ حقّاً، قُدِّمَ الدجاج بصلصة الزيتون، بعد ذلك صنفان من الحلوى، ثم خروفٌ كامل كبير، مطبوخٌ بالفرن ومحشو بالأرز واللوز والزبيب، وأخيراً بعد طبق من البقوليات، الأرز الذي لا غنى عنه.

دام الغداء ما يُقارب ثلاثة أرباع الساعة، شربنا خلاله نبيذاً يونانياً شَّهياً؛ عند انتهائه، وبعد أن غَسَلَ كل واحدٍ يديه بالصابون واستلقى الجميع على فـرُش شرقيَّة، قُدِّمتْ القهوة لثلاث مرّات ، مما جعلنا نمضي ساعةً أخرى في التدخين والثرثرة. عند الحادية عشرة، جاء موعد ابتداء "الفنطازيا"، لذلك تركنا الصالة وذهبنا إلى أخرى أوسع منها ومفروشةً بأناقة أكبر.

كلمة "فنطازيا" في العربية، تعني التسلية واللهو، وفي اليمن خصيصاً تُطلق على العرض الموسيقيَّ التمثيليَّ الراقص.

العربُ كسائر الشعوب الشرقيَّة الأخرى مولعون

بالموسيقى، رغم أن النَّبي كان قد حَرَّمَها بشدَّة.

الآلات الموسيقيَّة العربيَّة هي: "الطَّبل"وهو آلة من النُّحاس له شكل السَّخانة ذو قعرٍ مستدير، وتكون الفوهة العليا مُغلقَة بجلد الماعز، يعزفون عليه باليدين أو بعُصَيَّة خشبية وهم جالسون، واضعين مؤخرة الطبل بين الساقين؛ "الدِّربوكَّة"، طبلٌ آخرٌ ذو شكل مخروطيٍّ له مِقبَضٌ يُمسك باليد اليُسرى في الوقت الذي تَضرب اليمنى على جلد الماعز الذي يغطي الفوهة الكبيرة؛ "الطار"، طبلٌ صغيرٌ بأجراس، يشبه الطبول الأسبانيَّة والصقليَّة . أما آلات النفح فهي : "النّاي "، و"المزمار " و"الزُمارة". من بين الآلات الوتريَّة، أبسطها "الرَّباب"، وهو كمانٌ ذو وترٍ واحدٍ؛ و"الكمنجة "، أي الكمان بوَتَرَين؛ و"القيسار" بأربعة؛ و"العود"، قيثارةٌ بسبعة أوتار.

كان الموسيقيون في تلك الليلة أربعةً: هناك دربكتان، طارٌ وزميرٌ واحدٌ. كانوا يجلسون في نهاية الغرفة في الزاوية اليمنى، وسط مطربين محترفين (الآلاتيَّة).

يتكرَّس سكا ن المدن أيضاً للموسيقى، إنما لا يرافقون بآلاتهم إلا الترانيم الدينيَّة في البيوت؛ أما الموسيقيون العامّيون، مثل المغنين والراقصين، فهم يؤلفون فئةً خاصة مُحتَقَرَةً بسبب عاداتهم وأغانيهم ورقصهم الخلاعي عديم العفة، فيخجلُ ساكن المدينة من أن ينتمي إليهم؛ لذلك يكون كل الموسيقيين العامّيين، حتى في المُدُن، من القبائل أو البدو، ينتقلون من بلدٍ لآخر مع نسائهم، يسترزقون قوتَهم بهذه الحرفة. ولا يمكن أبداً أن تجرؤ امرأةٌ من المدينة على الرقص والغناء علناً ، لكن المغنيات القبيليات أو البدويات اللاتي يُسمَّين "عالمات " (مفردها "عالمعة") لا يأكلنَ همَّ ذلك، وعندما يكنَّ يافعات وجم يلات، يرقصن أيضاً للملأ ولا يُسمَّين عندها "عالمات" بل "غوازي".

استحوذت الأغاني على القسم الأول من هذه التسلية المقدمة من مصطفى بيك. قامت ثمان "آلاتيَّات" وأربع "عالم ات"، وهنَّ

قبليات من المشرق مثل الموسيقيين الأربعة، بغناء أغاني حرب وحبٍّ.

صوت المغنيات في العادة صيّاحٌ ورتيبٌ، ولا يكون عذباً وهنيئاً مثل مغنياتنا. أما صوت الرجال فكان أجملَ، لكنه دائماً عالياً وحاداً فهم يعشقون الأصوات الحادة ويبذلون مجهوداً كبيراً لتمديدها أطول وقتٍ ممكن.

خلال الغِناء، يجلسُ الموسيقيون والمغنون في مواجهتنا . تفرضُ الآداب الإسلامية، متى ما قَدَّمَ سيّدٌ لضيفه تسلية مثل هذه، أن يَتَمَتَّع هذا الأخير بكل التبجيل؛ لذلك كوني تلك المرَّة الضيف الخاص، كنت أجلس في منصب الشرف، أي في وسط الديوان وبجانبي كل الآخرين، وأستمتع بالنداءات والتحيّات والانحناءات الموجَّهة إليَّ من قبل المغنيين والمغنيّات.

من بين تلك المغنيات كانت هناك فتاة رائعة الجمال . لا أعرف إن كانت نظَّاراتي تُشعرها شعوراً عظيماً، المهم أنها كانت تحدق في باستمرار، حتى أن مصطفى بيكانتبه لذلك فقال لي مداعباً إن تلك الفتاة مغرمة بي، فقلت له ضاحكاً :«ستين سنة»، وهي جملة صنعانية بحتة تعني«وما يهمني أنا!».

بعد ساعتين طويلتين، تحملت خلالهما هذه الأغاني المملة جداً ، لرتابتها ، والمزعجة حقاً ، لتباين تلك الأصوات الحادة المصحوبة بدق الطبول المتواصل ، المنهك ، وصدى أنشز مزمار في العالم، بدأتْ أخيراً الرقصات.

لا وجود لأي تشابه بين الرقصات الأوروبية والشرقية، فللرقصُ في أوربا تمرين يقوم على نغمٍ إيقاعي، وعلى حركات منسقة للسيقان أو على قفزات منظَّمة تماماً. أما في البلاد العربية، كما في أيّ بلدٍ شرقي آخر، فللرقص ليس إلا تتابعاً مستمراً من الوقفات والحركات والتعوجات، لا هدف لها إلا التعبير للحاضرين عن الأحاسيس الأكثر شهوانية.

من الممكن أن تكون المغنيّات قبيحاتٍ وطاعناتٍ في السن، أما الراقصات فيجب أنْ يكنَّ جميلات ويافعاتٍ زيهنَّ هو زيّ النساء القبيليات والبدويات، لكن نجدُ فيه ذلك الطابع الخاص الذي يُميِّز من الخارج المرأة المغازلة عن النزيهة: فأثوابهنَّ الضيقة والأنيقة تُظهر تماماً معالمَ أجسادهنَّ الرائعة؛ ويكشفْنَ رقابَهنَّ وصدورَهنَّ، وتكون أذرعهنَّ عارية، أما سيقانهنَّ فهي من دون سراويل ونصفُ مغطاةٍ بثوبٍ قصير . ويتركْن شعرَهنَّ لينساب على أكتافهنَّ؛ ويضعْنَ بغزارة على الرقبة والأذنين والذراعين والساقين والأصابع جواهرَ من الفضة، وأحياناً من الذهب. ترقص النساء لوحدهنَّ. من غير الممكن في بلدٍ شرقيٍّ رؤيةُ الرجال والنساء يرقصون مع بعض . المغنياتُ الراقصات نادراتٌ جداً، ولذلك يكلّفنَ جداً.

فلا يجب أنْ نتعجّبَ إذاً، إنْ رأينا في الب لاد الشرقيَّة شباباً يافعين يرقصون للجمهور، بدلاً من تلك النساء . لكن سخاءَ مصطفى بيك في تلك الليلة سمح لي بمشاهدة رَقصات النساء للمرة الأولى. فهذه الرقصات الأنثوية ماجنةٌ لدرجة أنَّهُ تنقُصني الشجاعة للتكلُّم عنها علناً، وسأكتفي بأن ألمحَ تلميحاً، فهذ ا مع الأسف واجبُ المسافر.

عندما أطلَّت الراقصات وسط الديوان، بدأنَ القيام ببعض من خطوات الرقص بدت لي إيقاعيَّة (بالرغم من تلك الموسيقى الهمجية!). لكنَّ يحُركْنَ الطبول الإسبانية فوق وحول رؤوسهن. ثم ينحنيْنَ إلى الأمام والخلف، ويميناً وشمالاً مُقلّداتٍ حركات مَنْ يُجدِّفُ في زورق.

ولم يكن هذا إلا المقدمة لتلك الرقصات.

وأخيراً بدأتْ!

فبقيتْ عندها أقدام الراقصات ثابتة في نفس المكان . ولم يُحرّكْنَ سوى الأذرع التي كنَّ يمددْنها أو يقربْنها لصدورهنَّ، أو

يرفعْنها أو يخفضْنها حسب المراحل المختلفة للشبق الذي بدا أنه يُسيطر أو يُلْهم الراقصات. وكنَّ يتحرَّكْنَ وكأنَّ إثارةً متواصلةً تقودهنَّ فيُسرعْن هذه الحركات بقوةٍ ماجنة، أو يُبطئْنَ برخاوةٍ خصورَهنَّ وظهورهنَّ التي من خلال تلويتها بكلِّ الأشكال الممكنة كانت تمثِّل بكل إسفارٍ المظاهر الأكثر مجوناً.

عندما كانت الرقصات تصل إلى ذروة الخلاعة، تتوقف الراقصات قليلاً ويأتين بالقرب من المشاهدين للتحرُّش بهم . وكانت تحرُّشاتهن تتوجَّه بالأخص إلى الضَّيف الرئيسي؛ فكنَّ يرمين بأنفسهنَّ على ركبتيهِ، ويتصرَّفْنَ بحرية معه، لدرجة أنَّها لو كانت في الخلاء، وليس علناً كما في تلك الحالة ، لكان من الممكن أنْ يَخجلَ منها، أو أسوأ من ذلك أن يشعر بالإهانة.

ومن عادات البلاد، أو بالأحرى من العادات اللائقة، أن يكون المرء معتاداً على تلك المظاهر، فلا يُبدي اهتماماً لها، بل أسوأ من ذلك هو أنْ يحمرَّ وجهُه منها.

يُهدي الضيوف للراقصات، كما هو العرف، المالَ أو الخواتم أو الحلّيّ.

وخلال الرقص وأوقات الراحة، كان الخدم يجلبون باستمرار أكواباً صغيرة من الكونياك ، أو أكواباً كبيرةً مليئةً بالنبيذ اليوناني . تحبُّ الراقصات والمغنيّات بشدَّة النبيذ والخمور. وهذا شيءٌ طبيعيٌّ ! فشربتْ راقصاتُنا الأربع الكثيرَ منهُ حتى ظهرت عليهن إثارةٌ مفرطة.

وفي نهاية المطاف، عندما كان الجميع بين مشاهدين وموسيقيين وراقصات، قد بدا عليهم أنهم فقدوا كلَّ حياءٍ، أمَرَ مصطفى بيك تكريماً للضَّيف، بإقامة رقصة النحل.

فقامت أصغر وأجمل الراقصات، التي عَلِمتُ بعدها بأنَّها تُدعى "عزيزة"، بالتظاهر بأنَّ نحلةً قد لسعَتها، وفي الوقت الذي كانت تبحثُ في ثيابها عن اللسعة الوهميَّة لحشرة ليست بأقل وهميَّة، كانت تصرخُ : «نحلة أيْ! نحلة أيْ!» داعيةً صاحباتها لمساعدتها على التخلُّص من تلك الحشرة المزعجة.

وكانت الصديقات، وهنَّ يتظاهرن طبعاً بعدم إيجادها وفي نفس الوقت يُحركهن إيثارٌ كبير ومتحمس، يبحثْنَ أيضاً في أماكن لم يكن بإمكان النحلة دخولها. وهكذا قُمْنَ بتعرية عزيزة وشاحاً بعد وشاحٍ إلى أن بقيت مغطاة فقط بواحدٍ خفيف جداً، وخلال رقصها مع الأخريات كانت تموِّجه من حولها بحيث يسمح للمشاهد برؤية ما ليس من الواجب أن يراه.

بعد ذلك قامت صاحبات عزيزة بتلبيسها شيئاً فشيئاً من غير الانقطاع عن الرقص.

تكررت رقصة النحل هذه أربعَ مرّات، ربَّما لأنَّ كل واحدة من الراقصات كانت ترغبُ بشدَّة إظهارَ الوشاح الأخير . انتهت الرقصات عند الساعة الرابعة فجراً، وبدأ عندها الفجور الشرقي.

بعد مغادرة الموسيقيين والراقصات، مكث المدعوون ساعةً أخرى أمضوها في التدخين، والتحدُّث واحتساء ثلاثة فناجين أخرى من القهوة.

عند الخامسة خرجت مع الدكتور يوسف ، تاركاً العقيد والمسلمين الآخرين يتجهزون لصلاة الصباح!

الثلاثاء **26**- استيقظتُ عند الظهر تماماً! لا يبدو ذلك غريباً بعد أنْ أمضيتُ ليلةً مثل هذه. وكان من الطبيعي الإحساس بتعبٍ شديدٍ. لكن هذا لم يمنعْ مصطفى بيك من دعوتي مجدَّداً إلى الغداء. قَبِلتُ، بشرطِ عدم إحياء رقصات أُخرى.

فأجَّلتُ لذلك مغادرتي إلى اليوم التالي.

أمضيتُ باقي النهار متجولاً هنا وهناك في ذمار : لكن عند الساعة التاسعة مساءً أويتُ إلى الفراش.

ونهايةُ القصة مما حدث في الليلة الشهيرة تتلخَّص في هذه

الجملة الصنعانية التي قالها خادمايْ الجيدان: "يا خواجة والله أمسْ تَراكْ سكران كثير"، والتي لا أترجمها حتى لا تظهر كل الحقيقة

الأربعاء **27**- وأخيراً بعد أن استرحتُ جيداً، غادرتُ ذمار عند الخامسة فجراً؛ وبعد التوقف كالعادة عند نصف المسافة من يريم لاحتساء القهوة، وصلتُ إليها عند الظهر.

الخميس **28**- غادرْنا يريم في الصباح الباكر، وتوجهنا فوراً شرقاً، متَّجهين نحو جبل الخوبة، فسرنا بمحاذاة قمته ونزلنا تحت نقيل العقيتاش، حيثُ أخذنا الطريق القديم إلى (السَّدَّة) على طول الرافد الشمالي لوادي بنا.

عند الثالثة ظهراً، وصلتُ إلى دار علي عُبي د. كان هنالك في المنزل عينه، العديدُ من التجار العرب من صنعاء في طريقهم إلى عدن مع حمولات كبيرة من القهوة والحبوب، لكنهم واقفون هناك منذ شهرٍ، غير قادرين حسب قولهم على متابعة السفر، إذ كما أفادوا لي كانت الحربُ قد اندلعتْ بين العبدليين (قبيلة لحج) والحوشبيين (قبيلة شمال تلك المدينة). ووفْقَ هؤلاء كانت مسالك القوافل مسدودةً من قبل المحاربين. عندما قلت لهم بأني كنت أحسبُ الوصول إلى عدن بطريقةٍ أو بأخرى خلال أيامٍ قليلة، قالوا لي بأن المخاطرة بذلك جنونٌ، إذ قد يحصل لي العديدُ من التقلبات خلال المسيرة، أو حتى عدم التمكن من الوصول إلى المقصد.

عندها، قام خادماي قليلا الشجاعةِ بطبيعتهما، بإفهامي بوضوح مدى حسرتهما لمرافقتي أبعدَ من ذلك. فاضطررتُ لتشجيعهما أن أقول لهما بأننا ذاهبون إلى الجليلة فقط، حيثُ نجدُ فيها ملجأً أكثر راحة، لأني لم أردْ المكوثَ أبداً في السَّدَّة، متذكراً إقامتي الأولى السيئة فيها. فقرّرا مرافقتي حتى بيت عُبيش

على طول الطريق من يريم إلى السَّدَّة، وكما حدث خلال

نزهة الصيد التي قمتُ بها قبل العشاء في ضواحيها، اندهشتُ كثيراً لرؤية معظم الحقول التي سبق أن رأيتها مزروعة، متروكةً بحالة إهمالٍ كاملٍ، علماً بأن الحصاد الربيعي كان قد أشرف وقته. وعند المساء، وأنا متواجدٌ في الغرفة الكبيرة مع صنعارنيين آخرين، أتى علي عُبيد لزيارتنا، وشارك بعد ذلك في حديثنا. فسألته عن سبب ذلك الإهمال غير المفهوم.

قال لنا علي عبيد: «في "شوّال" (أكتوبر) الماضي، قمنا نحنُ بأجمعنا في وادي بنا، بحصادٍ جميلٍ جدّاً من الذرة والحنطة والشوفان، كما لم يسبقْ منذُ سنين عديدة. فكنَّا فرحين جداً، وفي الوقت الذي كنا نشكر فيه الله على طيبته الهائلة حيالنا، حمّلنا جمالاً كثيرة وأرسلناها إلى عدن. وبعد بيع محصولنا هناك، استطعنا حشد عددٍ كبيرٍ من الريالات في جيوبنا. لكن حالما حصلنا على هذا المال، أتى إلى منازلنا "ضابط" من يريم، أرسله أحمد توفيق أفندي، وهو القائمقام الله يرُسله إلى الشيطان، الله يلعنه ويلعن والده وعائلته....»

«"يا أمّاني"» قلت له.

«إنه كلبٌ، كافرٌ ...الله لا يرحمه ويجعل كل امرأة تق ترب منه عاقراً..» جاوبني.

«"آه! استغفر الله"...» تابعتُ قائلاً.

«كان الأمر الصادر منه أنْ أذهب مع كلّ الذين يمتلكون الحقول في هذه القُرى، إلى يريم في النهار المقبل والمثول أمامه. فتجمعنا كلنا في قافلة وتوجَّهنا إلى يريم، فقال لنا: إخواني، لقد عرفت أنكم جمعتم مالاً كثيراً، تمام! أحسنتم!

عندها أمر كاتبه، لأنه هو لا يُجيد القراءة، "الحمار"، أن يقرأ بصوتٍ عال ما هو مكتوبٌ في ورقة يحملها الكاتب. فكانت كلمات تركيَّة، ترجمها القائمقام على الشكل التالي: أنتَ يا فُلان الفُلاني،

عليك أن تعطي الحكومة 400 ريال؛ وأنتَ 500؛ وأنتَ 600؛ وأنت 1000، وهكذا دواليك. وقال لي: أنتَ يا علي عبدي، عليك 800 ريال. أما نحن فأطرقنا برؤوسنا هنا. وكيف لا؟ وتابع هو، قاسٍ مثل خشب التمر هندي: فكّروا جيّداً، إن لم تأتوني بالمبالغ خلال عشرة أيام، فسأزجّ بكم جميعاً في السجن، مصفدي القدمين.

تخيّل، يا خواجة، بأني لم أحصل من محصودي إلاّ على 600 ريال: فكيف يمكن بإمكاني دفع 800؟ لكن لم يكن هناك مجالٌ للتفكير طويلاً إذ لا خيار سوى اثنين: إما الدفع أو السجن؛ ومتى دخل الواحدُ فيه، أنت تعلم جيِّداً، مَنْ يدري متى يمكنه الخروج.

كتب القائمقام إلى المُشير في صنعاء، وهذه لم تكن المرة الأولى، بأننا كنا نريد أن نثورَ على الأتراك، وعندها... وصل الأمر من صنعاء بإرسالنا إلى (الهخا) أو الحديدة، أو حتى إلى دار الشيطان.

بعد بيع بعض الجمال، حصلتُ على الـ 800 ريال، وذهبتُ برفقةِ الآخرين الحاملين أموالهم، لتقديمها إلى قائمقام يريم.

حلفنا بعدها بأن لا يقوم أحدٌ على الزراعة هذه السنة، وهكذا إن أراد القائمقام سرقتنا مرةً أخرى، لنْ يجدَ عندنا سوى الحجارة والتُّراب».

فقلت له : «يا علي عبي د، القائمقام أخطأ لا محالة، لكنه يستطيع هذه السنة أيضاً أن يطالب بمالكم، وإن لم يكن لديكم منه، فسيَرميكم في السجن».

«سبق أنْ دفعنا وقُمنا بواجبنا، أيُريد المطالبة بمالٍ آخر؟ سنُشُنُّ الحربَ!».

كان مصطفى عاصم باشا قد بدأ ينحرف عن الصراط المستقيم المطروق حتى الآن . كان يشعر بأنه بحاجة إلى أموالٍ ليعوّض بجزءٍ منها نفقات حملته المشئومة ، وليبعثَ الجزء

الآخر إلى القسطنطينية كي يجمِّع أصدقاءً يدافعون عنه عند السلطان.

وكما سنرى لاحقاً اندلعتْ حرب العرب فيما بعد.

الجمعة **29**- انطلقنا في الصباح الباكر، وبعد سلوك الطريق القديم على طول وادي بنا، وصلنا عند التاسعة والنصف إلى قمّة معبر حدَّة. وهنا رأينا منظراً مُدهشاً جدّاً للسحاب.

كان سهل الصوب العالي في الشمال، الخاضع لأمر قائمقام قعطبة، يبرق بريقاً تحت أشعَّة الشمس؛ أمّا جنوباً فكانت تُطلُّ تحت نظرنا السهولُ الواسعة لبلاد مر يس والعود والشعر، كلُّها مغطاة بغيومٍ بيضاء، لدرجة أنَّ المنظرَ أمامنا كان يبدو كبحرٍ هائلٍ من الجليدِ، تنبثق منه وحيدةً وقاتمةً القممُ الشاهقة لجبل حجاف ومريس والشعيب، وكأنها جلاميدٍ معزولةٍ. فتوقفنا لحظةً مذهولين نتأمَّل هذا البحر من الثلج الشديد الغرابة.

ثم نزلنا الجبل، ومتى وصلنا أسفله، كانت السُحبُ المؤلّفة من ضبابٍ كثيف، قد تبدَّدتْ تحت أشعة الشمس التي ظهرت صافيةً ودافئةً.

في وادي العود، قتلتُ أرنباً برياً كان يَتَنَزَّهُ غير مبالٍ على ضفاف النهر.

وصلنا عند الثالثة إلى (أزاب)، عند نفس المنزل الصغير للمرة السابقة.

أردتُ طهيَ الأرنبَ بنفسي، لأني لم أثقْ بطهي القبيليين. ونجحتُ في ذلك بشكل ممتاز، وكان الأرنب المطهو قد أعجبَ أيضاً خادميِّ اللذين وجداهُ لذيذاً جداً، لدرجة أنهم ا تمنّيا لي أن ألتقي بالكثير مثله.

أمضيتُ ليلةً رهيبةً كالمرة السابقة، بسبب العدي د من الحشرات التي كانت تجتاحُ ذلك المنزل الصغير.

السبت **30-** مثلما أصبحتْ العادة، انطلقنا في الصباح الباكر، متوجهين إلى قعطبة، حيث وصلنا إليها عند الظهر . تناولتُ الفطور مع مصطفى بك، القائمقام، الذي كان لطيفاً جداً معي وَقْتَ ذهابي إلى صنعاء . فقد كان دائماً واحداً من القائمقاميين الطَّيِّبين القليلين الذين قابلتهم في اليمن. عند الواحدة ظهراً، أسرَ جنا البغال من جديد وانطلقنا إلى الجليلة ، حيثُ وصلنا عند الرابعة، واستُقبِلنا بحفاوة كبيرة مثل العادة من قبل عُبيش الطيب الذي كان يستضيف في منزله العديدَ من التجّار الآخرين من صنعاء الذين يريدون الذهاب إلى عدن، فكانوا ينتظرون منذ شهرٍ فتح الطرقات، مثل أولئك في السَّدَّة ؛ فأمر أخاه ثابتاً أن يُعطينا ديوانَه كي أستطيع المبيت مع خادميّ . عند المساء، بعد العشاء، أتى عُبيش وإخوانه، مع كلّ الصنعائيين، لزيارتي والبقاء بصحبتي. وكانوا مندهشين جدّاً من عزمي على السفر اليوم التالي إلى عدن.

وماذا كان بوسعي غير ذلك؟ كان قنصلُنا سيرجع إلى إيطاليا في أوائل أبريل؛ فإن وصلتُ إلى عدن بعد مغادرته، فإنَّ عدا عن الأسف بعدم رؤيته وتدبير أي شيءٍ معه، لكنتُ أيضاً أضعتُ الكثير من الوقت والمال و السفر والتعب هباءً.

لكن خادميّ الاثنين الراجيَيْن التوقُّفَ في الجليلة، بعد أن علِما بعزمي الشديد على السفر، أعلنا عدم رغبتهما بمرافقتي.

لم يكن بالطبع في استطاعتي إجبارهما، وحتى لو أمكنني ذلك لما فعلت؛ فتوجَّهتُ إذاً إلى عُبيش، الذي كونه عربياً أشدَّ ذكاءً وجدية من غيره، كان قد تفَهَّمَ بأنني لم أكن مُجبراً فقط على المغادرة، بل إنه كان يمكنني قطعَ كل الطريق من دون أيّ عقباتٍ.

فاستطاع عُبيش البارعُ بكلام كثيرٍ وحكيمٍ، أن يُقنِعَ حسناً وصالحاً بعدم وجود أي خوفٍ طالما كانا برفقتي؛ وهكذا بعد هذا الاتفاق الجيد، أمضينا السهرة مبتهجين ، فرويت للجليليّين

والصنعانيين بصحبتي عن رقصات الفنطازيا الشهيرة التي شهدتها في ذمار.

الأحد **31**- في الصباح، مُرهقين ومتعبين من المكوث هكذا طويلاً في الجليلة، أخذ ثلاثةُ تجّارٍ من صنعاء الشجاعة من قراري البطوليّ في نظرهم ، فطلبوا مني الإذن لهرافقتي إلى عدن . فتركوا كل بضائعَهم بعُهدةِ الصنعائيين الآخرين الذين كانوا سيحملونها معهم فيما بعد إلى عدن.

لم أستطعْ إلا الموافقة على مطلبهم، وبما أنَّهم لم يحملوا معهم أية بضائع، وبالتالي لم يكن هناك أيُّ جمل، فقد سهَّلُ هذا السير، لأنَّه كان أسرع.

أخرَّتْ تحضيراتُهم مغادرتي إلى الخريبة لبضع ساعاتٍ، فانطلقنا بعد الظهر.

كان قراري المغامر هذا قد أحدث استغراباً شديداً في كل أنحاء الجليلة، فما بالكم بما قالوه بعد أن عرفوا أن ثلاثة صنعانيين آخرين يجازفون في مرافقتي . كان الجليليون مندهشين تماماً. ولكن الحقيقة أنهم كانوا يخطئون كل الخطأ في تعجبهم هذا، كما سنرى لاحقاً.

أراد عُبيش أن يصطحبني إلى عامر البيشي، شيخ الخريبة، ليوصيني له: فغادرنا في الواحدة ظهراً ووصلنا بعد ساعةٍ ونصف إلى السهل حيث تعلو التلةُ التي عليها منزل الشيخ.

متى دخلتُ الديوان، قُدِّمت بسرعة القهوة والمداعة.

عامر البيشي، الذي بلا شك قد تم تبليغه من قبل عُبيش في الصباح ، كان قد استعدَّ لاستقبالي بكل الإجلال الذي كنت استحقه في نظره. وبالفعل رأيته مقبلاً نحوي مع إخوته وأحفاده وسط ثلاثين بدوياً، مسلحين ببنادق ، ويرتدون جميعهم ملابس الحفل، فتوقفوا على بعد خمسين خطوةً وأطلقوا بعض العيارات وفقاً للتقاليد . فأجبت على هذه الطلقات ببندقيتي العاملة بالخرطوشات باثنتي عشرة أخرى. عندما توقفوا، كنت قد نزلتُ

من فوق متن بغلي وفقاً للأعراف، وبعد رد التحية مشيتُ نحو الشيخ مع رفلقي في نفس الوقت الذي تقدم هو ومَنْ معه نحوي، وبعد الالتقاء تصافحنا وتعانقنا وتبادلنا القبلات في الوجه . بعد ذلك، أمام الجميع ووسط عامرٍ و عُبيش، مشيْنا نحو بيت الشيخ. وما أنْ دخلتُ الديوان حتى قُدِّمَ لي بعض القهوة والمداعة.

ومع أنَّ الشيخَ كان يعلمُ مُسبق اً بسبب مجيئي، سألني من باب الاحترام الكبير كما هي عادة القبيليين، ماذا كان بوسعه فعله لمساعدتي. بعد أن شرحتُ لهُ كلَّ شيءٍ، جاوبني:

-«أنا من أتباع وحلفاء علي مقبل أمير الضالع والحردبة و(حرير)، أشاركه التحالفَ مع السلطانَ فضل بن علي من لحج، وبالتالي أنا في حرب مع الأمير علي بن مانع سلطان الحوشبي، ولأن الراحة بتقمي له فلن يسمحَ لك جنوده بأن تمرَّ منها كونك انطلقتَ من عندنا، الذين نحن أعداؤهم».

-«لكنى أعرف فضل بن يحي ى، ابن عم علي بن مانع ، و....».

-«أعرف، أعرف ...كما أعرف أنَّك صديقُ الجميع والجميعَ أصدقاؤك، إنما فضل بن يحيى موجودٌ الآن عند عمه في (المسيمير) وجنوده في الراحة، وهم جميعهم من البدو الشياطي ن، الذين لن يسمحوا لك بالمرور، أو إن أردْتَ النجاح في ذلك فعليك دفع مبلغ كبير من المال».

-«باختصار عزيزي عامر، أنتم في حربٍ منذ شهرٍ ، ولم تطلقوا طلقةً واحدة، بل لم تقوموا حتى بقطع رقبة دجاجة واحدة للحوشبيّين، فماذا بعد؟...».

-«هي حياة البدو!».

-«إذاً إن كان عليَّ انتظارُ ما يُناسبكم، فمن الأفضل لي العودة إلى صنعاء، أليس كذلك في رأيك؟...».

-«إسمعْ، يا خواجة "مانجوني " [تحريفٌ لِلقَبِ المؤلف

مانزوني] أنت أتيْتَ إليَّ، وواجبٌ عليَّ كلُّ الاحترام، كما إنه عليَّ التفكير بسلامتك غداً أو بعد غدٍ على الأكثر، سيصل من حرير العديدُ من الجنود والجمال حاملين معهم مدفعاً كان سلطانُ لحج قد أعارَه منذ سنينٍعديدة إلى الأمير علي مقبل ليدافع به عن نفسه ضدَّ الأتراك. دَع المدفع يصلُ إلى هنا، ثم نذهبُ جميعاً إلى الحردبة، حيثُ سنجدُ الأمير علي، فنقتحم معه معبر الراحة، ثم نذهب برفقته إلى الحوطة.

«دَعْني أفكّر».

إنَّ فكرة أنْ أكون شاهداً لعمليَّةِزحف جنودٍ عرب، وربما لتبادل إطلاق نار، وباعتبار أيضاً أنَّ تأخُّري ليومين أو ثلاث لنْ يمنعني من إيجاد القنصل في عدن، جعلني أُغيِّرُ رأيي، لذلك توجهتُ إلى عامر، قائلاً له:

«عامر، أقبلُ عرضك، إنما بشرطِ أن أكون "السبت أربعة ربيع الثاني" (أي السبت السادس من أبريل) نائماً في عدن».

«معروف ! ».

«أُنبِّهُكَ بأني إن رأيتُ الأشياء تطول سوف أهربُ وأتركُكَ».

«أنتَ حُرٌّ بفعل ما يحلو لك».

وهكذا أصبح الجميع مسروراً: عامر البيشي وعُبيش اللذ ان رأيا مسؤوليتهما تجاهي تخفُّ كثيراً، ثم خادماي والصنعانيون الذين أصبحوا متأكدين من أنهم لنْ يتعرضوا لسوءٍ.

انطلق عُبيش بعد ساعات قليلة إلى الجليلة.

من المسلَّم أنَّ نزولي واستضافتي عند عامر البيشي كانت من أروع ما يمكن.

الاثنين **1** والثلاثاء **2** أبريل **1878**- كون المدفع لم يصلْ بعد بقيتُ في الخريبة، وكوني مللتُ كثيراً من هذا التأخير، كرَّستُ كل وقتي للصيدِ. قتلتُ خمسة أرانب برية وثمانية حجال وثلاث دجاجات حبشية والعديد من الطيور الصغيرة. وكالمرات السابقة عملتُ كطبّاخٍ مجيداً هذه المهمة كفنانٍ ماهرٍ.

الأربعاء **3**- أخيراً عند الصباح، سمعنا قرعَ الطبول عند معبر الخريبة. المدفع الشهير كان قد وصلِ عند الساعة العاشرة، من فوق سطح منزل عامر، رأيتُ العديد من البدو يسيرون في أسفل السهل، مُسلَّحين بالبنادق. كان هؤلاء الجنودَ الذين يقودون العديد من الجمال المحمَّلة بالإطارات والأخشاب وصناديق من البارود والقذائف وكلّ التجهيزات اللازمة لتشغيل المدفع الذي كان مربوطاً على عارضتين كبيرتين من الخشب ويحمله أربعة جمالٍ.

غادرنا عند الرابعة، وبوصولنا إلى مجبا ة (الضالع) بعد ساعةٍ واحدة، هطلتْ علينا مياهٌ من عاصفةٍ شديدة أجبرتنا على التوقف لاستحالة متابعة السير، فاسترحنا في مغارةٍ طبيعيَّة حيثُ أمضينا الليلة فيها.

الخميس **4**- عند طلوع الفجر، قمتُ عن الأرض، حيثُ رقدت عليها الليل غافياً، نصفَ متجمد من البرد و الرطوبة. أُشعِلتْ نار كبيرة، وانتظرنا بعدها وصولَ الأمير علي مقبل، الذي كان قد غادر الضالع، مقرَّ إقامته.

انطلقنا عند التاسعة بعد وصول خبر قدومه القريب، وعند العاشرة، التقيناه في الحردبة، حيثُ توقفنا لتناول الفطور.

الأمير علي مقبل اليافعُ السنّ، رجلٌ جميلٌ جدّاً و ذو آدابٍ

لبقة جداً . في عام **1871**، شُنَّت حربٌ ضده من قبل الأتراك الذين أرادوا الاستيلاء على إمارته، فهزموه وأرسلوه سجيناً إلى تعز. مَكَثَ هناك ثمانية أشهر، وبسبب المعاملة السيِّئة، أصابه مرضٌ خطيرٌ في عينيْ، حتى فقد واحدة منها، اليُمنى. قامَ إنكليزُ عدن، المذعورون من تحركات الأتراك الذين اندفعوا إلى حد لحج، بالتحالف مع جميع قبائل جنوب بلاد الشاعري، فأجبروا عندها الأتراكَ على إعادة الحريَّة والدولة إلى علي مقبل، ولهذا فهو يُحبُّ الإنكليز كثيراً، وكذلك كل الأ وروبيين، إذ يعتقد أنَّهم كلُّهم إنكليز. وبخصوص الأتراك، قال لي بأنه يُفضِّل أنْ يَتَهَوَّدَ مرتين على أن يعطي قطعة خبزٍ لأي منهم حتى ولو كان يموت من الجوع.

مَا كان أكبر خذلا ني في رؤيتي للمعسكر العربي ! بدو صعاليك، نفس الذين كانوا يقودون القوافل في أحوال غير هذه، لكن هذه المرَّة بدلاً من أن يكونوا مسلحين بالرماح أو العصي، كانوا يحملون بنادق بالفتيل : هؤلاء هم الجنود . والمعسكر؟ مشابهاً تماماً بموقع استراحة القوافل الكبيرة؛ و من دون خيَم وضبّاط، لم أكن لأقولَ أبداً بأنني متواجدٌ في معسكر عربي.

والأسوأ بالنسبة لي، أني من خلال كلِّ أحاديثهم فهمتُ وللأسف بكل وضوح مدى خوفهم من اقتحام معبر الواحة، لتوصيل المدفع الشهير إلى الحوطة، الذي للعلم كان آلةً قديمةً مُتلفة: وأقول الصراحة، أنا نفسي لن تأتيني الشجاعةُ لإطلاق النار به لو تم تجهيزه لذلك. حتى الأمير نفسه، كان ق د أفهمني بأن الأشياء ستدوم طويلاً، وأنَّهُ لصَعب الوصول إلى الحوطة بأقل من ثمانية أيام.

وأبلغني أيضاً عن قراره بالوصول إلى السودة في النهار نفسه عند السلطان المُحا ذي للعلويين، والانتظار هناك الوقت المناسب للانتقال إلى الواحة من دون المخاطرة بشيءٍ، أي من دون حرقٍ للبارود، فقلت له بأني سأسبقه في السير قليلاً حتى

أجد مسكناً أفضل في السودة.

فقام هو مصدقاً ما قلت له، بإعطائي اسم عربيّ من السودة، كان يملك منزلاً مُريحاً فيها، حيثُ كان بإمكاني النزول هناك مرحباً كلَّ ترحيبٍ .

أعطيتُ بسرعةٍ الأمرَ لخادميِّ بتحضير البغال، ثم انطلقنا فوراً. كنتُ أعرف الطريقَ تماماً، لذلك بعد اجتياز السودة من دون إعلامهم بشيء، وصلتُ عند الرابعة راكضاً بسرعة إلى دار شيبان، أول قرية في بلاد الحوشبي. بعد أنْ وجدتُ مسكناً لليل طلبتُ العشاء. وطلبتُ من ربّ المنز ل أن يبحث لي فوراً عن شيخ القرية، الذي حَرِصَ على القدوم لزيارتي . بكلماتٍ قليلة، قلتُ له من أكون، وإلى أين كنت أنوي الذهاب، آمراً إيّاهُ بتنبيه فضل بن يحيى أو مَنْ ينوب عنه عن وصولي في الغد وعبوري للراحة، بحيث يتركني الجميع بسلام.

فقال لي مُقبِّلاً يدي: « كونك الآن ضيفنا، فأنت شيءٌ مقدَّسٌ لنا، ولسوف أُلبّي طلباتك كاملةً».

كان خادماي قد فهما الحيلة التي لعبتها عليهما فلم يسكنْ لهما ساكنٌ من الخوف، واضطررت أنْ أتوسل إلى الشيخ ليُكلمهما حتى يطمئنّان.

استلقيتُ للنوم باكراً في المساء . أيقظني خادماي في وسط الليل، صارخين: "يا خواجة، شوف بكم عسكريّة".

وفي الواقع، بعد أن أنبأ الشيخُ فضلَ بن يحيى بقدومي، اعتقدَ هذا الأخير أن من واجبه المجيء لزيارتي. ورافقه العديد من الجنود لتكريمي بطريقةٍ أفضل.

استقبلته بلطف، وعندما افترقنا قال لي بأنهُ كان قد أمر الاثني عشر من جنوده أن يرافقوني مُسلّحين حتى حدود بلاد العبدلي.

اعتزم أخيراً خادماي بأن لا يخافا مُجدَّداً، وقالا لي بفرح : "يا خواجة، أنت واحد رجّال".

الجمعة 5- اقتربنا عند الثامنة والنصف من ضواحي الراحة ووجدتُ على الطريق الا ثني عشر رجلاً المعيَّنين لمرافقتي . تركوني عند الواحدة ظهراً بالقرب من دار الشقعة: أعطيتُ لكلٍّ واحدٍ منهم هدية نصف ريال.

نور عثمان محمود ابن علي نوري
وكيل تجاري هندي مسلم، قاطن في عدن.

وجدت في دار الشقعة جنود سلطان العبدلي، الذين قاموا بتقديم تحيَّة السلاح لي (ربما المناسبة الوحيدة في كل وقت الحرب لاستعمال البارود)، فجاوبت عندها ببضع طلقاتٍ ناريَّة.

بعد أن وجّه إليّ ألف مجاملة، حاول رئيسُهم محسن عبد الله ابن عم سلطان لحج أنْ يعرف مني معلومات عن عتاد ومشاريع أعدائه، فأجبته بصرامة : «محسن عبد الله، أنا رجلٌ، أُسافر وحدي، ولا أعلم أن أخون أحداً، لا أنتَ ولا أصدقائي الآخرين. لستُ عربيّاً لكني صديقُ كل العرب».

فَهِمَ عندها كُبرَ خطئه بسؤ اله ذلك، فقدّمَ كل الاعتذارات، وحلَّفني بعدم قول شيءٍ لابن عمَّه السلطان، لأنَّ هذا الأخير كان سريعَ الغضبِ كثيراً منه. فوعدته بذلك وحافظتُ بالطبع على وعدي.

عند الخامسة والنصف دخلتُ إلى الحوطة.

السبت 6- وأخيراً، عند الثالثة والنصف ظهراً، وصلت إلى منزل قنصلنا في عدن.

ألم يكنْ الجليليون على خطأ؟

ألم أكن أعرف البدو بما فيه الكفاية حتى أكونَ أكثرَ من مُتأكّدٍ بشأنهم؟

دخل الصنعانيون الثلاثة، الذين بقوا في الخلف مع الأمير، بعد اثنتي عشر ة يوماً الحوطة، من دون التعرض لأي أذى خلال المسيرة!

وهذه هي الطريقة التي تقام بها الحروب بين البدو الآن.

كان القنصل الإيطالي ما زال في عدن.

فهرس المحتويات

مقدمة الصندوق 7

تقديم السفير ماريو بوفو 9

مقدمة المترجم 11

I. التجهيزات - المغادرة - قوات عدن - المِجْرَاد - الشيخ عثمان- بيت وحديقة حسن علي بك - الليل في الصحراء - لحج 17

II. بلاد العبدلي - لحج - الحوطة - مأوى القوافل - القهوة و(النرجيلة) الغليون العربي - كُتّاب السلطان - شهر رمضان - البيوت العربية - المساجد 25

III. مغادرة الحوطة - الحقول والحدائق - دار القُرَيشي - حائط الليم - الغِل - النساء البدويات - زيّهن وتصرّفاتهن - الرجال- اللحية- قافلتي تزداد عدداً- الزَايدة- أفعى- ضربة شمس- مداواة بالكينين - البدو : طباعهم، تقاليدهم، زيّهم، حروبهم وحرّيتهم الدينية - السلاطين والأمراء والشيوخ - خلافة العرش - القوافل - المؤلفُ مُسافراً - الاستراحة 41

IV. المغادرة - صحراء من الرِّمال - لصوصٌ وقتلى - تخييم - وادي منيف - قافلة خفيفة - وادي سيت - دار شيبان - دار الحجَر - وادي السايب (صهيب)- أقوم بتخويف سُلطان العلويين (العلوي)- في الحردبة - وادي الجافِلة والخُريبة - الرباح - وليٌّ من الأولياء - عامر البيشي - نقِيل الخُريبة - بلاد الشاعري - وصولي إلى الجليلة 63

V. الجليلة - عبيش صالح وعائلته - القوافل من عدن إلى صنعاء- أنا مضطر لأن أعمل كطبيب فأتدبر أمري بشكل جيد - الأمراض الشائعة - الصيد - القبيليون - طباعهم ، وتعليمهم، وعاداتهم وتقاليدهم- النساء القبيليات - تغنجهن- شغفهن لأن يعجبن الرجال- الزواج- إنه عقد بسيط - كيف يتم - احتفالات الزواج - لحظة حرجة - الأبناء - الختان - رحلة إلى قعطبة- زيارة إلى القائمقام مصطفى بك - ليلة رهيبة- الرجوع إلى الجليلة- البئر والنساء - اهتمام مُقبل - مصبغة للنيل 77

VI. السفر إلى قعطبة - تَفَقُّد صناديقي - قعطبة - السهر عند القائمقام - حُكّام اليمن - من قعطبة إلى "عز ب"- وادي العود، أحد منابع وادي ثُبَن- ممر حدة- سهل وادي بنا- السدَّة - الأمراض وأسبابها - وادي بنا - النباتات والحيوانات- القات- نهاية شهر رمضان- الألعاب والتقاليد 105

VII. مغادرة السَّدَّة- سوق الثلوث - محاولةُ صيد "الرباح "- وادي (خبان)- نُزهةٌ - وديانٌ جافةٌ وصخرية - رباط القلعة- شيخٌ ممتاز - يريم- نساءٌ مُحجَّبات - سمسرةٌ في الجبل - مغادرة يريم - الخطوط الفاصلة في اليمن - معجزة علي - العجوز زينة - ذمار القرن - زوابع وأمطار - ذمار - انهيار منارة - طريقة قطع الخشب - المغادرة - معالجة زكام - معبر - نقيل يسلح - الريّ بالمياه المستخرجة من الآبار - وعلان - صاحب مطعم خبيث- وادي المحاقرة - حزيز - الوصول إلى صنعاء 131

VIII. مدينة صنعاء - الانطباعات الأولى - البيوت - قنواتٌ وسخةٌ- أجدُ بيتاً لي- ليلةٌ تعيسة - البقّ- أقع من أرجوحة النوم - البنّاؤون والمبيِّضون - زياراتي إلى السلطات 151

IX. مدينة صنعاء
..... 169

X. لمحةٌ عن تاريخ اليمن - نبيٌّ دجال - الخلفاء - عليّ والعلويون - استيلاء إبراهيم بن موسى على اليمن - البرتغاليون - الزيدية - الأتراك - الأتراك مُرغمون على ترك اليمن - الإمامة في صنعاء - الوهابيون - الحروب المصريّة- عودة الأتراك إلى اليمن - الحالة الراهنة لبلاد اليمن السعيد 219

XI. عرقا الأتراك والعرب - العرب- القاضي، الفقيه، الإمام، (الناظر)، المؤذن- الملاكون- أصحاب الدكاكين والتجار - الحرفيون - المزارعون - المحكمة - القضاة، الكُتّاب ، الشهود- الفِقه الإسلامي: البلوغ؛ حقوق الأب؛ الوصي؛ الديون والإفلاس؛ تجريد الأهلية؛ القروض على رهان؛ الهبات - العادات العربية - العائلة - الاستعباد - الرجال - العرب؛ روحهم للسخرية - الملابس - النظافة - توظيف الوقت ومشاغلهم- النوم وطريقته- أقوال التعجب - الخدم- النساء- لباسهنَّ- الحَريم- الحياة داخل الحريم - الزيارات- اهتمامات النساء - الزيجات والحِيَل 245

XII. الديوان- الآداب العربية- التحية- الخرافات : الجنّ، العين، التعاويذ، التنبُؤ بالمستقبل، السحر، تحضير الأرواح، التنجيم أيام الحظ وأيام التعاسة، الكيمياء، الأولياء والدراويش - الأموات- حزن الأقارب - المأتم- المقابر والمدافن- الخِتان 273

XIII. المأكولات - القهوة على الطريقة التُّركيَّة- الحشيش 289

XIV. حياتي في صنعاء - مُعَلِّمُ اللغة العربية- مشروعُ رحلةٍ داخل شبه الجزيرة العربية- مشاريعٌ تجارية- الشركة التجارية مع البحر الأحمر- قصةُ الثمانية كيلوغرامات من الكينين- أقرِّرُ مغادرة صنعاء لبعض الوقت والعودة إلى عدن- مغادرةُ صنعاء- وعلان- سعيدة الجميلة- سقوطٌ عن البَغل متوَّجٌ بصفحة يد من فاطمة الجميلة- معبر - إبراهيم بيك- ذمار - يوسف أفندي- مصطفى بيك يدعوني للغ داء عنده - المُقبِّلات والغذاء التركي - ترفيه عربي - أغاني - راقصاتٌ عربيات - رقصةُ النحل - مغادرةُ ذمار - يريم - 301

السَّدَّة- تجار صنعانيون- يبدأ مفعول طريقة الحكم الجديدة لمصطفى عاصم باشا - بلادٌ زراعيَّة وخصبة غير مزروعة بالكامل - قائمقام تركي - مشهدُ سحب جميل - أرنبٌ بري - أزاب- قعطبة - الجليلة - عُبيش يُقنع خدّامي بمرافقتي إلى عدن - ثلاثة صنعانيين يُرافقون ني- عامر البيشي يأتي لملاقاتي- مدفعٌ- معسكرٌ عربي- أغادرُ وحيداً مع الخـدم- دار شـيهبـان- عـمـي دٌ عـدوّ- الرَّاحـة- لحـج- عدن ....

فهرس المحتويات 333

خارطة مدينة صنعاء
Pianta della Città
di
SANÂA
1879 صنعاء: يناير-فبراير
Sanâa: Gennajo, Febbrajo, 1879.
RENZO MANZONI
رنزو مانزوني
Miglia Geografica di 60 al grado.
Mura in buono stato
" in cattivo stato
" completamente rovinate
Moschea
Casa importante
Case in buono stato e abitate
Case distrutte, Rovine
Giardini e Ortaglie
Campi coltivati
Strada per la Mecca
Strada per l'Uadi
Strada per Menakha e Hodeida
Strada per la Hadda
Strada ai Campi
Strada per Rôdha
Strada al Gibel Nuqum
Al Gibel Nuqum
Strada per Dhamâr, Jerîm, Aden
Cimitero arabo
El-Mutuakil
Bir el Azeb
Qâa el Yahud
Solbi Qâa el-Yahud
Bostan Attaus
Bostan el-Gedid
El-Giâma
Dogana
Scuola Turca
Il Consiglio
El Qasser
BAB EL-YEMEN
BAB ES-SABAKH
BAB ES-SETRAN
BAB EL-QASSER
BAB ESC-SCIOB
BAB EL-ABILE
BAB ER-RUM
BAB ESC-SCIARARA
BAB EL-BALEGA
BAB QAA EL-YAHUD
El-Hôrdi
o Caserme d' Infanteria
العُرضي
ثكنة المشاه
ثكنة المدفعية والفرسان
Caserme d' Artiglieria
e Cavalleria

فهرس المحتويات

مقدمة الصندوق 7

تقديم السفير ماريو بوفو 9

مقدمة المترجم 11

I. التجهيزات - المغادرة - قوات عدن - المِجْرَاد - الشيخ عثمان- بيت وحديقة حسن علي بك - الليل في الصحراء - لحج 17

II. بلاد العبدلي - لحج - الحوطة - مأوى القوافل - القهوة و(النرجيلة) الغليون العربي - كُتّاب السلطان - شهر رمضان - البيوت العربية - المساجد 25

III. مغادرة الحوطة - الحقول والحدائق - دار القُرَيشي - حائط اللَيم - الغِل - النساء البدويات - زيَّهن وتصرّفاتهن - الرجال- اللّحية- قافلتي تزداد عدداً- الزَايدة- أفعى- ضربة شمس- مداواة بالكينين - البدو : طباعهم، تقاليدهم، زيّهم، حروبهم وحرّيتهم الدينية - السلاطين والأمراء والشيوخ - خلافة العرش - القوافل - المؤلّفُ مُسافراً - الاستراحة 41

IV. المغادرة- صحراء من الـرِّمال - لصوصٌ وقتلى - تخييم- وادي منيف - قافلة خفيفة - وادي سيت - دار شيبان - دار الحجَر - وادي السايب (صهيب)- أقوم بتخويف سُلطان العلويين (العلوي)- في الحردبة - وادي الجافِلة والخُريبة - الرباح- وليٌّ من الأولياء - عامر البيشي- نقِيل الخُريبة- بلاد الشاعري - وصولي إلى الجليلة 63

V. الجليلة - عبيش صالح وعائلته - القوافل من عدن إلى صنعاء- أنا مضطر لأن أعمل كطبيب فأتدبر أمري بشكل جيد - الأمراض الشائعة - الصيد - القبيليون - طباعهم ، وتعليمهم، وعاداتهم وتقاليدهم- النساء القبيليات - تغنجهن- شغفهن لأن يعجبن الرجال- الزواج- إنه عقد بسيط - كيف يتم - احتفالات الزواج - لحظة حرجة - الأبناء - الختان - رحلة إلى قعطبة- زيارة إلى القائمقام مصطفى بك - ليلة رهيبة- الرجوع إلى الجليلة- البئر والنساء - اهتمام مُقبل - مصبغة للنيل 77

VI. المغادرة إلى قعطبة - تَفَقُّد صناديقي - قعطبة- الليلة عند القائمقام - حُكّام اليمن - من قعطبة إلى "أزاب"- وادي العود، إحدى مُتَفَرِّعات وادي تُبَن- اجتياز حدة- وادي بنا- السدَّة- الأمراض وأسبابها- النباتات، والحيوانات - القات- انتهاء رمضان - الألعاب، والتقاليد 105

VII. مغادرة السَّدَّة- سوق الثلوث - محاولةُ صيد "الرباح "- وادي (خبان)- نُزهةٌ - وديانٌ جافةٌ وصخرية - رباط القلعة- شيخٌ ممتاز - يريم- نساءٌ مُحجَّبات - سمسرةٌ في الجبل - مغادرة يريم - الخطوط الفاصلة في اليمن - معجزة علي - العجوز زينة - ذمار القرن - زوابع وأمطار - ذمار - انهيار منارة - طريقة قطع الخشب - المغادرة - معالجة زكام - معبر - نقيل يسلح - الريّ بالمياه المستخرجة من الآبار - وعلان - صاحب مطعم خبيث- وادي المحاقرة - حزيز - الوصول إلى صنعاء 131

VIII. مدينة صنعاء - الانطباعات الأولى - البيوت - قنواتٌ وسخةٌ- أجدُ بيتاً لي- ليلةٌ تعيسة - البقّ- أقع من أرجوحة النوم - البنّاؤون والمبيِّضون - زياراتي إلى السلطات 151

IX. مدينة صنعاء 169

X. لمحةٌ عن تاريخ اليمن - نبيٌّ دجال - الخلفاء - عليّ والعلويون - استيلاء إبراهيم بن موسى على اليمن - البرتغاليون - الزيدية - الأتراك - الأتراك مُرغمون على ترك اليمن - الإمامة في صنعاء - الوهابيون - الحروب المصريّة- عودة الأتراك إلى اليمن - الحالة الراهنة لبلاد اليمن السعيد 219

XI. عرقا الأتراك والعرب - العرب - القاضي، الفقيه، الإمام، (الناظر)، المؤذن- الملاكون- أصحاب الدكاكين والتجار - الحرفيون - المزارعون - المحكمة - القضاة، الكُتّاب ، الشهود- الفِقه الإسلامي: البلوغ؛ حقوق الأب؛ الوصي؛ الديون والإفلاس؛ تجريد الأهلية؛ القروض على رهان؛ الهبات - العادات العربية - العائلة - الاستعباد - الرجال - العرب؛ روحهم للسخرية - الملابس - النظافة - توظيف الوقت ومشاغلهم- النوم وطريقته - أقوال التعجب - الخدم - النساء- لباسهنَّ- الحَريم - الحياة داخل الحريم - الزيارات - اهتمامات النساء - الزيجات والحِيَل 245

XII. الديوان - الآداب العربية- التحية - الخرافات : الجنّ، العين، التعاويذ، التنبُؤ بالمستقبل، السحر، تحضير الأرواح، التنجيم أيام الحظ وأيام التعاسة، الكيمياء، الأولياء والدراويش - الأموات - حزن الأقارب - المأتم - المقابر والمدافن- الخِتان 273

XIII. المأكولات - القهوة على الطريقة التُّركيَّة- الحشيش 289

XIV. حياتي في صنعاء - مُعَلِّمُ اللغة العربية - مشروعُ رحلةٍ داخل شبه الجزيرة العربية - مشاريعُ تجارية - الشركة التجارية مع البحر الأحمر - قصةُ الثمانية كيلوغرامات من الكينين- أقرِّرُ مغادرة صنعاء لبعض الوقت والعودة إلى عدن- مغادرةُ صنعاء- وعلان- سعيدة الجميلة- سقوطٌ عن البَغل متوَّجٌ بصفحة يد من فاطمة الجميلة - معبر - إبراهيم بيك- ذمار - يوسف أفندي - مصطفى بيك يدعوني للغ داء عنده - المُقبِّلات والغذاء التركي - ترفيه عربي - أغاني - راقصاتٌ عربيات - رقصةُ النحل - مغادرةُ ذمار - يريم - 301

السَّدَّة- تجار صنعانيون- يبدأ مفعول طريقة الحكم الجديدة لمصطفى عاصم باشا - بلادٌ زراعيَّة وخصبة غير مزروعة بالكامل - قائمقام تركي - مشهدُ سحب جميل - أرنبٌ بري - أزاب- قعطبة - الجليلة - عُبيش يُقنع خدّامي بمرافقتي إلى عدن - ثلاثة صنعانيين يُرافقونني- عامر البيشي يأتي لملاقاتي- مدفعٌ- معسكرٌ عربي- أغادرُ وحيداً مع الخ- دم- دار شهيب- ان- عمي دُ ع دوّ- الرَّاح ة- لح -ج- عدن .....

فهرس المحتويات

333 .....